" حصل المؤلف على جائزة مفكر العام ٢٠١٣ "

فريق متميزون
E-BOOK

نقطة الصفر

ناريك ماليان

ترجمة: طوريكيان لابراديل

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

نقطة الصفر

رواية مترجمة..

المؤلف: ناريك ماليان

ترجمة: طوريكيان لابراديل

(1)
القداس

كليرمون.. 1095م

في أمسية نوفمبرية باردة من عام 1095، جمع البابا "أوربانوس الثاني" المؤمنين في كنيسة "نوتردام الكليرموني" لإحياء القداس.

هذا فارس آخر من النبلاء ينزل من عربته التي تجرها الأحصنة، ويتجه نحو الكنيسة وهو يعدل معطفه.. رجل في ثياب بالية يخرج هو الآخر من حقيبة العربة، ويُخرج مرهمًا ما من جيبه ويفرغه في كفه، ثم يقترب من الأحصنة ويشرع في تدليك قدم أحدها.. إنه السايس "مارك"، خادم الفارس النبيل.. تعثر أحد أحصنة الفارس قبل عدة أسابيع، فلزم مسح القدم بالمرهم كل ساعة مع قليل من التدليك.

طمأن الطبيب البيطري الفارس أن الإصابة ليست خطيرة، وأن حصانه سوف يُشفى إن تلقى رعاية جيدة.. لذلك قام الفارس باستئجار "مارك"، ليكون متنبهًا للأمر، مدركًا لمسئوليته، ومواظبًا على علاج الحصان بكل دقة، وبالفعل، كان "مارك" يوقف الحصان في الأوقات المحددة، ليضع المرهم على الأماكن التى حددها الطبيب، ويدلك القصبة الخلفية اليمنى.

كان واضحًا أن الأمر يروق للحصان، فكان يرتاح لاقتراب "مارك" ويصهل راضيًا أثناء التدليك.

كان الفارس قد قرر حضور القداس بعد أن انتشرت الشائعات في أنحاء البلاد أن البابا "أوربانوس" سوف يعلن عن شيء استثنائي ذلك اليوم؛ فسعى إلى الكنيسة من الأماكن المجاورة كل من استطاع إليها سبيلًا.

بعد الانتهاء من تدليك ساق الحصان، وقف "مارك" في ساحة الكنيسة شاعرًا بالبرد والملل، يحاول أن يخمن المناطق التي أتت منها العربات المختلفة.. عربات النبلاء ستائرها حمراء، تبهر الناظرين بزخارفها وتماثيلها المذهبة، عددها قليل، لكن جمالها الباهر يُضفي أهمية خاصة للحدث المنتظر.. من يملك تلك العربات - التي أمضى أمهر الحرفيين سنين في صناعتها - لن يأتي إلى هنا إلا لسبب وجيه.

تصور "مارك" نفسه مالكًا لعربة من تلك العربات فتملكته رغبة مفاجئة للتجول بإحداها لعرض سحرها الذهبي في كل مكان! لم تكن غالبية العربات التي تجمعت في ساحة الكنيسة غالية الثمن، ومع ذلك كانت فوق قدرة الناس العاديين على شرائها! هذه العربات الفخيمة وقفت في دائرة نصف قطرها 100 ميل فملئت بها فناء الكنيسة، ولم يبقَ مكان لأي إنسانٍ حتى للوقوف.

تذكر "مارك" أن عليه أن يمر على الخباز في طريق عودته إلى منزله، وتذكَّر أيضًا أنه كان قد طالبه بالديون المتراكمة عليه.. كيف يسددها ولم يبقَ لديه شيء

يبيعه ويسدد بثمنه الديون؟ فقد رهن عند المُرابي آثاث بيته الفقير، وهو لا يعرف كيف يمكنه تحقيق استقرار مالي بتدليك أرجل الخيل؟!

ضاقت الكنيسة بأعداد لا تُحصى من الناس الذين بدوا كأنهم كائن واحد له آلاف الأذرع والأرجل.. دخول الكاتدرائية أصبح الآن من المستحيلات.

حشر "مارك" رأسه من خلال باب الكنيسة، فغمرته روائح العرق الممتزجة بأنفاس الحشد المحشور، ومع أن الناس قد جاءوا من أماكن مختلفة، إلا أنهم سكتوا على الفور عندما ظهر البابا "أوربانوس الثاني" على مذبح الكاتدرائية.

جلس البابا على كرسيه وبحركة رأس طفيفة أمر ببدء القداس؛ فشرع الكرادلة والكهنة في مراسم النعمة، وصدح الأرغن من عليائه.

باسم الأب والابن والروح القدس، بدأ أسقف "بولونيا" في الصلاة، فاستجاب الحضور، على الرغم من الحشر والسحق، بعلامة الصليب، فنتج عن ذلك قدر كبير من الحركة في الحشد، لكنه لم يتحول إلى عراك بسبب قدسية الحدث وخشوع المصلين لله.

عادةً ما تحب هذه النوعية من الناس الشجار.. الرغبة في الاستمتاع تدفعهم للتجمع خلال المعارض الريفية أو الإعدامات العامة التي تُعقد في ساحات المدينة، وبطبيعة الحال أفضل طريقة للاستمتاع بمثل هذه الأحداث هو شرب براميل النبيذ كاملة، وكسر فكي بعضهم البعض دون سبب وسفك الدماء، ولاحقًا، بعد أن يعودوا إلى ديارهم، يتناقشون بشغف في أحداث الشجار، الذي بدأ لأتفه الأسباب بالتأكيد، فيتفاخرون بقوة ضرباتهم، نفس هؤلاء الناس يتصرفون بشكل مختلف تمامًا داخل الكنيسة أو خلال الطقوس الدينية؛ فالغالبية تخشى عرض مثل هذا السلوك في بيت الله.. هم هنا يفضلون الظهور كمؤمنين متدينين، يغفرون ضربة كوع من شخص يقف بالقرب، أو رائحة كريهة تنبعث من شخص يقف في الخلف، في حين أن تلك الأسباب نفسها يمكن أن تتحول بسهولة إلى سفك الدماء في أي حانة، أمَّا في الكنيسة، فهم ضيوف الله، يتصرفون بكل ما يمتلكون من أدب وحسن السلوك.

حاول "مارك" اختراق الحشد لدخول الكاتدرائية، ليس بسبب تدينه، بل لعدم استطاعته الوقوف في الظلام الحالك والبرد القارس في الخارج.. كان مستعدًا للنزول تحت الأرض إلى أكثر الأماكن سخونة في الجحيم، فقط لإيجاد قليل من الدفء.

كانت نغمات الأرغن الهادئة المطمئنة هي الشيء اللطيف الوحيد داخل الكنيسة، وما عدا ذلك فكل شيء يعكس الألم والعذاب، اللذين تحمَّلهما ابن الله الوحيد لنشر المسيحية.

كانت الأساقفة قد تجمعوا حول البابا في نصف دائرة يحدقون في المذبح المقدس، حيث تجرى الطقوس الرئيسية للقداس، كان رئيس الدير يوجه صلاته إلى الله، راجيًا السلام بعد كل رباعية، صلواته وصدحات الأرغن في تناغم تام، وبطبيعة الحال، لم يفهم "مارك" أي شيء لأنه لا يعرف اللاتينية، ولأنه كان يقف في نهاية

الحشد، حيث بالكاد يمكن رؤية أي شيء.. كان هو الرجل الأخير الذي يقف في نهاية الكنيسة.

كان القداس يدنو إلى الختام، ورفع الأرشمندريت دعوته للسلام بصوت أجش، ومع الصدحات الأخيرة من الأرغن، وقف "أوربانوس" الثاني وخطى إلى المذبح بهدوء.

انتشرت موجات من الإثارة في الحشد، الذي بدأ في الصراخ: "الله يريد ذلك!"، فأشار البابا بيده إلى أن يهدأوا وسار إلى الأمام ليلقي خطبته، ولكن الحشد أبى وواصل مقاطعة الخطاب بهتاف: "الله يريد ذلك! الله يريد ذلك!".

"Dieu le veut!"

كان "مارك" قد سمع مُنادي البابا يعلنون مسبقًا أن "أوربانوس الثاني" سوف يلقي بيانًا بالغَ الأهمية في خطبته، لكن ماذا؟ الناس الذين تجمعوا داخل الكنيسة فشلوا في التخمين، بعضهم تظاهر بمعرفة كل شيء فكان القول إن البابا سوف يعلن مباشرة "الأنتي بوب" (البابا المزيف) وتكهن البعض أن الخزانة البابوية أوشكت على الإفلاس، وأن لدى "أوربانوس الثاني" خطة لملئها من جديد.

وكان آخرون يدعون بثقة أن التوتر بين البابا و(البابا المزيف) قد وصل إلى حيث قرر "أوربانوس" مهاجمة روما بجيشه.

انتشر دخان البخور العطر في أنحاء الكاتدرائية، وانعكس ضوء الشموع عن ثياب الأساقفة المنسوجة من خيوط الذهب، فأضفت عليهم نوعًا من العظمة الزائفة.. انتشر بين الجماهير الحاضرة طنين من الإثارة لا يهدأ، مثل النحل في خلية، وكان "أوربانوس" مترددًا بين بدء خطبته والانتظار قليلًا حتى يهدأ الجمع، لكن الهتاف لا يهدأ: "الله يريد ذلك!"، فنظر "أوربانوس الثاني" للجماهير الهادرة وباركهم.

- أيها المؤمنون الأتقياء الأعزاء، كما تعلمون لديَّ رسالة مهمة لكم.

هكذا بدأ البابا "أوربانوس الثاني"، ثم أكمل:

- وصل النصل إلى العظم، لا يمكن أن نصبر أكثر.

فاستمر الحشد في الصراخ، مشجعًا البابا:

- الله يريد ذلك! الله يريد ذلك!

- نعم، أيها المؤمنون الأعزاء.. إنها إرادة الله، وكما تعلمون جيدًا لا تسقط ورقة من شجرة إلا بإرادة الله.. اليوم أود أن أشاطركم مخاوفي، لفترة من الوقت، كنا نتلقى معلومات مزعجة حول أعمال خارجة على القانون يرتكبها غير المؤمنين ضد الحجاج المسيحيين الذين يزورون قبر المسيح في الأرض المقدسة.. المسلمون ينهبون قوافل إخوتنا من الحجّاج، يغتصبون ويقتلون النساء ويستعبدون الأطفال.. الطريق إلى الأرض المقدسة بات بحرًا من الدماء.. حُرم المسيحيون من فرصة الوفاء بواجبهم الديني.. كنت أعتقد أن هذه الجرائم ليست إلا سرقات بسيطة، ولكن

عندما سمعت أنها تحدث بشكل مستمر، وتَرتكب بفظاعة، أدركت أن هذا ليس سوى تصفية للمؤمنين، وأنه تعدٍ على الإيمان وليس مجرد اعتداء على شخص معين وعلى ممتلكاته.

علت الأصوات الساخطة من الحشد.

- أشارككم سخطكم، ولأنني راعي الكنيسة المسيحية، ألم وحزن كل مسيحي مضاعف عندي مئات المرات، والحقيقة المؤكدة أن إخوتنا المسيحيين في خطر.. لقد غزا المسلمون المدينة المقدسة، "أورشاليم"، وقبر ربنا، دنسوا الأرض المقدسة تحت أقدامهم، يمشون عليها كأنهم أصحابها، ويقمعون إخواننا وأخواتنا في المسيح.. الدم والدموع هما اللذان يرويان الآن الحقول والصحاري.. المؤمنون يتركون منازل أسلافهم مرغمين، ويفرون من الأراضي المقدسة مع أسرهم.. باتت الأرض المقدسة أرض هلاك.. أتلقى العديد من الرسائل كل يوم، يتوسل فيها المؤمنون أن أساعدهم حتى يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة.

إخوتي، لا نستطيع أن نصبر أكثر، فكل يوم، كل ساعة من الصبر يكلفنا حياة مؤمن.

رفع "أوربانوس" رأسه، وصاح ونظره يجول في نقوش السقف الملونة:

- حانت ساعة الحساب! لندافع عن إخواننا وأخواتنا ولنقيم عدل الله في الأرض المقدسة، وفي جميع أنحاء العالم.. فهيًّا إلى الحرب أيها المؤمنون الأعزاء.

فاستجاب الحشد بنداءٍ:

- الله يريد ذلك.

انتشرت أصوات الحشد مثل موجة عارمة.. كان الناس ساخطين وغاضبين، وقد وافقوا البابا أنهم لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذه المعاملة تجاه المسيحيين، لم يهدأوا إلا عندما أشار "أوربانوس" بعلامة السلام.

- أرواح المسيحيين الشهداء تستنجد بي كل ليلة، تطالبني بالقصاص العادل.. إنني أذكُرهم في صلواتي كل يوم، ولكن علينا الآن ألا نكتفي بالصلاة.. وداعة المسيحيين للمسيحيين، أما التحدث مع غير المؤمنين، فهو بلغة القوة والسلاح، غير المؤمنين كلهم أشرار.. كل المسلمين عليهم لعنة الله الأبدية، أما عقابهم الدنيوي فبأيدينا.

سكت "أوربانوس" قليلًا، ثم أضاف:

- من الآن ومع نعمة البابا، يذهب المسيحي إلى الأرض المقدسة وهو مدجج بالأسلحة؛ فالهدف من الحج ليس الصلاة على قبر المسيح، ولكن لتحرير الأرض المقدسة من غير المؤمنين.. الأرض المقدسة تحتاج إلى تطهيرها من المسلمين.. إنها إرادة الله! ويجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا للقيام بتلك المهمة المقدسة.

هتف الحشد "الله يريد ذلك!" مرة أخرى، ولكن الناس كانوا يشعرون ببعض الحرج، فلم يفهموا كيف سيتم التحرير، ومَنْ الذي سيذهب إلى الأرض المقدسة،

ومع ذلك، كان الجو مشحونًا بالعاطفة، فتم التغاضي عن تلك الأسئلة.. افترض كل شخص أن الآخر قد يكون على بينة من خطة تحرير الأرض المقدسة، ولم يشأ أن يكشف عن جهله، أمَّا "أوربانوس" فتهدج صوته من التأثر:

- إنني على استعداد أن أُجنِّد لهذه المهمة شخصيًّا.. لا أرغب أن يكون هناك ضحايا، دعوني أتحمل بنفسي الصعوبات والمشقة، مبارك هو الرجل الذي يتحملها من أجل ملكوت السماء.. وهنا، وأنا واقف أمام المذبح، أود أن أعلن أيضًا أن جميع أولئك الذين سوف يختارون أن يصبحوا جنود الإيمان سوف يتم إعفاؤهم فورًا من الضرائب والرسوم، وسوف أسلمهم شخصيًّا صلبانا صغيرة قُطعت من الرداء البابوي، والتي سوف تؤمنهم على طول الطريق.

إن جنود الإيمان مكانهم في ملكوت السماء لو سقطوا شهداء وحتى لو ماتوا في أثناء الرحلة من المرض أو لأسباب أخرى؛ فليحميكم الصليب المبارك، ويحافظ عليكم من جميع أنواع المشكلات ويوفر لكم الراحة في أوقات المشقة أو الضيق.. من هذه اللحظة، أيها الحجاج الأعزاء سوف تُدعون بالصليبيين!

انفجر الحشد في فرح.. هم سعداء أن الفرصة قد حانت لاستعادة العدالة، لم يكن لديهم فهم عميق بما كان مطلوبًا منهم، لكنهم كانوا متأكدين من أنه إرادة الله.

(2)

خطاب الإمبراطور "ألكسيوس الأول كومنينوس" لـ"أوربانوس الثاني"

كليرمون.. 1095م

اتجه "أوربانوس الثاني"، عند الانتهاء من خطبته، نحو المذبح، حيث يجلس "أودو"، مستشاره المخلص وصديقه الأقرب، كان "أودو" هو المسئول عن كل هذا، ولكنه كان يفضِّل أن يبقى بعيدًا عن ملاحظة المؤمنين، يبدو متابعًا القداس، ولكنه كان، في حقيقة الأمر، يتابع البابا!

كان "أودو" يتجنب الحياة العامة، كان هو و"أوربانوس" مختلفين تمام الاختلاف، كان "أودو" علمانيًّا، فكيف حظي بثقة أقوى زعيم ديني، بل وكيف أصبح مستشاره؟ كان "أودو" صريحًا في آرائه، يزعج بها البابا مرارًا، إلى حد أن البابا كان يرفض استقباله لفترة قد تمتد لعدة شهور.. لا تدليل له! هكذا كان يفكر البابا، ولكنه كان يلين مع مرور الوقت فيستأنف "أودو" زياراته المنتظمة إلى القصر.

كان "أوربانوس" يحاول أن يتظاهر أنه لا يولي أي أهمية لنصائح وتعليقات "أودو"، الذي بدوره لم يكن مهتمًا إن كان البابا قد أخذ بها أم لا، كان يعتقد أن نشاطه يعزز التفوق البابوي، فيزداد زهوًا بنفسه.

لم يكن "أوربانوس" يتحدث مع "أودو" عن المسائل الدينية، واللاهوتية العقائدية، لم يكن حتى يعرف إن كان "أودو" مؤمنًا أم لا، لم يكن لذلك أي أهمية، فخدمة "أودو" للكنيسة تفوق ما يقدمه الكرادلة والأساقفة بصلواتهم الكاذبة وإيمانهم الكاذب.. "أودو" - على العكس - كان رجل العمل، وكان شعاره: "الحد الأدنى من الفلسفة، والحد الأقصى من العمل"، إلى جانب ذلك، كان "أودو" يتمتع بدراسة النفس البشرية ومبررات تصرفاتها.

كل تقارير الشرطة السرية تأتي إليه أولًا، ليقرر مع "أوربانوس" مَنْ مِن الموظفين تُغفر خطيئته، ومن يستحق العقاب، وبأي درجة من الشدة، لا يتخذ "أوربانوس" أي قرار دون الاستماع إلى رأيه.

وكان رجال الحاشية يعرفون هذا، ويكرهون "أودو"، ولكنهم، بالطبع، لا يظهرون كراهيتهم أبدًا بأي شكل من الأشكال، ويكتفون بالشائعات التي تملأ ممرات القصر البابوي! فإن سمعوا اسم "أودو" في حضرة "أوربانوس"، تظهر وجوههم شعور عدم الرضا تجاهه، ولكنهم ينحنون أمام البابا، وكأنهم يقولون: "الإرادة لك، أنت الكاهن الأكبر، ولكن إذا تُرك الأمر لنا، فلن نتسامح مع ذلك المتعجرف حتى لدقيقة واحدة".

على عكس الحاشية، فإن الملوك والأباطرة والطبقة الأرستقراطية كانوا يتظاهرون بعدم معرفة من المقصود، وكأن "أودو" ليس له وجود! كان كل هذا مسليًا لـ"أوربانوس".

كان البابا يعرف "أودو" من فترة طويلة، لدرجة أنه لا يتذكر متى كان اللقاء الأول.. كان يعلم أن "أودو" عنيد لا يرى أي شيء أبعد من نفسه، كان الكائن الحي الوحيد على الأرض الذي يجادل البابا بحرية مطلقة ودون قيود، ولا يخشى أن يبين له أخطاءه.

كان موقفه هذا يتطلب الكثير من الشجاعة، فالكنيسة الكاثوليكية تقوم على أساس عصمة البابا من الخطأ، فضلًا عن سلطته المطلقة على الحياة العلمانية.

كان يمكن تأويل موقف "أودو" هذا بأنه انتهاك لإحدى العقائد الأساسية للكنيسة الكاثوليكية، كان يخاطر بحياته فقد يغضب "أوربانوس" إلى حد الانتقام، ولكنه أبدًا لا يتنازل عن صراحته، مظهرًا اختلافه مع الرأي السائد، وقد حاول البعض من رجال الحاشية تقليد نهجه الجريء للفوز برضا "أوربانوس"، لكنهم طُردوا من القصر عند أول بادرة سلوك منفلت.

كان "أودو" شجاعًا ولكنه لم يكن متهورًا، وكان مستشارًا قادرًا على إعطاء أسبابٍ مقنعةٍ لتشكيل هذا الرأي أو ذاك، وهذا ما حدث في هذه الحالة.

قبل بضعة أشهر من خطبة "أوربانوس" في قداس "نوتردام"، وردت رسالة من الإمبراطور البيزنطي "ألكسيوس" تتضمن دعوةً وطلبًا.. رسالة يصف فيها الإمبراطور عجائب القسطنطينية، ويوضح أنه تم إنشاء 20 نافورة جديدة، ورصف أكثر من نصف المدينة، وبناء ثلاث كاتدرائيات جديدة، والانتهاء من تجديد كاتدرائية "آيا صوفيا"، هذا فضلًا عن إقامة أربعة مقرات للقضاة واثنين من المستشفيات، و12 مدرسة، ومسرح، وإصلاح الحمامات بالكامل، ثم دعا الإمبراطور الحبر الأعظم لزيارة القسطنطينية في أي وقت ولأي مدة ولرؤية المدينة الأجمل في العالم وأكثرها راحةً، ولم يدخر "ألكسيوس" أي كلمات في وصف المدينة الرائعة، وعلى ما يبدو، فإن الإمبراطور لم يكن كاتب الرسالة، ولكن كتبها الشاعر الذي تم توظيفه لهذا الغرض، وفي ختام الرسالة طلب "ألكسيوس" من "أوربانوس" تخصيص 100 - 150 جنديًا من الجيش البابوي لخدمات الدوريات الأمنية في عاصمته المسيحية الجميلة، وأوضح "ألكسيوس" أن الأجزاء التي بُنيت حديثًا وأعيد بناؤها من المدينة قد تتعرض لمحاولات تدمير ما لم تكن محمية بشكل صحيح، خاصة أن مواد باهظة الثمن قد استُخدمت للتجديدات، والتي بسببها جذبت المدينة اللصوص النهاب، وأصبحت الآن في خطر داهم، وفي نهاية رسالته، أعرب الإمبراطور مرة أخرى عن امتنانه لله، متمنيًا موفور الصحة للحبر الأعظم، مكررًا دعوته المفتوحة.

قرأ "أودو" الرسالة بصوتٍ عالٍ وقال:

- أتساءل كم سيكلف الخزانة البابوية المحافظة على 100 جندي لمدة سنة في القسطنطينية؟

فعلق "أوربانوس":

- لا أعتقد أنها ستكون مكلفة.

أحبَّ "أوربانوس" فكرة زيارة القسطنطينية، حتى إنه بدأ يفكر في شراء مقر صيفي هناك، في الواقع، كانت القسطنطينية أجمل مدينة في العالم المعاصر، لا يمكن أن تقارن بها مدينة أخرى، وأعرب البابا عن ارتياحه أن المدينة الأكثر جمالًا في العالم يمتلكها المسيحيون وليس المسلمين، أما "أودو" فعلق:

- المبلغ الذي سوف نصرفه سنويًّا، وفق أقل التقديرات، نحو 2000 قطعة من الذهب، ولا يتضمن نقل الجنود ونفقات الزي الرسمي والبريد، وما إلى ذلك.

اكفهر وجه "أوربانوس"؛ فالمبلغ كبير جدًّا والخزينة البابوية ليست في أفضل حالاتها، فالحرب ضد (البابا المزيف) استهلكتها، ومحاولات جذب النبلاء إلى جانب البابا الحقيقي خربتها أكثر، وكان "أوربانوس" يحب أن يُظهر البذخ البابوي بعقد حفلات استقبال فخمة، فهي إثبات للسلطة البابوية المطلقة، ويدعو لتلك الحفلات موسيقيين عالميين يعزفون في كل أرجاء القصر، وتُقدم في أثنائها وجبات خفيفة أعدها طهاة أجانب لا يفهم أحد لغتهم، وتقوم فرق مسرحية بتقديم روايات تصور الأحداث التاريخية المهمة في العالم القديم، ومسك الختام قداس خاص تُستخدم فيه أواني صنعتها أيادي أكثر الصاغة والجواهرجية شهرةً.. حفلات باذخة تُظهر قوة السلطة البابوية وثروتها، ولكنها أدت أيضًا إلى تقليل محتوى الخزانة بشكل مقلق.

وكان هناك خطر آخر، النبلاء الذين يبدون التوافق الفكري مع البابا، ولكنهم يدخلون في مفاوضات سرية مع (البابا المزيف)، محاولين خدمة سيدين في الوقت نفسه، وللتحقق من تلك المؤامرات، أمر "أوربانوس" الشرطة السرية بمراقبة جميع الأشخاص المشبوهين، ولم يشك النبلاء أن كل خطوة من خطواتهم تتم دراستها بالتفصيل، سواء كانت علاقة حب أو اجتماعًا وديًا أو مؤامرة سياسية أو صفقة تجارية سرية، ويتم إبلاغ البابا بكل شيء، وقد استنفدت تلك الخدمات أموال الخزينة، وفي بعض الأحيان، تتكلف نشاطات الشرطة السرية أكثر من الحفلات الباذخة؛ فالمعلومات الجيدة سلعة ثمينة، ويتعين أحيانًا تقديم الرشاوى لأكثر من اثني عشر شخصًا للحصول على معلومات قيمة، تساعد على منع وقوع العديد من الأحداث غير المواتية، وبفضل جهود الشرطة السرية تم إجهاض الكثير من المؤامرات، من محاولات الاغتيال لاتفاقيات سياسية سرية، وكان أساس العصمة البابوية هو إحاطته علمًا بكل ما كان يحاك حوله، وكان رجال الحاشية يعرفون ذلك، وكان من المستحيل اتخاذ قرارات مهمة دون معلومات موثوقة يتم إعطاؤها للبابا بشكل وافٍ.

والآن يتردد "أوربانوس" في استجابة طلب "ألكسيوس".. يسأله "أودو":

- ما النفقات التي سوف تقطعها؟ وهل تجرؤ على زيادة الضرائب أو فرض ضرائب غير موجودة أصلًا؟

- لا يمكن فرض ضرائب جديدة.. حالة الشعب ميئوس منها تمامًا وسوف تبقى كذلك حتى يوم القيامة، الأمر نفسه ينطبق على زيادة الضرائب القائمة، ولكن من الضروري مساعدة "ألكسيوس".

- حقًا؟ وكيف تقترح القيام بذلك؟

ابتسم "أودو" هو يسأله.

- لا أعرف.. وينبغي أن نفكر في الأمر.

يؤكد "ألكسيوس" في رسالته أنه يقبل ويعترف بسلطتي الروحية، وهو ما يعني أنه سوف يهجرني إلى (البابا المزيف) ما لم نمد له يد العون.

كان الوضع الـ"جغرافية السياسية" المعقد شديد الأثر على الخزانة البابوية، تُدار معركة ضد الملك "هنري الرابع" ملك فرنسا، حول حق تكريس الأساقفة والنبلاء، كان ذلك من حق البابا، لكن "هنري" كان يحاول اغتصابه، وكان هذا الحق مربحًا جدًّا، وبما أن هناك حاجة إلى المال، فإنهاء المعركة التي لا معنى لها في صالح "أوربانوس" سيكون مفيدًا، وقد نظم "أودو" معظم العمليات العسكرية، ولا يتدخل البابا فيها إلا عند الضرورة القصوى، عندما يتطلب اتخاذ القرار المسئولية الشخصية، وكان "أودو" هو الذي يقرر حركة القوات الناشطة والاحتياطية، واتجاهات الهجوم والدفاع حسب الحالة، فضلًا عن مقدار أجور الجنود.. كان يقوم بكل ذلك ليس لأن "أوربانوس" لم يكن له اهتمام أو دور في المجال السياسي أو العسكري، بل على النقيض من ذلك، كان كل شيء تحت سيطرة "أوربانوس" المباشرة، حيث يبدأ اليوم وينتهي بتقارير "أوربانوس"، وكانت هناك أيضًا تقارير مؤقتة، مثل المعلومات التي تأتي بها الرسل، والتي تُقرأ عند الوصول، جميع المراسلات يتم التعامل معها من قبل "أودو"، ولكن بمعرفة وإشراف "أوربانوس".

كان "أودو" علمانيًّا جدًّا بالنسبة للشئون الكنسية، في حين أن "أوربانوس" كان روحيًّا جدًّا لتقييم الأعمال العسكرية والسياسية، وكان هذا مثاليًّا لكليهما، يعوض "أودو" نقاط ضعف "أوربانوس" ويتكئ "أوربانوس" على نقاط قوة "أودو".

كانت الانتصارات العسكرية العديدة تُنسب إلى "أوربانوس"، فتزيد سمعته كاستراتيجي بارع وقائد محنك، لم يمضِ وقت طويل منذ تنصيبه، ولكن الملوك الأوروبيين اطمأنوا جميعًا أن العصا البابوية في أيد أمينة؛ فـ"أوربانوس" الثاني لم يرفض فقط مواقف سلفه، بل عزز من قوة قبضته، والآن، بعد سنوات قليلة من تعيينه، لا يعترض النبلاء في كل أنحاء أوروبا على سلطته، وهكذا، أصبح وجود (البابا المزيف) نوعًا من القصص الخيالية.

كان (البابا المزيف) قد تخلى تقريبًا عن كل ممتلكاته وانسحب إلى مقر إقامته في روما، ممتنعًا عن الظهور، أما بالنسبة لـ"هنري"، فإن العمليات العسكرية التي بدأها "أودو" وضعته في موقف صعب، وبدا وكأنه يتبع سياسة عدم التخلي عن

كلماته للحفاظ على ما تبقى له من مكانة، وكان مبعوثو "أوربانوس" يفاوضون بالفعل لإسقاط طموحات "هنري" الصبيانية والتوصل إلى إعلان سلام متبادل المنفعة.

قال "أودو":

- "ألكسيوس" ليس غبيًّا ولن يتجه نحو (البابا المزيف)، خصوصًا الآن، مع نجاحنا الأكيد، فبعد معارك قليلة ستصبح قوته مجرد ذكرى.

فعلق "أوربانوس":

- لا يزال (البابا المزيف) موجودًا، وهذا يعني أننا يجب أن نكون أكثر تعاطفًا مع أصدقائنا؛ فالعدو يزيدنا رحمة نحوهم.. "أودو"، كيف يمكننا تلبية طلب الإمبراطور "ألكسيوس"؟

- حسنًا، يمكننا توفير الكثير من المال إذا امتنعنا عن الاحتفال بعيد صعود العذراء.

فسأله "أوربانوس" ساخرًا:

- وكم يبلغ هذا "الكثير"؟

- لا أستطيع أن أقول لك الآن، ولكنني أعتقد أنه سيكون كافيًا لتغطية المصاريف السنوية لمائة وخمسين جنديًا، أو ربما يمكننا أن نمتنع عن إحياء القداس في ذلك اليوم.

فصاح "أوربانوس":

- هل أنت مجنون؟ كيف يمكننا الامتناع عن إحياء القداس؟ يمكننا الإمتناع عن كل شيء، لكن الطقوس الدينية لا يمكن الامتناع عنها أبدًا.. يبدو أن هاجس المؤامرات السياسية أنساك أن سلطتي روحية.. روحية، أرجو أن تتذكر ذلك عند تقديم المشورة.

فابتسم "أودو" وقال بهدوء:

- رائع.

- ماذا تعني؟

- سوف أفكر أكثر في الأمر، وأجد حلًا لمشكلة لا يبدو لها أي حل.

فسأله "أوربانوس":

- قل لي، هل توصلت لشيء؟

- ربما.. ربما.

- إذًا أخبرني!

- ربما يكون الحل أقرب مما نظن، لكن عليَّ أن أتأكد، امنحني بعض الوقت.

- حسنًا، يمكنك الذهاب.

هذا هو "أودو".. يمكنه أن يجد مخرجًا لأي وضع.. ذهب إلى مكتبه وأمر الساعي أن يدعو رئيس المبشرين إلى مقر إقامة البابا، وحذر الساعي أن الدعوة سرية، فانحنى الساعي في إشارة إلى أنه يفهم أهمية السرية، ثم أرسل ساعيًا آخر إلى إيطاليا لدعوة أحد الفلاسفة المحليين إلى مقر البابا، يريد دراسة خطته جيدًا قبل الشروع في تنفيذها، وأن يتشاور مع كبار المتخصصين الذين يعرفون كيفية التأثير على ضمائر الناس.. كان قد تفهم تمامًا عقلية البابا.

(3)
خطوات "سعيد" الأولى

دمشق.. 1115م

لا يتذكر "سعيد" والديه، لا يعرف حتى مَنْ هو ومِنْ أين أتى؟!.. تنقل بين بلدان كثيرة يملؤها العرب، مظهره الفريد يشي باختلافه عنهم؛ فلـ"سعيد" عينان زرقاوان وبشرة بيضاء وشعر أشقر.. كان طويل القامة، عريض المنكبين، يختلف كثيرًا، وهو في عامه التاسع عشر، عن أصدقائه ذوي الحجم الصغير والبشرة الداكنة والعيون البنية، نشأ في الشارع واسترزق من التسول وتلبية الطلبات.. مفهوم الوالدين غريب له، وقد اعتاد أن يحل مشكلاته بنفسه.

عاش "سعيد" في دمشق، حيث اختلفت الأسواق عن مثيلتها الشرقية من حيث كثرة تجار الأسلحة.. كان بائعو السيوف يزعجون الناس، محاولين إقناعهم أن السيف سوف يحولهم حتمًا إلى قادة مشهورين، فيشيدون بصوت عالٍ بقوة أسلحتهم وضرباتها القاتلة، ويعرضون خناجرهم ذات المقابض الملونة، ويزعمون أن ضربة من خنجر دمشقي سوف يؤدي حتمًا، في غضون أيام قليلة، إلى الموت.

هذه هي حياة "سعيد"، يجوب الشوارع ويلبي الطلبات البسيطة.. حياة عادية، ليست باختياره، وأدرك "سعيد" أن عليه أن يبحث عن عمل حقيقي، كان جاره في الشارع نفسه الذي يعيش فيه رجل عجوز اسمه "أحمد"، يقوم بمساعدة المحتاجين، ويقول لـ"سعيد" إن عمل الخير يفتح أبواب الجنة للمؤمن وييسر له الدخول، ولذلك كان من الضروري أن ترعى الآخرين وتفيد الذين حولك، ولو بنصيحة حياتية مجربة.. كلمات جميلة، اعتاد "سعيد" أن يسمعها ولكنه لا يطبقها على نفسه، فالشاب في مثل عمره لا يكترث كثيرًا ما يعتبره ثرثرة جار عجوز، ولكن في الوقت نفسه يحتاج "سعيد" لصديق يبادله المودة في هذا العالم الموحش.

كان "أحمد" يخرج من بيته كل صباح عند شروق الشمس ويصلي، ناظرًا للشمس، ثم يأخذ مقعده على الشرفة الخارجية، ويدخن الشيشة ويشرب الشاي، ويطلق من فمه حلقات الدخان لا يعلم إلا الله كيف يخزنها في رئتيه وهو الرجل النحيف الضعيف، وكان الشارع، بعد شروق الشمس، يعج بالحرفيين الذاهبين لعملهم، فيحيون "أحمد"، فيستجيب بنظرة من الحكمة المتراكمة لشخص عاش أكثر من خمسمائة سنة تخطى خلالها الكثير من الصعاب.

كان "سعيد" يحب زيارة صديقه العجوز، ليستمع إلى قصص حياته الشيقة والأمثال التي تتضح بالحكمة، وفي بعض الأحيان لا يستطيع أن يجزم إن كانت القصص حقيقية أو محض خيال، ولكنها على أي حال كانت تفوق الأمثال إثارة.

وعند بلوغ "سعيد" عامه السادس عشر، أعطاه "أحمد" عملة ذهبية، وقال إن رجلًا قوي البنية مثله يجب ألا يعيش من التسول، وإنه قد اتفق مع رئيس قافلة تجارية أن

يعمل تحت إمرته، كحمال للبضائع أولًا، ثم، بعد اكتساب القليل من الخبرة، يمكنه أن يصاحبه في عبور الصحراء، ففرح "سعيد" كثيرًا، وشكره، ووعده أنه لن يندم أبدًا على تلك التوصية، وبعد أن تركه "سعيد"، صلى "أحمد" إلى الله، ودعاه راجيًا أن يجعل طريق الصبى سلسًا ومستقيمًا.

في صباح اليوم التالي، ذهب "سعيد" إلى حيث يتجمع فيه أصحاب القافلة والبائعون وقائدو الجمال.. كان لديهم العديد من القصص المثيرة، يحكونها لـ"سعيد" في أوقات الفراغ.

بدأ "سعيد" العمل في نفس اليوم، ووجده سهلًا "تحميل الجمال قبل الرحلات وتفريغ قوافل العائدين"، لم يمضِ وقت طويل وتمكن من استيعاب دقائق الوظيفة، فتعلم كيفية ترتيب الأحمال، والأهم من ذلك، كيفية تأمينها بالربطات المناسبة.. عرف قوة تحمل كل جمل فوزع الأحمال ببراعة لتسير القافلة في رحلتها الطويلة دون مشقة.

وبعد بضعة أشهر، كان "سعيد" قد أتقن جميع مهارات مهنته الأولى، وفي يوم من الأيام، اتصل به رئيس نقطة التجميع، وقال إن أحد الجمَّالين قد تزوج، وأقام في بلد آخر وقرر عدم العودة من رحلته، وكان هناك حاجة إلى شخص آخر لمرافقة القافلة التي كان من المقرر أن تغادر في اليوم التالي، واقترح أن يشغل "سعيد" مكانه.

وانتشى "سعيد" بالخبر.. كان يعتبر مرافقي القوافل سعداء الحظ، في كل مرة ينهى فيها تحميل القافلة ويشاهد مغادرتها، يشعر بغصة في حلقه.. تخيل المغامرات المثيرة التي يمكن أن تحدث على طول الطريق والبلدان المختلفة التى سوف تمر القافلة منها، وبطبيعة الحال، وافق على الفور ومن شدة حماسه لم يسأل حتى كم سيحصل من أجر، وهرع إلى صديقه "أحمد" ليبلغه الخبر.

في البداية، لم يفهم "أحمد" لماذا دخل "سعيد" مقتحمًا الباب، صارخًا، لكنه سرعان ما أدرك أن الأمر مرتبط بالعمل الجديد، وعندما هدأ "سعيد" وتمكن أخيرًا من الكلام بوضوح، عانقه "أحمد" بذراعيه النحيفتين وقبل جبهته، ونصح الفتى أن يكون منضبطًا في عمله ودعاه إلى توخي الحذر دائمًا.

فتح "أحمد" القرآن الكريم، وقرأ له آيات حول الاعتدال والإغراءات القاتلة، ثم باركه وأعطاه عُملتين ذهبيتين، وقال إنه يريد من "سعيد" أن يقدم له هدية من أي مدينة بعيدة عند مغادرته لها، لكنه لم يحدد الهدية التي يريد أن يتلقاها.

في الحقيقة، أعطاه "أحمد" المال لينفقه عند الضرورة فقط، لم يرغب أن يعطيه كهدية، خشية أن يجلب له كارثة، وليُفضل "سعيد" أن يدخر المال لشراء الهدية حتى لا يصرفه إلا فيما هو ضروري فقط.

بدأ "سعيد" على الفور التحضير لرحلته الأولى، بعد أن ودَّع "أحمد" العجوز، عاد إلى منزله، جمع ممتلكاته القليلة، وخرج يجري في الشوارع حتى وصل إلى نقطة تجمع القافلة، كان يشعر بأهمية خاصة؛ لأنه ليس مكلفًا بتحميل الجمال كما في

السابق، وبدلًا من ذلك، وقف يراقب عمل الحمالين.. هو الآن "جمَّال"، هذه هي وظيفته الجديدة.. شعر بالكبرياء، هذه هي أول ترقية يحصل عليها في حياته.

كانت أشعة الشمس الحادة تثقب عينيه وهو يهفو إلى مشاهدة الجمال، وهي تتحرك ببطء في طريقها نحو اللانهاية، إلى أماكن مجهولة لا يعرفها.

لم يعد يتحمل الانتظار، وكأن الجمَّالين والحمَّالين كانوا يتلاعبون بصبره، وأخيرًا، تم تحميل آخر صف من البضائع وربطها بإحكام، قام أكثر الجمَّالين خبرةً بصف الجِمال وفقًا لأحمالهم وسلوكهم خلال الرحلات الماضية، وبعد تعليمات قليلة من رئيس القافلة، بدأت الجِمال تسير ببطء نحو أبواب دمشق وتخرج إلى الصحراء.. رحلة أخرى بعد مئات الرحلات المماثلة، فلماذا تهتم الجِمال بنفاد صبر الصبي؟ يطرح "سعيد" الأسئلة للجمَّالين من ذوي الخبرة، يريد أن يعرف المسافة التي قطعوها منذ خروجهم من دمشق، فيجيبون بابتسامة متسامحة.

وكان في مقدمة القافلة بعض النساء.. حاول "سعيد" أن يفهم منطق مثل هذا الترتيب، عادةً ما تُخصص للنساء الأماكن الخلفية حتى لا يلاحظهن أحد، ولكن في القافلة، أُعطيت لهن الأماكن الأمامية، حيث كنَّ محط أنظار الجميع!

وأوضح أحد الجمَّالين المحنكين أن الصحراء مليئة بالمخاطر غير المتوقعة، وبالتالي فإن من الحكمة إبقاء الأشياء القيمة في مجال رؤيتهم.

يوجد فتاة صغيرة رقيقة مع اثنتين من كبار السن.. كان "سعيد" يجلب المياه من بئر بإحدى الواحات عندما رآها.. كانت النساء لا تُرى منهن شيئًا، ولكن عند البئر كانت الفتاة سافرة الوجه، جميلة، ففرح "سعيد" بها، أما الفتاة فأسرعت تُخفي وجهها بالخمار، ابتسم "سعيد" وأشار إلى أن تتقدم هي أولًا للبئر، فضحكت الفتاة والتقطت إبريق ماء كانت بالقرب من البئر، ومشيت بعيدًا، لم يرها "سعيد" إلا لبرهة، كانت كافية للاستمتاع بتلك التحفة الجميلة، تسارع نبض قلبه، لم يكن ذا خبرة في الغرام، كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بشيء لا يستطيع التعبير عنه بالكلمات.. في وقت لاحق، تغير هذا الشعور إلى حزن لا يمكن تفسيره وكآبة.

واصل "سعيد" السفر، مركزًا بصره على الجزء الأمامي من القافلة يحاول أن يخمن مَنْ مِن النساء المتشحات بالسواد قد تكون الفتاة الجميلة التي التقى بها بالقرب من البئر.

مرت الأيام، وفي اليوم العاشر، أوقف رئيس الجمَّالين القافلة، وقال إن رياحًا قوية يتوقع حدوثها خلال الليالي المقبلة، ولذا فإن القافلة سوف تتوقف عن المسير عند حلول الظلام، وسوف تستأنف الترحال فقط مع بزوغ الشمس.

في تلك الليلة، توقفت القافلة مع غروب الشمس، وبدأ الرجال في إقامة الخيام، وبعد نصف ساعة، شكلوا خيمتين، واحدة للنساء والأخرى للرجال، وقد تجمع معظم القافلة في خيمة الرجال وكانوا يلعبون الطاولة لقتل الوقت، وكان الجمَّالون قد تجمعوا في زاوية، حيث كان الرئيس يعطيهم بعض التعليمات، ثم طلب الجمَّالون

المبتدئون من زملائهم القدامى أن يحكوا بعض القصص الشيقة، يتسلون بها في الليالي الطويلة.

فقال رئيس القافلة وهو يجلس في مقعده المريح:

- دع المسافر القديم يقول لنا شيئًا مثيرًا للاهتمام.

فسألهم كبير الجمَّالين الذي كان قد رافق القوافل من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وكان مشهورًا يحترمه الجميع:

- هل سمعتم عن قصة "أبو طاهر أراني"؟

فرد أحدهم إنه يعرف تلك القصة.

- أعلم أنك تعرفها.. أي شخص آخر؟ هل سمع أي شخص آخر ما عداه؟

فتجمع الجمَّالون حوله في دائرة، صامتين.

- وبما أننا لا نستطيع السير في الليل، وأمامنا ليالٍ طوال، سوف أحكي قصة تسليكم وتمنع الضجر عنكم.. طبعًا إذا أردتم ذلك.

فصاح الجمع:

- نعم.. من فضلك!

- إذًا، فاستمعوا..

(4)
قصة أبو طاهر أراني

أول قتيل في سبيل الدين

كان يعيش في إحدى مدن "أصفهان" حلواني اشتهر في المدينة وخارجها، وقد وصلت شهرته إلى كبار المسئولين ورجال الدين، حتى قيل إن مفتي "أصفهان" أعتاد ألا يقرأ سور القرآن إلا بعد أن يتذوق بعض الحلويات.

كان الحلواني رجلًا يحظى باحترام كبير ويعيش حياة تقية، ملتزمًا بأوقات وقواعد الصلاة والأعياد، وبالروح نفسها ربى ابنه الوحيد، وكان هذا الحلواني، على الرغم من التزامه الديني وأسلوب حياته المتقشف، طيب القلب، يقدم قطع الحلوى لأي طفل يلتقي به في الشارع.

كان الأطفال يحبونه وأولياء أمورهم ينتظرون زياراته كمتحدث لطيف، بدا وكأن الله قد باركه في كل شيء، تتدفق تجارته مثل العسل الذي يبيعه.

وكان للحلواني، كما قلت، ابن اسمه "أراني".. كان "أراني" يؤدي الأعمال الصغيرة منذ طفولته المبكرة، يساعد والده في تفريغ التوابل من على ظهر الجمال وتحميل الحمير بالحلويات حتى يتم بيعها، وفي أثناء النهار، في فترات يقل فيها المشترون، كان يشرف على البيع، حتى يرتاح والده قليلًا، ويدخن الشيشة، أو يجلس أمام المتجر.

لا أحد يعرف لماذا بدأت تجارته تتدهور، بدأ موردو التوابل يطالبونه بأموالهم، مدعين أن كميات كبيرة من الحلويات قد فسدت من الحر.. سرعان ما هدد الإفلاس الحلواني، ولأنه رجل يعتز بنفسه، أخفى إخفاقاته عن الجميع، حتى عن أسرته.

اضطر أن يستدين، الديون الصغيرة تنامت إلى ديون كبيرة، وبعد إمهاله بعض الوقت، جاء الدائنون إلى منزل الحلواني، وأخذوا كل شيء ذي قيمة، ما عدا صينية برونزية تُستخدم لأكلة الأرز المطهي تمكن الحلواني من إخفائها.. كانت للصينية قيمة مضاعفة عند الحلواني؛ لأنها من صناعة أمهر حرفيي الفرس؛ ولأنها هدية من أحد ألمع قادة الفرس، كعلامة امتنان لإنتاجه حلويات أحلى حتى من الشربات.. في أيام نجاح تجارته ازدان منزله بالعديد من التحف الجميلة والمذهبة، وكانت الصينية معلقة على جدار غرفة المعيشة، أما الآن، ولأنها القطعة الوحيدة الباقية في الغرفة، فإن الصينية تؤكد البؤس الذي آل إليه المنزل.

بعد فترة عذاب، قرر الحلواني بيع الصينية العزيزة على نفسه، وأمر ابنه "أراني" أن يأخذ الصينية ويتبعه، دون أن يشرح السبب، حتى يؤجل الشعور بالإحراج حتى الوصول إلى السوق، كان الأمر مهينًا للحلواني.. إفلاسه معروف للجميع، ولكن

الناس، الذين يحبونه، لم يرغبوا في أن يزيدوا من آلامه، فيحيونه بشكل طبيعي، وكأن شيئًا لم يتغير في حياته وأن عمله لا يزال ناجحًا.

قبل مغادرة المنزل، سلم الحلواني الصينية إلى ابنه وبدأ يخطو إلى السوق، تبعه ابنه.. في البداية، كان "أراني" لا يفهم لماذا كان والده يتصرف بغرابة.. في طريقهما إلى السوق، قابل الحلواني الكثير من معارفه، وأخبر الجميع أنهما ذاهبان إلى السوق لإتمام بعض الصفقات، ولم يخبرهم عن نيته الحقيقية، وبعد وصولهما إلى السوق، وجَّه الحلواني ابنه أن يجلس قرب سجادة معروضة للبيع، وترك معه الصينية.. ابتعد هو سريعًا بضعة أمتار، ووقف يراقب ابنه، لم يكن يرغب في أن يشاهده الناس بالقرب من الصينية المعروضة للبيع، ولكن لم يقترب الناس من "أراني".. في الواقع، لا أحد اقترب منه، ولا حتى للاستفسار عن سعر الصينية.

في المساء، عاد الأب والابن إلى البيت خاليي الوفاض.. أدرك "أراني" أن الذهاب إلى السوق كان يعذب والده، لاحظ أن والده يغمره العرق عند مقابلة أحد معارفه في الشارع، فكر في الأمر طوال الليل، وبعد صلاة الفجر، أخبر والده أنه سيذهب إلى السوق بمفرده ويحاول بيع الصينية، لم يكن هناك منطق في ذهاب والده، الذي على أي حال، كان سيتابعه عن بُعد، في البداية، ادعى والده الغضب، ولكن بعد التفكير في الأمر لفترة من الوقت وافق على أن يأخذ "أراني" الصينية وحده إلى السوق.

في كل صباح بعد وجبة الإفطار، يحمل "أراني" الصينية ملفوفة في ورقة ويسير نحو السوق، لم يكن يعرف الكثير من الناس، ولن يسأله أحد عن رحلاته المتكررة إلى السوق، ولذلك لن يضطر أن يشرح أنه يحاول أن يبيع شيئًا ذا قيمة عند والده.

مع أنه كان يقضي كل اليوم في السوق، فإن الفشل كان دائمًا من نصيبه، يعود "أراني" إلى البيت، ليرى والده في انتظاره على الشرفة، ينظر الأب إلى يد ابنه، فيرى الصينية ويشعر بالسعادة والحزن في آنٍ واحدٍ، بالسعادة لأنه لا يزال يمتلك الشيء الأكثر قيمةً لديه، وبالحزن لأن المال المنتظر من البيع سوف يحل العديد من المشكلات لرجل في مثل ظروفه.. أيام وأسابيع مرت، ولا يزال "أراني" يذهب إلى السوق، في حين كان والده مشغولًا بالبحث عن طرق جديدة لكسب لقمة العيش.

وفي أحد الأيام، مر "الحسن الصبَّاح" من المدينة، في طريقه إلى مصر.. كان "حسن" الأب الروحي للطائفة النزارية، لديه العديد من الأتباع يسافر معهم إلى البلاد المختلفة يدعو إلى مذهبه، وكان زعيمًا قويًا، وموهوبًا بالنعمة الإلهية، وقد أحبه المسلمون الإسماعيليون.. كلماته أحلى من العسل وأثقل من الشربات، أي شخص يستمع إليه لا يمكن أن يبقى غير مُبالٍ أو يعصي إرادته لأن الله نفسه كان يتحدث من خلاله.

كان "حسن" يتجول مع أتباعه منذ عدة سنوات، يزور الأراضي العربية، التي كانت تحت الحكم السلجوقي، ويدعو الناس إلى الطريقة الإسماعيلية، وكان في طريقه إلى مصر؛ لاستكمال آخر مرحلة من التعليم الديني تحت إشراف الأئمة والعلماء البارزين.

بالطبع، في ذلك الوقت، لم يكن يعرف "أراني" أي شيء عن "الحسن الصبَّاح"، وكان ذاهبًا إلى السوق عندما اقترب الجمع منه، وكان لزعيم الجمع طلعة ملكية، على الرغم من أنه يسير على الأقدام ولا يرافقه المنادون مثل الملوك، كان يتميز عن الآخرين بملابسه الفاخرة، كانت لحيته أنيقة ولشعره تموج لطيف.. الآخرون يدينون له بالطاعة، فهو "الحسن الصبَّاح".

أبدى "حسن" اهتمامه بـ"أراني" واقترب منه، لم يهتم بالصينية البرونزية، بل حدق مباشرةً في عيني الصبي.. لاحظ "أراني" تفرس الغريب فيه وشعر برعشة تهز جسده، سأله "حسن" بصوت أجش:

- أيها الطفل، كم تطلب من المال لبيع هذه الصينية الجميلة؟

- سيدي، لم أضع السعر بعد، وسوف أبيعها للشخص الذي يتمكن من تحديد سعرها الحقيقي.

نظر "حسن" إلى التاجر الشاب وابتسم، كل شيء في مظهر "الحسن الصبَّاح" يناسبه تمامًا؛ ملابسه المخملية باهظة الثمن، شعره المتموج، لحيته الأنيقة - ولكن ليس ابتسامته، فهو يبدو وكأنه يقترض ابتسامته من شخص آخر - وبتلك الابتسامة المستعارة قرأ "حسن" ما يجول في رأس "أراني"، وقال دون أن يخفي سعادته:

- ألا تخاف أن يعرف شخص قيمتها الحقيقية ويخدعك، ويدفع لك أقل مما تستحق؟

- هذه ليست مشكلة يا سيدي.. أجمل الأشياء تُعطى مجانًا، فمُبدِعُها رب السماوات.

وضع "حسن" الصينية على الأرض، فاهتمامه ينصب على التاجر الشاب، لا على بضاعته، وقال:

- لا يمكن بيع هذه الصينية، فهي مختومة بختم مسجد بغداد.. بيع ممتلكات المسجد حرام، لا يمكن أن تُعطى إلا كهدية.

كان واضحًا أنه يختبر ذكاء "أراني".

فسكت "أراني" برهة وقال:

- في ليلة من الليالي، كان الخليفة "عمر" قد قرر أن يغادر قصره بلباس عادي، يسير في الشوارع ويرى كيف يعيش الناس، وفي أثناء عبور الشارع، سمع الخليفة شخصًا يغني، انتبه إلى الصوت وأدرك أنه من المنزل المجاور، فتسلق السياج، ونظر من نافذة المنزل، كان صاحب المنزل يحتسي الخمر ويغني.. غضب الخليفة، دخل المنزل من خلال النافذة وصرخ: "كيف تفرط هكذا في شرب الخمر؟ ألا تعرف أن القرآن قد حرمه؟".. فرد السكران: "يا أمير المؤمنين، لقد ارتكبتُ خطيئة واحدة، لا أنكر ذلك، أما أنت فارتكبتَ ثلاثة.. أريد أن أعرف العقوبة التي تنتظرك"، ارتبك "عمر" قليلًا وسأله عن ذنبه، فأجاب الرجل: "النبي قد حرم التنصت والتطفل، يعلمنا القرآن بألا ندخل بيتًا إلا بعد إلقاء السلام، أما التجاوز الثالث هو أن جميع المسلمين يدخلون المنزل من الباب، بينما دخلتَ أنت من النافذة"، فأقر الخليفة "عمر" بخطئه.

تعجب "الحسن الصبَّاح" من كلام "أراني":

- أرى أنك على دراية بالقرآن.. كم عمرك؟

- إنما يولد الناس ليعبدوا الله.. عمري خمسة عشر عامًا.

في ذلك اليوم، طال الحديث بين الاثنين، وتعجب "الحسن الصبَّاح" من علم "أراني" الديني، وعمق إيمانه وتفانيه في حب الله.. على الأقل، يبدو "أراني" كحمل وديع، ملامح وجهه صارمة، يمكن رؤية عضلاته القوية حتى من تحت ملابسه.. كانت إجاباته واضحة، دون تواضع مفرط، لا يتباهى بما يعرف، لكنه يعطي إجابات واضحة على أسئلة "حسن" المربكة، ويُظهر أحيانًا شجاعة الاختلاف معه، وكان "حسن" يستمتع بكلمات الفتى الشجاعة.. أخذهما الحديث، فنسيا الصينية التي بدأ الحديث بسببها، كانت الصينية بينهما، وقد يعتقد عابرو السبيل أن الاثنين يتناقشان حول مَنْ منهما له أحقية الاستحواذ عليها.

- يا بني، ما عملك؟

سأله "حسن" وهو يداعب لحيته البيضاء، وكأنه بذلك يعطي نفسه الحق في مخاطبة شاب غريب بكلمة "ابني".

- لا شيء حتى الآن.

- عِلمك هذا يفتقره الكثير من العلماء.

فقاطعه "أراني":

- من يريد أن يحكم، يجب أن يتعلم أولًا أن يطيع..

فوقف "الحسن الصبَّاح" تائهًا في أفكاره:

- إنني مسافر إلى مصر للقاء العلماء هناك، ولكنني أؤكد لك أن تبحرك في الدين لا يناسب أبدًا أن تنشغل ببيع السلع في هذا السوق المغبر البائس.

- أنا لا أعمل في السوق.. أنا هنا لبيع هذه الصينية بناءً على طلب والدي.. إنها من منزلنا، يا سيد "حسن".

- يا بني، سوف أشتري هذه الصينية، في الواقع، سوف أدفع لك ثمنها وأتركها عندك لأخذها عند عودتي، ولكن قبل ذلك أريد أن تفكر في الانضمام إليَّ، سوف أمر من هذه المدينة بعد بضعة أشهر، فإذا قررت تعميق معرفتك الدينية، وأن تكرس نفسك لخدمة الله، فسوف أخذك معي.

فسأله "أراني" باهتمام:

- إلى أين تذهب؟ ومتى ستعود؟

- سوف تعرف، عندما تأخذ قرارك.

أمر "الحسن الصبَّاح" رجلًا من رجاله أن يدفع ثمن الصينية، وقال لـ"أراني":

- إنني أترك الصينية لك.. احمِها!

فوعده:

- سأحميها حتى تعود.

- الصينية شيء مادي يمكن استبداله، فليحميك الله، يا بني، أراك لاحقًا.

بهذه الكلمات، ترك "الحسن الصبَّاح" السوق مع أتباعه.

أربع سنوات تقريبًا مضت على ذلك اللقاء.. أعطى "أراني" المال لأبيه ولف الصينية في ورقة لتسليمها لـ"الحسن الصبَّاح" عند قدومه، أما الأب فلم يفهم ما حدث، لم يعرف من ابنه إن كان "حسن" شريرًا أم طيبًا.. أخبره ابنه أن الغريب الذي اشترى الصينية منه، اقترح عليه أن ينضم إليه.. وبطبيعة الحال، والده لم تعجبه هذه الفكرة؛ لأنه يخاف من أن يترك "أراني" عائلته.

استمر كل شيء كالمعتاد.. كل يوم جديد يبدأ مع صلاة الفجر، وكل فرد من أفراد الأسرة اهتم بأعماله، وساعد "أراني" والديه في الأعمال المنزلية.. لأبيه صديقٌ يرسل لهم الشاي المصري، فيكسبون عيشهم ببيعه.. الربح ليس كبيرًا، لكنه يكفي لتلبية احتياجات الأسرة، لم تكن الأمور سيئة، لكن "أراني" كان في حالة انطواء وظل صامتًا لعدة أيام، لم يؤثر صمته على عمله بأي شكل من الأشكال، لكنه تسبب في قلق الأم؛ فكانت تسأل ابنها وتستجوبه، ولأنها لم تتلقَ جوابًا منه، ظنت أن صمت ابنها الغامض كان نتيجة الوقوع في حب إحدى الفتيات، شيء طبيعي لشاب في مثل سنه، وحاولت أن تخمن من قد تكون سبب حزن ابنها.. تابعت الأم الفتيات اللاتي يتعامل "أراني" معهن، وهن قليلات العدد، وفشلت أن تعرف مَنْ قد تكون.

ثم في يوم من أيام الخريف، تغير كل شيء، واختفى الهدوء والحياة المطمئنة من البيت.. اختفى "أراني".. لا أحد يعرف أين ذهب، حزنت الأم حزنًا شديدًا، تفكر دائمًا في أسوأ الاحتمالات، وتبكي كثيرًا، مثل أي أم، أما والده فقد شعر بعجز أجلسه دون حراك، لا يستطيع تفسير اختفاء ابنه، والأغرب أن الصينية التي كان "أراني" يحفظها لمالكها الجديد قد اختفت أيضًا.

وبعد أيام قليلة، جاء أحد أصدقاء "أراني" لزيارتهما، قال إنه رأى "أراني" في أحد الطرق المؤدية شمالًا، في موكب "الحسن الصبَّاح"، معافى سليمًا، وأنه طلب منه أن يخبر والديه أن كل شيء على ما يرام معه، وأنه قد اتخذ قرارًا نهائيًّا بتخصيص حياته للمولى عز وجل.

لم يكن الصديق كاذبًا.. كان كل شيء بالفعل على ما يرام مع "أراني"، وكان ذاهبًا مع موكب "الحسن الصبَّاح" إلى قلعة "آلموت" المنيعة.

***

كان قد مضى أكثر من شهر منذ انضمام "أراني" لموكب "الحسن الصبَّاح"، كان مشغولًا في أثناء هذه الأشهر بالوعظ، وفي جذب مؤمنين جدد من مختلف البلدان.. لم يعلم "أراني" وجهتهم النهائية، وربما لم تكن لها وجود، وفي ليلة من الليالي، قام

"الحسن الصبَّاح" بتجميع الكل، وقال إن لديه أخبارًا مهمة.. كان- بعد عودته من مصر - قد قرر تأسيس دولة تُحكم فقط بالفكر الإسماعيلي، كان قد أرسل بعض الوعاظ إلى قلعة "آلموت"، حيث استقروا داخل القلعة وانشغلوا بالوعظ، والآن، وبعد ورود أنباء سارة من الوعاظ، أراد أن يتقاسمها مع كل الذين يسافرون معه وينشرون الدعوة الإسماعيلية.

- إخواني الأعزاء! نحن ذاهبون للانضمام إلى إخواننا في قلعة "آلموت" وإنشاء مجتمع يحبه الله.. خدمة العلي القدير لا يفوقها شيء، وعندما تؤسس تلك الخدمة مجتمعًا جديدًا، فإن حب الله سيتنزل عليه، لن ننشغل بالصلاة أو باتباع الفروض، بل سنخدم الله في حياتنا اليومية، وسوف تفاجأون بسهولة تحرير قلعة "آلموت"، التي ترزح الآن تحت ظلم الكفار، سوف أحررها بعون ربي وبدون سفك الدماء.. تشجعوا، يا إخواني، فتحوا عيونكم وتوخوا الحذر، وسوف تشاهدون العديد من المعجزات إن شاء الله.

وبعد أسبوعين من خطابه، وصل الجمع إلى أبواب قلعة "آلموت"، وكان "حسن" قد أرسل الدعاة إلى القلعة فنجحوا في إقناع السكان بالإسماعيلية النزارية.. حاول قائد القلعة، والذي كان قد عُين من قبل السلطان السلجوقي، أن يتحدى دعوة "حسن" للاستسلام، لكنه كان قد فقد السيطرة على السكان، بعد أن اعتنقوا المذهب الإسماعيلي، وبايعوا "الحسن الصبَّاح" زعيمًا روحيًّا لهم، وأعلنوا طاعة أوامره فقط، وبعد أن خاطب "الحسن الصبَّاح" سكان قلعة "آلموت"، لم يكن أمام القائد أي خيار سوى الاستسلام دون مقاومة.. الجميع- بما فيهم القائد نفسه - اعترفوا به زعيمًا روحيًّا.. بادر السكان بفتح بوابات القلعة، ليدخلها "الحسن الصبَّاح" منتصرًا، بل يمكن القول إن الأهالي رفعوه إلى مقام الألوهية.

ومنذ ذلك اليوم الذي تم فيه تسليم القلعة، وبدأ "الحسن الصبَّاح" ومؤيدوه حكمهم على قلعة "آلموت"، وبعد استسلامه مباشرة، أرغم "الصباح" القائد السابق دفع مبلغ وقدره ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وفصله فورًا عند استلام المبلغ، وفي اليوم التالي، أعلن إنشاء دولة نزارية جديدة في قلعة "آلموت".. كان ذلك حدثًا لافتًا للنظر في وقت ساد فيه العنف وسفك الدماء.. فتح "حسن" القلعة دون عراك، ودون فقدان حياة واحدة، وذلك باستخدام مهاراته التفاوضية وكلمة الله لا غير.

الدولة النزارية التي شُكلت حديثًا لم تكن لتفلت من اهتمام السلطان السلجوقي، باعتبار أن دولة دينية جديدة ظهرت على أرض تتبعه، وأن مواطني الدولة الجديدة يرفضون الاعتراف بسلطته ويقومون بدعاية عدوانية في جميع أنحاء المنطقة، وكان وزير السلطان المسئول عن الوعظ والأمن الديني، وهو "نظام الملك"، أكثر قلقًا بشأن هذه المسألة، ويعلن مرارًا أن الدولة التي شكلها "الحسن الصبَّاح" لا يمكن أن تستمر طويلًا، وأمر رجاله بعدم التسامح مع وعاظ "الحسن الصبَّاح"، بل والتعامل معهم بوصفهم ناشري تيار طائفي بغيض، وفرض العقوبات عليهم في كل مناسبة، وأدى ذلك إلى أن يتحرك وعاظ "الحسن الصبَّاح" بحذر شديد وسرية، وواصلوا التجول من بلد إلى بلد، ينشرون مذهب زعيمهم الروحي.

ادعى أتباع "الحسن الصبَّاح"، وهم الحشاشون، أن الله يتحدث من خلال زعيمهم، وأنه مبعوث الله على الأرض.. كان عادلًا في حكمه ويُعاقب بلا رحمة، وكان الحشاشون يقومون برشوة المنادين، ليحكوا وينشروا القصص عن حكمة "حسن" وذكائه، وإنصافه، وعقوباته القاسية، في ساحات الأسواق؛ فتجد تلك القصص طريقها إلى بيوت عامة الناس، وتنتشر مثل النميمة والحكايات الشعبية، وقد اعتبر كل شخص أنه من واجبه تعظيم سمعة "الحسن الصبَّاح" برواية تلك القصص لمعارفه، وكما تعلمون فالشائعات هي الطريقة المثلى لنشر المعلومات؛ فالشائعات والقصص الشفهية هي الطريقة الموثوقة في نشر المعلومات، وكلما كانت المعلومات غير محددة، فإنها ترتقي إلى درجة الأساطير، وهالة السرية تزيد من متعة معرفتها، فضلًا عن أن امتلاك معلومات لا تتوفر للآخرين يعطي شعورًا بالسرور، والتفاخر بها في حضور الآخرين يضاعف المتعة.

***

قال قائد القافلة:

- يا "سعيد"، يمكنك أن تجرب ذلك بنفسك، لو سنحتك لك الفرصة، تفوه بسر يخصك لسبعة أشخاص حولك، وسوف يعود السر إليك، ولكن بطبيعة الحال، في شكل مشوه، مزخرف، وإذا كنت تريد أن تنتشر تلك المعلومات بسرعة مضاعفة، أطلب من الشخص الآخر ألا يبوح بالسر الذي سوف تكشفه له، فذلك، أولًا، سوف يزيد من اهتمام المستمع في القصة، وثانيًا، فإن الكذبة التي تحتوي على سر ما تنتشر أسرع من الحقيقة البسيطة والواضحة.

- هل تقصد أن أصدقائي سوف يفشون سري؟ هل تعني أن الوثوق بأي شخص حماقة؟ وأن أصدقائي يسعون إلى تدميري؟

- لا على الإطلاق! الصديق المقرب منك والذي يمتلك سرك لا يضمر الشر لك، وسوف يُعدل السر قليلًا، قبل الكشف عنه لأي شخص، ليطمئن أنه لن يضرك أبدًا.

ثم طالب رئيس القافلة بمواصلة القصة.

- كما قلت قبل قليل، اتخذت الحكومة قرارًا بإعاقة نشاط الحشاشين([1]) بكل السبل المتاحة، ولكن ليس بطريقة علنية.. مَنَع علماء السلطان اشتراك الحشاشين في الحلقات الدينية، تم توجيه المنادين لنشر الأخبار السلبية عن نشاط الحشاشين، ودعوة الناس للحذر منهم.. النزاريون واجهتهم الصعوبات عند تعاملهم مع مؤسسات الدولة.

في كل مكان كانت الآراء والمواقف السلبية تواجههم، مما أجبر الحشاشين على التصرف بطريقة سرية، باتوا يجتمعون في شقق "النزاريين" السرية ويعملون بحذر، يتجنبون الاتصال المباشر مع الغرباء، ونتج عن كل هذا نظام العلامات السرية التي بها يتعرف الحشاشون على بعضهم البعض من بين حشود الناس، وقد أنشئت أماكن تجمع سرية في كبرى البلدات، يتم فيها إعطاء الحشاشين مهام جديدة، أو يستريحون فيها بعد عناء رحلة طويلة.

وعلى الرغم من الظروف غير المواتية، كان عدد النزاريين ينمو يومًا بعد يوم، وبسبب الموقف المتعصب للوزير "نظام الملك"، وكنتيجة لأنشطة الحشاشين تحت الأرض، أصبح من المستحيل تحديد عددهم الفعلي.. كانوا يفعلون كل ما هو ممكن لإخفاء أنشطتهم، ولم يكن لدى الوزير أي وسيلة لمعرفة مدى شعبيتهم، وأنهم باتوا يشكلون تهديدًا خطيرًا لسلطة السلاجقة.

وفي الوقت نفسه، كان مركز الحشاشين، قلعة "آلموت"، في تطور مستمر؛ فعلى الرغم من أن "الحسن الصبَّاح" كان قد أعلن "آلموت" دولة دينية، فلم تكن أكثر من مجتمع يسود فيه أسلوب حياة زاهد منضبط، وتم تشجيع التقشف، ورفض أي بذخ، فحتى ارتداء الأحذية الدافئة في الطقس البارد اعتُبر بذخًا.. كان على المؤمن النزاري أن يكرس حياته لله، ولا يفكر أبدًا في الحياة المرفهة، وكان "الحسن الصبَّاح" يقمع بشدة أي انحراف عن العقائد الدينية، وكان الجلد أخف أنواع العقوبة في قلعة "آلموت"، لا يخلو أي أسبوع منها.. كان السكان- وهم يتشاركون في العقيدة نفسها- يعاملون بعضهم البعض كإخوة، معًا يحتفلون بالأعياد وينظمون مراسم الجنازة وحفلات الزفاف.

كان الناس يسترشدون بمبدأ تقاسم شواغل جيرانهم، كان سكان القلعة يساعدون ويدعمون بعضهم البعض؛ لأن ذلك هو الأسلوب الذي يفضله الله، وعندما يتعلق الأمر بحل مشكلة مجتمعية، فإن شعب "آلموت" كان يهب على الفور ويعمل كرجل واحد.. كانت مهمة "الحسن الصبَّاح" الوحيدة هي الحكم بالعدل، وإرسال الوعاظ إلى أقصى أماكن العالم العربي، حيث يمجدون إنجازات الطائفة الدينية النزارية، ويدعون المزيد والمزيد من المؤمنين الجدد إلى "آلموت".

وعند عودة الوعاظ إلى القلعة، كان يحل مكانهم وعاظ آخرون يتم إرسالهم إلى العالم الخارجي.. الدول الكبرى، وأقاليمها الممتدة لآلاف الأميال، تم تقسيمها بالتساوي بين دعاة "الحسن الصبَّاح".

وكان هناك سبب آخر مهم للسرية التي اِنتهجها الحشاشون، فهم - فضلًا عن نشر شهرة "الحسن الصبَّاح" - كانوا يجمعون المعلومات عن البلدان التي بشروا فيها، فينقلونها إلى زعيمهم؛ فعلى الرغم من وجوده في قلعة لا يمكن اختراقها ومقطوعة عن العالم، كان حريصًا على معرفة كل تفاصيل العالم، كان من الضروري أن يكون لديه فهم شامل للعالم الخارجي، وبفضل الحشاشين، عرف "حسن" الكثير عن الحكام، نقاط قوتهم وضعفهم، وميولهم الجنسية، وحفلات المجون التي ينظمونها، والمسئولين المفضلين لديهم والصراعات التي لا تنتهي بين هؤلاء.

حاول "الحسن الصبَّاح" عدم التدخل في تلك المسائل، فهو ببساطة يجمع المعلومات، وأتباعه لا يساعدون أو يعادون أي جانب.. إنهم ببساطة يجمعون المعلومات بأي وسيلة ويرسلونها إلى القلعة بالبريد السري، وقد تم احترام الحياد لأن "حسن" لم يكن يريد أن يشارك مجتمعه الديني في الصراعات والمؤامرات الخارجية.

ومع ذلك، وعلى الرغم من حيادهم، فإن سكان قلعة "آلموت" لم يفلتوا من انتباه السلطات السياسية، وكان المسؤولون الدينيون الذين يعيشون في تجمعات تحت الحكم السلجوقي يكرهون الحشاشين، ويعوقون أنشطتهم قدر الإمكان.. لقد فضل الحشاشون، كما ذكرت من قبل، أن يكون لهم منازل سرية خاصة في مختلف البلدات، يجتمعون فيها بعيدًا عن الأنظار، وكانت القيادة الدينية قد بدأت بالفعل تشعر بقلق بالغ إزاء أنشطة "الحسن الصبَّاح"، وواقع الأمر أنهم كانوا يحسدونه، واستخدموا قنوات مختلفة لمحاولة تحذير السلطان من طائفة دينية تعمل داخل أراضيه لم يكن له سلطة عليها؛ فسكان قلعة "آلموت" لا يطيعون إلا "الحسن الصبَّاح"، ويتجاهلون أي سلطة أخرى.. كانوا يعتقدون أنه رجل الله على الأرض وأنه أعلى مرتبة من أي حاكم، بما في ذلك السلطان، وكان الوضع يتدهور تدريجيًّا في ضواحي المدن، حيث يتعامل الناس بشكل طبيعي مع الحشاشين، بسبب نشاطهم الدعوي، في حين أن السلطات الدينية والدنيوية يُظهرون استياءً صارخًا تجاه مؤيديه، وكان هذا الوضع المتضارب يوشك على الانفجار، ولم يكن اليوم بعيدًا.

في عام 1092 وبعد 12 عامًا بالضبط من الاستقرار في "آلموت"، كان "أبو طاهر أراني"، وهو الآن زعيم دعاة الحشاشين، قد توجه إلى بلدة "ساوة" السلجوقية؛ للقاء قائد التجمع السري للحشاشين المحليين، ولنقل خطبة "الحسن الصبَّاح" الجديدة إلى إخوته الروحيين الذين يعيشون هناك، وقد دخل "أراني" ومجموعته بلدة "ساوة" متنكرين كتجار.. فهل أخفقوا في إخفاء شخصياتهم الحقيقية، أم أنهم تعرضوا للخيانة من قبل شخص ما، لأن مؤذن "ساوة" لاحظ تحركاتهم؟!

وكان المؤذن، بطبيعة الحال، قد سمع مرارًا عن الحشاشين وزعيمهم "الحسن الصبَّاح"، ولكنه في ذلك اليوم، وللمرة الأولى، شهد أنشطتهم في الحياة الحقيقية، ولذلك قرر أن يتابعهم، فاقتنع، بعد فترة وجيزة، أنه يتعامل مع نظام ديني عدواني جديد، وبدأ المؤذن، مع تلميذه، مراقبة "أراني" ومجموعته، يقوم برصد الناس الذين يلتقون بهم، يتنصت في بعض الأحيان على أحاديثهم.

في مساء كل يوم، كان الحشاشون يتجمعون في مسكنهم السيئ - مدخله الوحيد من السقف- وفي إحدى المرات، دخل المؤذن غرفة تجمع الحشاشين وأخذ يصرخ فيهم ويهددهم، وقد فهم "أراني" والحشاشون أن سرهم قد فُضِح، وحث "أراني" المؤذن أن يتركهم وينسى الأمر، ولكن المؤذن هددهم بالذهاب إلى السلطات على الفور والإبلاغ عنهم، فغضب "أراني"، وهاجم المؤذن ودفع خنجره مباشرةً في قلبه.

ارتكب "أراني" جريمته للحفاظ على سرية جماعته، ولم يكن يعرف، لا هو ولا أي من الحشاشين، أن تلميذ المؤذن كان يراقب المشهد بأكمله من خلال النافذة، وأنه أصبح دون قصد شاهدًا على جريمة القتل.. لم يكن لدى القتلة أي فكرة عن ذلك التلميذ، وأنه يتابع تحركاتهم مع المؤذن، وأنه كان على بينة من اجتماعاتهم السرية وأحاديثهم.. تم إخفاء جثة المؤذن المقتول في بئر على مشارف المدينة، وفي الليل ترك "أراني" المدينة مع مجموعته، واختفى عن الأنظار إلى أن تتضح الأمور، ويستقر الوضع.

وفي الصباح، ذهب تلميذ المؤذن إلى شيخ البلدة، وأخبره بما شهده في اليوم السابق، وقال إنه يعرف أين تم إخفاء جثة المؤذن.

تم العثور على جثة المؤذن، فامتلأت المدينة غاضبة، وانتشرت الشائعات أن القتلة من رجال "الحسن الصبَّاح" - يبدو أن التلميذ كان قد أبلغ البعض بما رأى - فاندلعت موجة من الكراهية والانتقام في "ساوة"، فبدأت أعمال شغب جماعية، من حرق منازل ومحلات تجارية، فضلًا عن دعوات العصيان، وكان المواطنون يخرجون إلى الشوارع يسعون الانتقام من القتلة، وبعد الصلاة في المسجد خرج المؤمنون إلى ساحة البلدة وطالبوا بقتل أي شخص لا يتبع الدين الحق، وبدأ عدد من الناس المغامرين في تسجيل أسماء اليهود والمسيحيين الذين يعيشون في "ساوة".

رفض الحرفيون الذهاب إلى العمل وعمت الفوضى والذعر والعصيان في أنحاء البلدة، فخرجت عن سيطرة السلطات المحلية.

وقد أصبح الوضع حادًا لدرجة أن "نظام الملك"، وزير السلطان السلجوقي، قد تم إبلاغه عن ذلك، فتم تقييم الوضع، وأدرك الوزير أن سلطة السلطان تتهاوى في "ساوة"، فأمر رجاله بإلقاء القبض فورًا على زعيم الحشاشين في البلدة، وهو الشخص الذي تم ارتكاب الجريمة في منزله وتنفيذ القصاص العادل، وفعلًا كان مصيره التعذيب والإعدام، وقد جرجرت جثته في شوارع "ساوة" حتى يتأكد الجميع أن القصاص العادل قد تم، وألا شيء يقوض قوة وعظمة السلطان، وعلقت جثة الحشاش في ساحة السوق المركزية كبرهان على عدالة السلطان.

وبعد وصوله إلى قلعة "آلموت"، أخبر "أراني" زعيمه "الحسن الصبَّاح" عمَّا حدث، وكان "أراني" قد ترك هو ومجموعته بلدة "ساوة" في الصباح الباكر بعد إخفاء جثة المؤذن، ولم يكن يعرف أي شيء عن توابع الجريمة من العثور على الجثة، والفوضى التي اندلعت في البلدة، ثم أوامر الوزير "نظام الملك" بالقبض على رئيس الحشاشين وإعدامه.

وقد وبخه "الحسن الصبَّاح" بشدة بسبب إهماله وعدم تبصره، وقد توقع أن قتل المؤذن سوف يأتي إلى النور عاجلًا أو آجلًا، وأن هذا من شأنه أن يعرقل بشكل كبير كل ما كان مخططًا له.. كان منزعجًا لأن التوازن الذي سعى إليه قد اختل دون رجعة، وأنه سيكون من المستحيل الحفاظ على الحياد، واشتد غضبه عندما دخل رسول وأبلغهم بالنهاية المأساوية للحادث.. طرد "حسن" الجميع من غرفته، ولم يجرؤ أحد أن يدخل عليه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.. خلال ذلك الوقت، انتشر في "آلموت" خبر إعدام أخيهم في الإيمان، وقد نوقش الحدث من قبل سكان القلعة في كل مكان تقريبًا، بالطبع، لم تشتعل احتجاجات تلقائية، لأن "آلموت"، على العكس من "ساوة"، كان مجتمعًا متجانسًا من مؤمنين يسترشدون بما في معتقدهم من قانون ونظام، وبدلًا من حرق المباني والدعوة إلى العنف، تجمع الحشاشون أمام منزل "الحسن الصبَّاح"، يطالبون بالانتقام لقتل شقيقهم في الإيمان، وكان مما زاد غضبهم، تفاصيل الإعدام الوحشية، والتمثيل بجثة الشهيد.

تجمع سكان قلعة "آلموت" الساخطون أمام منزل "حسن" يطالبون بالقصاص العادل من أولئك الذين مزقوا صديقهم إلى قطع، وبعد ذلك أعلن للمحتجين أن "الحسن الصبَّاح" سوف يُلقي كلمة تتعلق بالأحداث المؤسفة التي وقعت.. كان الحشاشون يتطلعون إلى سماع خطاب بشغف كبير، في الوقت المحدد، صعد "حسن" على سطح منزله حتى يتمكن الجميع من سماع خطابه، وبدأ بدعوة أن يرحم الله القتيل وأن يسكنه فسيح جناته كواحد من عباد الله المخلصين، وأعرب عن ثقته بأن الله سوف يكافئ القتيل عن كل الآلام والمعاناة التي عاشها حتى لحظة وفاته.. أعلن أن القتيل شهيد الإيمان، مشيرًا إلى أنه قُتل بسبب خدمته للعلي القدير، وبعبارة أخرى، كان المتوفى جنديًا من جنود الله، وسوف يصبح من قتلوه غذاءً للشياطين.

خلال تلك الأيام الثلاثة كان "الحسن الصبَّاح" يصلي من أجل روح القتيل، طالبًا من الله بأن يمنحه المكانة الرفيعة في أفضل بقعة من بقع الجنة.. صلى طويلًا، فظهر له مَلَكٌ من الملائكة، وأكد له أن الحشاش الشهيد يوجد الآن في جنة تبهر الأنظار، يتمتع بنعمة الله وبركاته، وقال الملاك إن أجمل حور العين يرضين الآن جندي الإيمان بأجسادهن العارية الجميلة، وبالإضافة إلى تقديم تفاصيل حياة الحشاش المقتول، أعطى الملاك لـ"الحسن الصبَّاح" تعليمات طلب إبلاغها لسكان قلعة "آلموت".. إن الله يأمر جميع جنوده والمؤمنين الحقيقيين ألا ينهاروا بسبب هذا الحدث، بل على العكس، أن يتجمعوا مثل البنيان المرصوص.. الجميع يعلم أن الجنة فقط من نصيب أنصار الحق، ويقول رب السماوات إن الغضب لا ينبغي أن يكون موجهًا نحو الأوغاد الذين ارتكبوا القتل الغاشم.. هم نكرات، ولا ينبغي أن يهتم بهم جنود الله.. إن "نظام الملك" هو الشيطان الرئيسي ومصدر الشر الأكبر، وأولئك الذين ارتكبوا القتل كانوا فقط أدوات في يد الشيطان، ولذلك فالقتال ضروري ليس ضد أدوات الشيطان، بل ضد الشيطان نفسه، والجندي أو المؤمن الذي يقتل "نظام الملك" ويرسله إلى جهنم، جزاؤه الجنة في حضن المولى، ولا يهم إن استُشهد في أثناء القيام بالمهمة أو بقي حيًا.. إن اسم ذلك الحشاش الشجاع سوف يدرج إلى الأبد في تاريخ البشرية وسيصبح فعله مثالًا للآخرين.

وقد تحدث "الحسن الصبَّاح" إلى الله، وقال إن كل الذين اجتمعوا في القلعة يرحبون بالمصير الموعود، ولكنه سوف يختار منهم مجموعة قادرة على القيام بالمهمة، وتنفيذ القصاص العادل على الشيطان "نظام الملك".

وقف "الحسن الصبَّاح" أمام جمع المؤمنين، وناشدهم للمشاركة في المهمة، وأدرك أنها رغبة الجميع، ثم أخبر أتباعه بأنه يود أن يسمع من جميع الحشاشين الذين كانوا على استعداد لتنفيذ القصاص المطلوب.

وبعد أن انتهى من خطابه، نزل من السطح واقترب من الناس المتجمعين، وسمع همهمة من الحشاشين الذين كانوا استمعوا إلى خطابه باهتمام، ولم يكن عدد الذين يرغبون في تنفيذ عقوبة الإعدام قليلًا، وبطبيعة الحال، لا يعرفون إلى ذلك سبيلًا، وكان "نظام الملك" أحد أقوى الشخصيات في ذلك الوقت.. مكان سكنه ليس معلومًا، ومحاط بالتأكيد بجدران عالية ومحمى بمئات من الجنود.

كان الجميع قد سمع عن الوزير وأنشطته، ولكن لم يرَ أحد وجهه، فكيف يمكن التعرف عليه؟ كانت الشائعات حول المهمة تنتشر كالأمواج في الحشود الغاضبة.

وفجأة سُمع صوت منادٍ:

- يا شيخ الجبل، أريد أن أقول كلمة.

فحدق "الحسن الصبَّاح" في صاحب الصوت، وفرك لحيته بارتياح وصاح:

- نحن نستمع إليك يا "أراني".

- إذا كان الله يضع مثل هذه المهمة أمامنا، فسوف يضيء طريقنا بنوره الإلهي.. إن ضياءه أكثر إشراقًا من الشمس والقمر معًا، أليس كذلك؟ وبطبيعة الحال، هذه مهمة صعبة ومعقدة، ولكنني أتساءل إن كان هناك طريق سهل إلى الله.. قل لي كيفية الوصول إلى درب محمد وسوف آخذ ذلك الطريق.

- لا، لا يوجد طريق سهل لله، وهذا له معنى خاص، لأن كل الذين لا يكون إيمانهم صلبًا مثل الحديد، والذين لا يكون حبهم أكثر إشراقًا من الذهب أو الماس، أو الذين يختفي أملهم في وقت أقل من ذوبان شمعة، يحيدون عن الطريق.

وصاح "أراني" بصوت أعلى:

- يا شيخ الجبل، تم كسر التوازن بسبب خطأ مني وبأيدي.. لقد تصرفت بلا مبالاة، مما عرض عملنا العادل للخطر.. أنا أيضًا مذنب، وليس هناك عذر لسلوكي، ربما سأعيش إلى الأبد في نيران جهنم، وسوف يسخر الشياطين مني في نار الأبدية.. ربما أصبت بخيبة أمل وفقدت رغبتي في العيش.. ألم يؤخذ مني أمل لقاء النبي في السماوات؟ إن التعذيب والإهانة ينتظرانني، وليس المشي في حدائق الفردوس، ومع ذلك، ربما كان الله رحيمًا عليَّ، بتوفير فرصة غير مسبوقة وفريدة من نوعها للعودة إليه.. ذبح الشيطان "نظام الملك" هو فرصتي الأخيرة للعودة إلى الله، للتكفير عن خطاياي أمام الله وشيخ الجبل، خليفة الله على الأرض.. من فضلكم، يا إخواني، لا تحرمونني من فرصتي الأخيرة للتكفير عن خطيئتي.. يا شيخ الجبل، أرجو إظهار الرحمة لي والسماح أن أنفذ إرادة الله وإرادتك، وأرسل الشيطان "نظام الملك" إلى جهنم.

وعند انتهاء "أراني" من الكلام، ساد الصمت؛ فالجميع في انتظار قرار زعيمهم، أمَّا هو، فظل في تفكير عميق، يداعب لحيته، بدا وكأنه في عالمه الخاص، ولم يسمع حتى خطاب "أراني" المؤثر.

وبعد عدة دقائق، تكلم "الحسن الصبَّاح":

- "أراني"، كلامك لا يخلو من الحقيقة.. فعلًا، لديك فرصة واحدة فقط لنكفر عن خطاياك، ولن أكون منصفًا لك بحرمانك من تلك الفرصة.. يا بني، الله يحب كل عباده ويضاعف حبه لأولئك الذين أخطأوا دون قصد، ولكنهم تركوا طريق الخطيئة وعادوا إليه.. أبارك عملك، وطريقك وهدفك.. وداعًا، شقيقنا الحبيب، ولينصرك الله.

بعد هذه الكلمات، ركع "أراني" أمام "الحسن الصبَّاح" وقبَّل يده، وانصرف الجميع إلى أعمالهم.

مكث "أراني" بضعة أيام أخرى في "آلموت".. أولًا، جمع مجموعة صغيرة من ثمانية أشخاص لمساعدته على إنجاز مهمته الصعبة، ثم أعطى له "حسن" كل المعلومات المتاحة عن الوزير التي جمعها الحشاشون في السنوات الأخيرة.. المعلومات كانت كثيرة وتضمنت التفاصيل الضرورية، وقبل أن يغادر "أراني" القلعة، تحدث معه "الحسن الصبَّاح"، وسلمه خنجرًا مسمومًا ليغتال به الوزير.

في الليلة التالية، توجه "أراني" وفرقته المقسمة إلى ثلاث مجموعات إلى مدينة "السحنة"، حيث يعيش الوزير "قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي"، والمعروف باسم "نظام المُلك".

في أثناء السفر، تظاهر "أراني" بأنه من المتصوفة، فقد كانت معرفته للقرآن الكريم عميقة، وتمكن من ضبط مظهره ليتم تنكره كرجل دين مسلم.. سنوات تبحره في العلوم الدينية في "آلموت" كافأته الآن.

ابتعد "أراني" عن المجموعة المختارة، واتفقوا جميعًا على اللقاء في "الصحنة"، وكان "أراني" قد تجول، منذ شهور، في المدن والبلدات، يستكشف آراء السكان ومواقفهم تجاه السلطان والوزير.. عامة الناس لم يحبوا السلطان، فهو حاكم جشع، ونهم وظالم، ويوجهون اللعنات للوزير؛ بسبب ضرائبه العديدة التي لا يمكن فهمها.. كراهية "أراني" للوزير والاشمئزاز الشخصي منه كان آخذًا في الزيادة، فهو الآن أكثر اقتناعًا بكلمات "الحسن الصبَّاح" بأن الوزير هو شيطان يجب التخلص منه.. إيمانه بأنه يؤدي إرادة الله كان أيضًا يشتد، فهناك الكثير من الناس الذين يكرهون الوزير وسوف يتخلصون من حاكم مستبد بمساعدته.. بهذه الأفكار اقترب "أراني" من مدينة "السحنة"، حيث يعيش الوزير وفقًا للمعلومات المتاحة.

ولدى وصوله، زار "أراني" أولًا مكان التجمع السري للحشاشين المحليين، حيث رحب به زعيمهم الذي كان متنكرًا كخياط - كان اختيارًا ذكيًا - فمختلف الناس يزورونه خلال النهار ليخيط لهم الثياب، ومفارش المائدة والستائر، وكان الترزي، وهو يلبي طلباتهم، يحث العملاء على الكلام، فكانوا يشاركونه ما يعرفون عن طيب خاطر، فيجمع هو المعلومات المفيدة ويبعثها إلى قلعة "آلموت"، ولم يكن الترزي ملمًا بفنون الخياطة، وكان قد استأجر عددًا قليلًا من الترزية ليقوموا بالعمل، فاشتهر كترزي ماهر، وأتى إليه الكثيرون للاستفادة من خدماته.

خبأ الترزي "أراني" في صندرة منزله، ومع حلول الظلام، يعود الترزية إلى ديارهم ويذهب هو لرؤية "أراني" وهو يحمل بعض المأكولات، وقال "أراني" إنه يجب أن يجد منزل الوزير، ويعرف كيف يتحرك في محيط المنزل، وداخل بواباته، وعده الترزي أن يجمع المعلومات عن تخطيط الغرف داخل منزل الوزير وتحركات الناس وهم يدخلون ويخرجون.. طلب "أراني" من الترزي أن يصف له الوزير، لأنه لم يرَه قط، وقال له الترزي إنه أيضًا لم يرَ الوزير لأنه لا يخرج كثيرًا من محل عمله، وذلك لتجنب جذب الانتباه إلى نفسه، وأن التجول في الشارع

مخاطرة فقد يلاحظه أحدهم، لكنه وعد "أراني" أنه سوف يحاول أن يجد حلًا لهذه المشكلة، وأفصح "أراني" عن نيته للتنكر كمتسول والمشي حول منزل الوزير لبضعة أيام، ولكن الترزي ضحك على سذاجة "أراني"؛ فجميع المتسولين في المدينة يعرفون بعضهم البعض، وإذا رأوا متسولًا غريبًا عنهم، فإنهم سوف يضربونه ويطردونه من البلدة في أحسن الأحوال، أمَّا في أسوأها، فسيقدمون تقريرًا عنه إلى السلطات وسيتم اعتقاله.

- أنا لا أعرف الغرض من زيارتك ولا أريد أن أعرف، ولكن لأنك ترتدي خاتم "الحسن الصبَّاح" فأنا ملزم بخدمتك، وتلبية كل طلباتك.

فضحك "أراني":

- طلباتي ليست كثيرة.

فرد الترزي:

- لكنها خطيرة.. خذ اليوم قسطًا من الراحة، وسأحاول حل مشكلاتك غدًا.

- شكرًا لك، ولكنني أفضل أن يتم حلها سريعًا؛ لأنني لم أتِ هنا لأنام.

- لست بالأحمق.. ولقد خمنت سبب حضورك.. بارك الله يديك، وحفظ قوتك، وسوف أرتب كل شيء على أعلى مستوى.. تصبح على الخير.

لم يظهر الترزي في اليوم التالي.. كان "أراني" يسمعه وهو يتحدث مع الزبائن بلغة ود وحب، لا يمكن أن يعرف ما يقوله بالضبط، ولكنه أحس في صوته بنبرة غير مبالاة، وكأنه قد نسي كل شيء وعاد إلى حياته الطبيعية، فغضب "أراني" غضبًا شديدًا، حتى إنه قرر توبيخ الترزي لموقفه المهمل وغير المسئول.. توقفت الأصوات خلال صلاة الظهر، وكان "أراني" يؤدي الصلاة مهتديًا بأشعة الشمس التي تخترق مكان اختبائه من خلال فتحات الصندرة.

وبمجرد حلول الظلام، وانصراف الترزية من المحل، حمل الترزي المأكولات وصعد إلى الصندرة لرؤية "أراني"، وكانت في يده خريطة، وفي أثناء تناول "أراني" الطعام، أخذ الترزي يشرح موقع "السحنة" ونمط شوارع البلدة، وعندما استوعب "أراني" التفاصيل، سلمه الترزي الخريطة، رصد عليها منزل الوزير، ووعده أن يوفر له معلومات كاملة عن هوية الوزير إذا صبر لعدة أيام، وقد ألقى الترزي نظرة غامضة على "أراني" عند مغادرته الصندرة، قائلًا إن الغموض قد تم حله وإنه سوف يفصح عن الحل في وقت لاحق.

ومرت الأيام التالية بالنمط نفسه، خلال النهار يقضي "أراني" وقته في التفكير والصلاة، بينما الترزي منشغل بإدارة أعماله، وفي المساء، يقوم الترزي بزيارته، وإمداده بالمعلومات المكتسبة خلال النهار، ويتركه حتى اليوم التالي.

وبعد أربعة أيام، صعد الترزي إلى الصندرة في مزاج جيد، وقال إنه تم حل القضايا الرئيسية كافة، وقد تحدث إلى أحد زبائنه، وعلم أن هناك فجوةً في الجزء الجنوبي من الجدار الذي يحيط منزل الوزير يمكن من خلالها لرجل صغير الحجم الدخول

بسهولة إلى حديقة شتوية، مليئة بالنباتات المتنوعة والأشجار، وقال زبون آخر إن الوزير قد اعتاد أن يتمشى قليلًا في الحديقة بعد الاستيقاظ في الصباح، وقبل الذهاب إلى الفراش في المساء، وكان الزبون قد قال هذا ليؤكد حب الوزير للطبيعة وأيضًا لإظهار معرفته بحياة الوزير اليومية.

قال "أراني":

- كنت تقول إنك سوف تساعدني في التعرف عليه.. فهل هناك أي تقدم؟

كان "أراني" يقترب من هدفه.. بقي عدد قليل من التفاصيل الصغيرة وسوف يسير كل شيء بالطريقة التي تم التخطيط لها.

وقال الترزي بابتسامة ماكرة:

- بالتأكيد.. لم أستطع نسيان التفاصيل الصغيرة، ولكن المهمة.. طرق الحظ بابي قبل أسبوع، فقد زارني رئيس حراس الوزير طالبًا عباءة ثمينة مطرزة بخيوط الذهب، وسوف أسلمها غدًا، وفضلًا عن العباءة، سوف أقدم له ثلاثين ربطة أحذية خضراء اللون، وسوف أقول إنها هدية مني لحراس الوزير، وإنني سأكون سعيدًا بمواصلة خدمتهم جميعًا، وليس في ذلك أي غرابة.. فمن المعتاد أن يقدم التجار مثل هذه الهدايا، وذلك لجذب زبائن جديدة وغنية، عندما ترى موكب الوزير، تذكر أمرين: أولًا: إن الرجل الذي يرتدي الملابس الفاخرة هو على الأرجح الوزير، وثانيًا: إن الحراس الذين يرافقونه يمكن تمييزهم من أربطة أحذيتهم الخضراء الزاهية.. بهذه الطريقة سوف تكون قادرًا على تخمين أي منهم هو "نظام الملك".. غدًا يمكنك المُضي قُدمًا في مهمتك، وليبارك الله مسعاك وينصرك.

عانق "أراني" الترزي وودعه.. في اليوم التالي قضى الصباح كله يستعد لمغادرة صندرة الترزي؛ فأعد الملابس التي سوف يرتديها، ودرس بتأنٍ خريطة المدينة في ضوء النهار، وحاول تصور تسلسل أفعاله، وبمجرد أن حل الظلام قفز من الصندرة واختفى على عجل في الشوارع.

كانت هناك بالفعل فجوة في جزء من الجدار الجنوبي الذي يحيط منزل الوزير، لم تكن كبيرة، لكن "أراني" أزال لوحًا خشبيًّا من الجدار، فأصبحت الفجوة واسعة يمكنه الدخول من خلالها بسهولة إلى حديقة بيت الوزير.. انتظر بعض الوقت، وبعد التأكد من أن المكان يخلو من أي شخص، دخل من خلال الثقب في الجدار، لم يخدعه الترزي.. كانت الحديقة الشتوية على بعد عشرين خطوةً فقط.

جرى "أراني" في الحديقة بهدوء وبسرعة، اختبأ في الشجيرات العالية المطلة على ممر الحديقة وجلس بلا حراك، بدا وكأنه لا يتنفس، بقى بلا حراك في المكان نفسه طوال الليل، وخلال الليل، جاء حارس وحيد، مشى حول الحديقة وابتعد، ووفقًا لملاحظات "أراني"، فإن وجود الحراس لم يكن لضمان الأمن الفعلي، بل يغلب عليه طابع المراسيم.

كان كل شيء هادئًا في الصباح، ولكن في فترة ما بعد الظهر سُمعت أصوات.. رفع "أراني" رأسه وطلب من الله أن يغفر له تركه الصلاة، موضحًا أسبابه، ثم سمع

صوت خطى ومناقشة صاخبة قادمة من ناحية الحديقة، كان رجلان يسيران إلى منتصف الحديقة، ويتحدثان.. ألقى "أراني" نظرة فاحصة على قدميهما، كانت أربطة الأحذية خضراء زاهية، لم يكن الوزير أحدهما.. زاد عدد الناس في الحديقة بسرعة، يمشون هنا وهناك.. حاول "أراني" رؤية أربطة أحذياتهم، كان الجميع يرتدون الأحذية ذات الأربطة الخضراء، الجميع باستثناء اثنين من الرجال.. الأول حذاؤه دون أربطة، في حين أن حذاء الثاني ذات أربطة سوداء.

حاول "أراني" أن يخمن أي منهما قد يكون هو الوزير، كانا في العمر نفسه تقريبًا، ويرتديان ملابس باهظة الثمن.. كان الرجلان يتحدثان مع بعضهما البعض على قدم المساواة، ولكن فجأة واحد منهما، وهو الذي يتمييز حذاؤه بالأربطة السوداء، ابتسم في أثناء الحديث وانحنى قليلًا للآخر، فأدرك "أراني" أن الوقت قد حان، ولا يجب إهدار الفرصة، وصاح:

- اذهب إلى جهنم، أيها الشيطان.

ودفع خنجره في صدر الوزير ثلاث مرات.

ظل الحراس، من شدة الصدمة، ينظرون إلى "أراني"، وكأن المستحيل قد حدث، حيث بدا لهم أن "أراني" قد سقط من السماء أو خرج من تحت الأرض، وكان وجه "أراني" الناعم قد سبب للحراس بعض التأملات الصوفية، حتى إن بعضهم رفعوا الأذرع وخروا على الأرض، معتقدين أنهم يشاهدون عقاب الله.. اثنان فقط من الحراس المخضرمين لم ينزعجا وقبضا فورًا عليه وانتزعا الخنجر من يده، لكن الوقت كان قد فات، كان الوزير ملقيًا في منتصف ممر الحديقة، وينزف، وكان من المستحيل تغيير ما حدث.

ضحك "أراني".. وقام الحراس بتعذيبه لفترة طويلة، ثم مزقوا جسده وألقوا به خارج السور، بدا "أراني" سعيدًا وفرحًا حتى النهاية، ولم يقل أي شيء.. كان يضحك فقط.

وبعد ساعات قليلة، توجه الحشاشون، بعد أن تلقوا إشارة خاصة، إلى بيت الوزير من اتجاهات عدة، وكانوا يدركون أن "أراني" نجح في اغتيال الوزير، وأن الحراس قتلوه ومزقوا جسده.

أحاط الحشاشون بيت الوزير في صمت وأشعلوا فيه النار، احترق المنزل وصعد اللهب، وبدت السماء في الليل وكأنها غارقة في الدم.. يُقال إن "الحسن الصبَّاح" تابع شخصيًّا عملية القصاص، وبقي ينظر إلى لون السماء القرمزي إلى أن احترق منزل الوزير تمامًا.

وفي قلعة "آلموت"، ومع انتشار نبأ مقتل الوزير، انتشرت مظاهر الفرح.. سعد الجميع وشكروا المولى عز وجل على مساعدته، وبعد شهر، تم تثبيت لوحة نحاسية كبيرة على بوابات القلعة، نُقش عليها: "أبو طاهر أراني، جندي الله الذي لا يخاف، أرسل الشيطان "نظام الملك" إلى جهنم، ولقي الله شهيدًا".

(5)

الإيمان أم الغرام؟

باريس.. 2015

- "علي"، هل نحن حقًا وحدنا؟ ألن يأتي شخص فجأة؟

سألت "ليز"، منتزعة نفسها من قبلة عاطفية طويلة.

فرد "علي" وهو يلهث:

- لا تقلقي يا عزيزتي، لن يزعجنا أحد.. لن يعود "باتريك" قبل المساء.. نحن وحدنا، وحدنا تمامًا، ولن يزعجنا أحد.

وانغمس مرة أخرى في شفاه حبيبته.

كانا يقبلان بعضهما بجنون، والشمس تكاد تخترق النافذة فتضيء الغرفة وكأنها توفر أيضًا بعض الدفء؛ فالغرفة كانت ساخنة، وأشعة الشمس تخلق انطباعًا بأنها هي التي تفيض بالحرارة.

احتضن "علي" حبيبته، دار بها دورة، ثم جلس بها على السرير.. استخدم شفتيه لرفع البلوزة فكشف عن نهدين مرتجفين وحلمتين مثارتين.. جن جنون "علي"، فبدأ في تقبيل شفتيها، ونهديها، وسرتها، وكأنه في حيرة من أمره، لا يستطيع أن يقرر أي جزء من جسدها يحبه أكثر.

- "علي".

تأوهت "ليز" من النشوة ولفت ذراعيها حول عنقه، وضغطت نهديها عليه، فأظلمت عينيها.

رقدا على السرير لفترة طويلة، ينظران إلى السقف.. شعر "علي" أن حياته قد اكتسبت معنىً جديدًا رائعًا، معنى لم يكن موجودًا من قبل، لون جديد قد جاءه، بل إن حياته كانت تفتقر إلى أي لون، وكانت "ليز" سعيدة، فقد جعلها "علي" امرأة ناضجة، فعلى الرغم من أن "ليز" كانت قد أحبت من قبل، فإن العلاقة السابقة اقتصرت على قبلات قليلة خائبة، جعلتها تشعر وكأنها دروس تُعطى لطفلة صغيرة، فكان من المستحيل بناء علاقة مستديمة، ملت "ليز" منها، لم تهتم بعمر الرجال الذين تلتقي بهم، طبعًا، لم يكونوا أصغر منها، رغبت في رجلٍ يكون، بغض النظر عن سنه، ناضجًا، حتى تحصل هي منه على كل الكروموزومات أو الهرمونات التي كانت تفتقدها، وكانت "ليز" تخلط بين الاثنين.

اختلف الأمر مع "علي"، لم يكن مثل الآخرين.. إنه و"ليز" في العمر نفسه، وقد بدا لها مثل أمير خارج أسطورة شرقية.. كان عريض المنكبين، داكن البشرة، بعينين متقدتين.. كانا في مدرسة ثانوية يدرسان معًا.

في البداية، ادّعت "ليز" عدم اكتراثها بعلامات اهتمامه بها، وهو قادم من ثقافة مختلفة تمامًا، يتصرف مثل رجل بريطاني أرستقراطي.

كانت "ليز" تعيش مع عمتها في باريس، في حين يعيش والداها في جنوب فرنسا وكانا مشغولين في زراعة قطعة صغيرة من الأرض، انتقلت "ليز" إلى باريس لتدرس واستقرت هناك، وبعد وقت غير طويل كانت قد محت مظاهر أصلها الريفي، وأصبحت فتاة باريسية.

عاشت عمتها في باريس طوال حياتها، وتوحي قصصها أنها عاشت حياة بوهيمية حافلة، لذلك لم تكن أبدًا صارمة مع "ليز".. في الواقع، كانت "ليز" حرة تمامًا تفعل ما تريد، تتصرف كما تشاء، وكانت العمة قلقة بعض الشيء، تتصل بها عدة مرات في اليوم للتأكد من سلامتها، ولكن هذه المكالمات قلت تدريجيًّا مع تعود "ليز" على المدينة الكبيرة حتى إنها في بعض الأحيان كانت تُدهش عمتها بمعلومة عن باريس كانت العمة تجهلها تمامًا.

غادر "علي" وعائلته سوريا وانتقلوا إلى باريس قبل عامين، وكان مسقط رأسهم قد قُصف مرات عديدة، فقرر والده - مع انعدام خيارات أخرى - الانتقال بأسرته إلى مدينة أوروبية بعيدة عن الانفجارات وسفك الدماء.

لـ"علي" أربعة إخوة وأخت، وهو أصغرهم، يعامله الكل، وخاصة أمه وشقيقته بحب ورعاية، وعلى الرغم من أن "علي" كان قد أكمل عامه التاسع عشر، فإن والدته لا تزال تحاول إصلاح تسريحة شعره بيدها قبل مغادرته المنزل، ليغمرها الشعور بالأمومة لبضع دقائق، فهو آخر العنقود.

أما الوالد، فكان يرغب أن يصبح ابنه من علماء الدين وأن يكرس حياته لله، فكان صارمًا في تعامله معه، على أن شيئًا ما في داخله كان يراه أيضًا صبيًا صغيرًا يجب عليه أن يرشده باستمرار إلى الطريق القويم ويبعده عن الإغراءات الدنيوية.. ألحق ابنه بإحدى الجامعات الفرنسية التي تُدرس فيها العلوم الإسلامية، ولكن مع عدم توافر الدراسات العليا فيها، قرر إرسال "علي" بعد تخرجه إلى مصر ليلتحق بالدراسات العليا في جامعة الأزهر حتى يصبح عالمًا من علماء الدين، وبطبيعة الحال، لم يفصح برغبته لـ"علي"، بل ترك الأمر لله، ولكنه كان صارمًا في تربيته يراقبه عن كثب.

كان "علي" طالبًا متفوقًا، درس جميع الأديان بصدر رحب وفرحة متساوية، مع الإبقاء على إيمانه بالإسلام، وفي السنة الأولى التقى "ليز".. لم تكن "ليز" مولعة بالدراسة، ولم تكن مهتمة كثيرًا بالأديان المختلفة والحركات الدينية، واعتبرت دراستها هواية تخلصها من ملل العيش في باريس.

بعد فترة من الوقت، نجح "علي" في جذب انتباه "ليز"، فبدأت تبتسم أكثر لـ"علي"، فقد أصبحا يقضيان أوقات فراغهما معًا بعد المحاضرات، ورأيا بعضهما البعض في كثير من الأحيان فنمت علاقتهما إلى مستوى أعمق، وذات مساء في

شهر أغسطس كانا يسيران أمام كاتدرائية "نوتردام دو باريس"، فقالت "ليز" وهي تبتسم:

- في الواقع، أنا لا أحب باريس في أغسطس.

فنظر "علي" إلى "ليز" مرتبكًا.. كانت ترتدي فستانًا بسيطًا من قماش قطني مطبوع، هي الموضة في تلك السنة، وكانت تناسب "ليز"..

- كنت أعتقد أنك تحبين هذه المدينة.

- باريس مكان رائع لا يوصف، ولكنه يتحول إلى مدينة لا تطاق في أغسطس.

وشرعت "ليز" تشرح رأيها:

- يغادر السكان المحليون المدينة ويذهبون إلى منازلهم الصيفية أو إلى جنوب فرنسا، أو يسافرون إلى بلدان أخرى، وفي الوقت نفسه، يهاجم باريس المحافظون والسياح الأجانب.

فسألها "علي" بحيرة:

- ألا تريدين أن يأتي الناس إلى باريس؟

- بلى، ولكن بالنسبة لهم باريس مدينة بُنيت لتُصور، يأخذون الصور الفوتوغرافية وهم يعانقون برج إيفل.. إنهم لا يرون باريس الحقيقية، في الواقع، حتى برج إيفل مختلف في عيونهم.. إنهم لا يرون حتى البرج، وهم يأخذون الآلاف من الصور بالقرب منه.

لم يفهم "علي" كلمات "ليز".. باريس لم تصبح بعد بيتًا له، على الرغم من أن مشاعر التعلق قد نمت داخله في أثناء عامين من العيش.

- "علي"، هل هناك مكان في باريس تحبه أكثر؟

- هل هناك مكان في باريس تفضلينه؟

- بالطبع.. هيَّا، سوف أريه لك.

وأخذت "ليز" يده وقادته إلى ساحة بجانب "نوتردام"، توقفا في منتصفها، فأعلنت "ليز"، مشيرة إلى الأرض:

- هنا!

- هنا؟ ما هذا؟

فقد لاحظ "علي" حجرًا مستديرًا على الأرض، يختلف عن بقية الأحجار، في مركزه نجم ثماني كجزء لا يتجزأ من خرسانة الساحة.

- هذه هي "النقطة صفر"، ووفقًا للأسطورة فقد بدأت المدينة وتوسعت من هنا.. هذه هي سرة باريس.

لم يكن "علي" يستمع إلى "ليز"، كان ينظر إليها، فيتوقف عن التنفس.. الآن، شعر بقلبه جامحًا على وشك الطيران من صدره.. عانق "ليز" وقبل شفتيها.. الآن كان الدور على "ليز" لتشعر بالدوار.

على الرغم من أن "ليز" كانت قد لاحظت أن "علي" يحدق في وجهها، كانت القبلة غير متوقعة، طُمست الأشياء في رأس "ليز".. نقطة الصفر، نوتردام، القبلة، باريس في أغسطس، وخاصة باريس في أغسطس.. إنها الآن تحب باريس في أغسطس، على الرغم من زوارها الأجانب، وإنها فتاة من الريف، جاءت لتستقر في باريس، وتُقبل حبيبها في تلك اللحظة، أما هو فلم يكن باريسيًا أو من ريف فرنسا، كان شابًا جنسيته مختلفة، ودينه وثقافته، ولكنه كان وسيمًا، وكان يقبلها في وسط باريس في تلك اللحظة.. لحظة، وكأنها تفقد عقلها.

لقد انقضى عام تقريبًا منذ ذلك القبلة، وقد التقيا كثيرًا خلال تلك السنة، يذهبان إلى ساحة "نوتردام"، حيث "النقطة صفر"، فيجددان تلك القبلة الأولى، والآن، بعد نصف عام، هما على السرير، في شقة "باتريك" الصغيرة، ينظران إلى السقف.

سألته "ليز" عن الوقت وهي لا تزال حالمة، مد "علي" يده نحو الكرسي بالقرب من السرير، وأخذ تليفونه من جيب البنطلون.

- الساعة 3:30.

- يا إلهي!

قفزت "ليز" من السرير:

- هذا أمر فظيع، لا يمكن أن يكون كذلك.

نظر "علي" إلى "ليز".

وقالت "ليز":

- لماذا تنظر إليَّ مندهشًا هكذا؟ هل نسيت أن اليوم هو الأحد؟ كان يجب أن أزور جدي "ماتيو" قبل نصف ساعة.

تذكر "علي".. نعم، بالطبع كان يعرف أن كل يوم أحد تزور "ليز" جدها الذي يعيش في دار للمسنين، وتقدم له الفواكه والحلويات.. كان الجد يحب الحلويات، وفي بعض الأحيان، عندما تكون "ليز" مشغولة بأشياء مهمة أو تستعد للامتحانات، يقوم "علي" بزيارة جدها، والحقيقة أن احترام وتقدير المسنين أمران مهمان في الشرق.. يبقى "علي" عند الجد لبضع ساعات يستمع إلى قصص يمتزج فيها الواقع بالخيال، ولكنها آسرة، على أن للجد مشكلة، يقع في بعض الأحيان في غياهب النسيان، فلا يمكنه أن يتعرف على أي شخص، ولا حتى على حفيدته التي يعشقها.. نوبات فقدان الذاكرة تستمر بضع دقائق على الأكثر، فيسترجع "ماتيو" وعيه ويحكي عن قصة أخرى حدثت له أو لمعارفه، وقد ظهرت مشكلة فقدان الذاكرة في السنوات الأخيرة، وقد قبلت "ليز" الأمر و"علي" أيضًا، بعد لقاءين، لم يشغله ذلك.

- إذا بقينا هنا لمدة نصف ساعة على الأقل، سأقوم بزيارة جدك، وترجعين أنت للبيت وتستعدين للامتحانات.

يمضي الوقت سريعًا وأنت على السرير مع أجمل فتاة في العالم، تنظر إلى شقوق السقف وتحلم، ومضت نصف الساعة واختفت مثل بضع ثوانٍ، وأخيرًا تمكنت "ليز" من الجلوس في السرير، مدت جسدها كالقطة ووقفت.

- ارتدِ ملابسك بسرعة، يا "علي"، يجب أن نذهب.

يكره "علي" لحظات الفراق.. يدرك أثناءها كم يحب "ليز".

استفاد "علي" و"ليز" حتى من اللحظات التي تستغرقها مغادرة الشقة وإغلاق الباب ليتبادلا قبلة عاطفية طويلة، استمرت في الشارع وهما يتظاهران قليلًا بالخجل، فتجاهلا بعد ذلك نظرات الإدانة التي قد يلقيها بعض المارة الأكبر سنًا.

قالت "ليز":

- والآن قبلة الوداع.. أراك غدًا.

غادرت بخطوات خفيفة سريعة، عندئذ فقط عاد "علي" إلى الواقع.. ينسى كل شيء وهو مع "ليز"، واليوم نسى أن والده كان قد حذره أن يكون بالمنزل ساعة قبل صلاة المغرب.

أدرك أنه إذا قام بزيارة جد "ليز"، فإنه لن يصل إلى المنزل إلا بعد الخامسة، ولكنه وعد "ليز".. فما العمل؟ يجب أن يتصل بها ويعتذر.. أخذ تليفونه، طلب رقم "ليز"، وسمع صوتها بعد بضع رنات.

- أنا أستمع إليك، يا أمير الشرق.

مازحته "ليز" على الطرف الآخر من التليفون.

فسألها بعقل شارد:

- كيف حالك؟

- قبل ثلاث دقائق كنت سعيدة بجانبك.. هل حدث شيء؟

أدرك "علي" أنه لا يستطيع أن يسأل "ليز" عن أي شيء الآن، فقد تأخرت "ليز" بسببه، وهو الذي أصر على زيارة جدها بدلًا منها.

- لا كل شيء على ما يرام، لقد أردت فقط أن أقول لك إنك "أوحشتيني".

قالت "ليز":

- أنا أيضًا.. حسنًا، يا عزيزي، لقد وصل الأتوبيس، اتصل بي عند مغادرتك لجدي ولا تنسى البرتقال! فقد طلب البرتقال آخر مرة! قبلات.

أنهت "ليز" المكالمة.. دخل "علي" سوبر ماركت، تائهًا في أفكاره: "ماذا قد يحدث؟ لن يقتلني أحد في المنزل وسوف أتحجج ببعض الأمور المستعجلة".

قال للبائع:

- أعطني خمس برتقالات من فضلك.

ما سيحدث سوف يحدث.. دخل على دار المسنين وصعد إلى الطابق الثاني، ودخل الغرفة المألوفة، الغرفة رقم 216.

(6)

«علي» وجد «ليز»

باريس.. 2015 م

دخل "علي" الغرفة وقال:

- مرحبًا أيها الجد "ماتيو"! أحضرت لك بعض التفاح والبرتقال، كما طلبت آخر مرة.. الآن سوف أقشرها لك.

كان "ماتيو" جالسًا على السرير يلعب "الداما" مع زميله في الغرفة، البروفيسور "موشيه".

- شكرًا لك يا بني!

ابتسم "ماتيو" وهو يترك اللعب برهة، وينظر إلى "علي" بانتباه.

- من فضلك قل لي اسمك.. أريد أن أعرف من قد يكون هذا الشاب.

- أيها الجد! هذا أنا، "علي"! لقد قمت بزيارتك كل يوم لمدة شهرين تقريبًا.. ألا تتذكر؟

- آه! اللعنة على هذه الذاكرة.. نعم، كنت تأتي مع فتاة.. هل هي أختك؟ إنها جميلة جدًّا.

- أيها الجد، إنها حفيدتك، "ليز"، وأنا زميلها.. نحن ندرس معًا.

فعلق "ماتيو" وهو لا يزال يحدق في "علي":

- حقًا؟ لم أكن أعرف.

لم يرد "علي".. وضع الفاكهة على الرف، وأخذ تفاحة واحدة وبرتقالة، قشَّر التفاح وقطعه إلى شرائح ووضعه على المائدة، حتى بدون قشرته، حافظ التفاح الأحمر الداكن على لونه.

قال "ماتيو" بنبرة غامضة:

- لقد كنت حذرًا جدًّا معي.. أريد أن أقول لك سرًا، ولكن عدني أولًا أنك لن تخبره لأي شخص آخر.

- أعدك، يا جدي.

قالها "علي" وهو يلقي نظرة سريعة على تليفونه.. يعرف "علي" أن شخصًا في سن "ماتيو" في حاجة إلى وقت طويل للكشف عن سره.

قال "ماتيو" وهو ينظر حوله بارتياب:

- إن الولايات المتحدة تستعد لحرب كبيرة.

- حرب؟

- هششششش!

حذره "ماتيو" وهو يضع سبابته الرقيقة على شفتيه.

- فقد يسمعنا شخص ما، هذه معلومات سرية جدًّا.. هل تتذكر "م ا ش؟" (M*A*S*H)".

أدرك البروفيسور "موشيه"، أن "ماتيو" لا يريد الكشف عن سره في وجود الآخرين، فغادر الغرفة بادعاء الذهاب لنزهة في الحديقة المجاورة.

وسأل "علي" وهو يقشر البرتقال:

- "م ا ش؟" إنها المرة الأولى التى أسمع عنها.

- كانت الكوميديا الأكثر شهرةً، أو على نحو أدق، المسلسل التلفزيوني الكوميدي الأكثر شهرةً، وكان الجميع يشاهد "م ا ش"، فكيف تقول إنك لا تعرفه؟

- متى كان البث؟

- من 1972 إلى 1983.. في تلك السنوات، كان العالم كله يتابع نُكت "بيرس" و"ماكنتاير" الساخرة في غرفة عمليات المستشفى العسكري، وحاول الناس تكرار النكات في حياتهم اليومية، ولكن الفشل كان من نصيب معظمهم.

- جدي، لم أكن قد ولدت بعد في تلك الفترة.. وُلدت أمي عام 1973.

- أنت صغير جدًّا.. لن تعرف ما كان يحدث في ذلك المستشفى العسكري الميداني المتنقل، لن تعرف المشاعر الغاضبة التي كانت تستعر هناك.. أنا أتحدث عن الحرب الكورية التي بدأت في أوائل الخمسينيات.

تساءل "علي":

- وما علاقتها بالحرب الوشيكة؟

- الحرب الوشيكة؟

يبدو أن "ماتيو" كان قد نسى موضوع السر.

- نعم بالتأكيد! الحرب.. حسنًا، سأشرح شيئًا فشيئًا، كي تفهم قصتي، يجب أن تعرف بعض الشيء عن "م ا ش".

يقدم المسلسل قصة مناوئة للحرب، تتخللها النكات الحادة والساخرة، تقع الأحداث في كوريا الشمالية عام 1951، وعلى الرغم من أن عدد الضحايا من الجانبين كان قد وصل إلى بضعة ملايين خلال الحرب، لم تكن تُسمى "حربا"، بل "عملية الشرطة"، وذلك لأغراض الدعاية، على الرغم من تمجيد القوة العسكرية في تلك الفترة، كانت القصة تسخر بلا رحمة من الجنود والضباط الذين يعتقدون أنهم هبة

الله للنساء.. شخصيات المسلسل نضرة جذابة، الشخصية الرئيسية هو "الكابتن بنيامين فرانكلين" أو "عين الصقر/ بيرس"، شاب طويل القامة، أسود الشعر، وهو جرَّاح ماهر يتمتع بحس فكاهي حاد، وهو عقلاني، يتصدى للظلم في كل مكان يذهب إليه، ويدعم السود، والمثليين جنسيًّا، والجنود من الرتب الدنيا، والنساء.. لا! كانت المرأة نقطة ضعفه، والخمر، ويبرر إدمانه للكحول بمقولة: "أشرب لأنه من المستحيل واقعيًا محاربة هذه الحرب الغبية".. والشخصية الثانية هو شريكه، "الكابتن ماكنتاير".. كان متزوجًا وله ابنتان جميلتان.. هو أيضًا طويل القامة، مغرم بالنساء، شريب، والاختلاف أنه أشقر الشعر.. "الكابتن ماكنتاير" شريك "بيرس" في كل مغامراته الهزلية.. يُعتبر الاثنان ملح المستشفى العسكري.

كانا في قلب كل الأحداث التي تجري في "م ا ش".. لا يأبهان للوائح العسكرية والرتب على الإطلاق.. لهما هدف واحد: السخرية من رجال الجيش؛ وذلك لإظهار فظاعة الحرب وتشويه سمعة الضباط الذين جعلوا الحرب مهنتهم على حساب صحة الشباب وحياتهم.. "بيرس" و "ماكنتاير" مشغولان، نعم، في شرب الكحول ومطاردة ممرضات المستشفى، ولكنهما يقومان أيضًا بالعمليات الجراحية للشبان الذين تم تفجيرهم في الحرب، يجمعان، على مدى أيام، قطع اللحم المتناثرة.

أما الرائد "فرانك بيرنز" والرائدة "مارجريت" أو "الشفاه الساخنة هوليهان" فهما الشخصيتان المضادتان لـ"بيرس" و"ماكنتاير".. "فرانك" أيضًا جراح، لكنه من الطبقة الوسطى الدنيا واشترى رخصته الطبية وتزوج من أجل المال.. هو الشخصية الأكثر تحفظًا، يتميز بالانتهازية والبخل.

أخذ "فرانك" الحرب على محمل الجد وأراد التفوق والمضي قدمًا بأي ثمن.. يلوم أي شخص لا يظهر القدر الكافي من الوطنية والحب لأمريكا، ويعظ أنه يجب قتال العدو بلا رحمة وإزالته من على وجه الأرض، ولهذه الأسباب، فإن "بيرس" و "ماكنتاير" يسخران منه ويزعجانه على الدوام.

"بيرس"، و"ماكنتاير" و"فرانك" يعيشون في المخيم نفسه، مما يعني أن حياة "فرانك" أصبحت جحيمًا حيًا.. يحاول "فرانك" أن يحافظ على توازنه، ولكن الأحداث السيئة تطارده.. حينما يحاول أن يتكلم عن الوطنية، يسكِته السكيران "بيرس" و"ماكنتاير" على الفور، وباختصار، سخر "بيرس" و"ماكنتاير" من أي شخص يبرر الحرب والموقف الرسمي للدولة.

الشخصية التالية هي الرائدة "مارجريت هوليهان"، امرأة جميلة شبقة.. هي ضابطة نموذجية في الجيش.. كان والدها عقيدًا متقاعدًا، وطوال المسلسل تقدم "مارجريت" هدايا كثيرة لـ"فرانك بيرنز" تصحبها دائمًا بالكلمات التالية: "هذه هدية أبي لأمي في ليلة الزفاف"، ولـ"فرانك" و"مارجريت" علاقة رومانسية، على الرغم من أن "فرانك" كان متزوجًا ولم تكن "مارجريت" امرأة يصعب الوصول إليها، فهي دائمًا مستعدة لفتح ساقيها، وخاصة لضباط الجيش من ذوي الرتب الرفيعة.. هي بالفعل عاهرة الجيش التي لها الكثير من الأحباب في الوقت نفسه، ومع ذلك، فإن ليالي الحرب الطويلة الحزينة جمعتهما، مما جعل "بيرس" و"ماكنتاير"

يستقصدانهما، وكلما حاول "فرانك" و"مارجريت" إخفاء علاقاتهما الرومانسية، طاردتهما الأحداث السيئة الهزلية.

الشخصية التالية هو العريف "ماكس كلينجر"، شخص حامي الطبع من "توليدو"، والذي، لسبب ما، وجد نفسه على خط الجبهة في كوريا الشمالية.. "كلينجر" مستعد أن يلجأ لأي وسيلة عسى أن يتخلص من الخدمة العسكرية ويرجع إلى موطنه، أي شيء أقوله في قضية "كلينجر"، يجب أن يُؤخذ حرفيًّا.. كان رجلًا كبير الأنف، كثيف الشعر في كل جسمه، يرتدي الفساتين الأنثوية الأنيقة والكعب العالي حتى تطرده اللجنة الطبية من الجيش لكونه مجنونًا، ولنجاح تلك المهمة، يحتاج "كلينجر" إلى توقيعات ثلاثة أطباء، وهو يخفق في جمعها دائمًا، ولذلك يواصل ملء خزانة ملابسه بفساتين جديدة، ويجد نفسه في مواقف هزلية مضحكة.. كان "كلينجر" يرمز إلى الكراهية اليائسة للحرب والجيش، كراهية يائسة تدفع صاحبها إلى اللجوء إلى وسائل مجنونة وحمقاء للتعبير عنها.

كان رئيس هؤلاء المشاغبين العقيد "هنري"، وهو مدني بعيد جدًّا عن الحياة العسكرية، حتى إن كلمة "العقيد" تستخدم في حقه مع تحفظ كبير، وعلى الرغم من أنه متزوج، كان "هنري" مولعًا أيضًا بمطاردة النساء والاستغراق في السكر معظم اليوم.. لم يكن لديه أي فكرة عن كيفية إدارة المستشفى، الذي كان أيضًا وحدة عسكرية، وكانت جميع أوراق المستشفى في عهدة مساعد "هنري"، العريف الأيرلندي "الرادار' أوريلي"، وكان حلم هنري أن تنتهي الحرب سريعًا، لكي يعود إلى منزل عائلته.

قال "علي":

- لقد شوقتني لمشاهدة المسلسل، يا جدي.. أريد مشاهدته.. أعتقد أنني أستطيع العثور عليه على الإنترنت.. ماذا قلت؟ ماذا كان اسمه؟

وأخذ "علي" تليفونه وهمَّ بتوصيله إلى شبكة الإنترنت، مع إلقاء نظرة على الساعة.

فأخذ "ماتيو" التليفون من يد "علي" وقال:

- كان الفيلم جميلًا لأنه كان مبنيًا على السلام والسخرية من الحرب، ثم فجأة تغير كل شيء.. أولًا، تُوفي "هنري" في بداية الفيلم، فقدم كاتب السيناريو "العقيد بوتر"، نقيض "هنري"، بدلًا منه.. كان من فئران الجيش القدماء، عبيدًا للقانون والنظام، وفي وقت لاحق، تم تسريح "ماكنتاير" من الجيش، وقُدم "ب. ج."، الذي كان نقيض "ماكنتاير"، بدلًا منه.. كان "ب. ج." رجلًا متزوجًا ظل مخلصًا لزوجته طوال الحرب الكورية.. ألا يثير حاله الاشمئزاز؟ وبعد ذلك، طُرد واضعو السيناريو "فرانك بيرنز"، وجاءوا بنقيضه "وينشستر"، رجل تافه متكبر سليل عائلة نبيلة من مدينة "بوسطن"، ثم ودع "كلينجر" ملابسه الأنثوية، وفي النهاية، أصبحت نكت "بيرس" غبية، وتغير الفيلم من عمل فني، يسخر من الحرب والجيش الأمريكي، إلى حملة تافهة تناهض العنف.

وسأله "علي":

- ما الذي نستنتجه من كل هذا؟

- يا "علي"، في الولايات المتحدة الأمريكية، كل شيء يقوم على الدعاية.. لقد بدأ الأمريكيون في تمجيد عملياتهم العسكرية في كل مكان، وهذا يعني شيئًا واحدًا فقط: إنهم يستعدون لحرب واسعة النطاق.

تنهد "ماتيو" وأكمل قائلًا:

- الحياة الآن تشبه فيلمًا إباحيًا.

فسأله "علي":

- هل تقصد الانحطاط؟

- لم يكن هناك أبدًا نقص في الفجور.. إن الحياة اليوم تبدو وكأنها فيلم إباحي؛ لأنه النوع الوحيد من الأفلام الذي لا توجد فيه شخصيات إيجابية أو سلبية.. الجميع يشاركون في هذا النشاط القذر البغيض.. لا يوجد أبرياء، الجميع ينتظرون تعليمات المدير.

قال "علي" وهو يأكل البرتقال:

- أنا لا أفهم حقًا؛ فالحرب عادة ما تُعلن استجابة لضرورة ما، ولا بدَّ من عمل دعاية لها.

لم يرد "ماتيو".. نوبة أخرى من فقدان الذاكرة قد بدأت على ما يبدو.. وجَّه نظره إلى خارج النافذة وابتسم، وكأنه يفكر في شيء لطيف.. يعرفه هو فقط.

وبالعودة إلى الغرفة، رأى "ماتيو" البرتقالات على المائدة، فأخذ واحدة بفرحة طفولية، وبدأ يأكل بسعادة.

- هل تعلم أن "فرناندو"، جاري في الغرفة المجاورة، تُوفي قبل خمسة أيام؟ كنا أصدقاء جيدين جدًّا.

قال "علي"، وهو يرغب في إنهاء الحديث ومغادرة الغرفة:

- أنا آسف، يا جدي.

- كان محاسبًا جيدًا جدًّا، ولكن لسوء الحظ، لم يُدفن كما يليق بقائد عظيم.

أدرك "علي" أنه إذا سأل "ماتيو" سؤالًا آخر، سوف يضطر إلى الاستماع إلى الإجابة لفترة طويلة.. ومع ذلك، لم يستطع أن يقاوم إغراء الفضول، وسأل:

- ولماذا تعتقد أن محاسبًا ما يجب أن يُدفن كما يليق بقائد عسكري؟

فقال "ماتيو":

- كان يقود قوات كل البلاد.. قلة من الناس يعرفون ذلك.

- كمحاسب؟

فشرح "ماتيو":

- كان متواضعًا كمحاسب، ولكن ليس له مثيل كقائد عسكري.

وقف "ماتيو" وتوجه إلى كرسي هزاز في الطرف الآخر من الغرفة، وبعد الجلوس عليه بدأ قصته:

- منذ نحو خمسين عامًا، ذهب المحاسب "فرناندو" إلى بلد أفريقي صغير، وقد تم إرساله إلى هناك كمحاسب؛ لإجراء مراجعة حسابات شركة فرنسية محلية.. كانت الشركة تعمل في صناعة المنسوجات، وبالإضافة إلى منتجات أخرى، تنتج قماش الخيام، وكان زبائنهم الرئيسيون هم الشرطة الوطنية والجيش، وتبين أن حسابات الشركة معقدة للغاية.. "فرناندو"، وهو يحكي هذا الجزء من القصة، كان يصف دائمًا كل التفاصيل التجارية، وعلى الرغم من أنني سمعت القصة مليون مرة، لم أنجح في فهم نوعية المشكلة الحسابية التي واجهها.. فأنا ضعيفٌ جدًّا في المحاسبة.. على أي حال، "فرناندو" تمكن من حل المشكلة.. كانت الشركة على وشك الإفلاس واستولت عليها الشرطة بسبب ديونها المتراكمة.

ومع انتهاء عمله، كان "فرناندو" على وشك العودة إلى وطنه عندما تلقَّى عرضًا من قائد الشرطة بالاستمرار في عمله بالشركة كمدير حسابات الشرطة؛ لأنه بدون محاسب ذي خبرة فإن شركة إنتاج النسيج قد تفلس مرة أخرى، وقد عرض على "فرناندو" مرتبًا مرتفعًا ووضعًا خاصًا للبقاء في البلاد، وقيل له أيضًا إنه في غضون سنتين أو ثلاث، عندما تحل جميع مشكلات الشركة، سيكون قادرًا على العودة إلى وطنه؛ فقرر "فرناندو" قبول العرض.. لم يكن لديه أي عمل مهم في فرنسا، فضلًا عن إغراء الراتب المرتفع والوضع الخاص.

- في الأشهر الستة الأولى، كان كل شيء على ما يرام، ولكن بعد ذلك، أشياء غريبة بدأت في الحدوث.. تلقى "فرناندو" رسالةً من قائد الجيش يدعوه للمشاركة في اجتماع عسكري.. اعتقد "فرناندو" أن الدعوة وُجهت إليه بطريق الخطأ فتجاهلها، لكنه تلقى رسالة ثانية، حيث تم استبدال النغمة المهذبة في الرسالة السابقة بتعبيرات قاسية وواضحة التهديد.. كان "فرناندو" شخصًا حذرًا للغاية وخوَّافًا، فأصيب بالذعر وسارع إلى رئيس الشرطة طالبًا إياه بأن يشرح له نوع الاجتماع الذي دُعي إليه.. اتضح أن الدعوة جاءت نتيجة لـ"الوضع الخاص" الذي يتمتع به "فرناندو"، فوفقًا للقانون المحلي، فإن الأشخاص ذوي الوضع الخاص، وبغض النظر عن جنسيتهم، مسئولون عن سلامة البلاد، إلى جانب اثني عشر ضابطًا رفيعي الرتب.. وبما أن "فرناندو" هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بوضع خاص في البلاد، فإنه من الضروري أن يشارك في جميع الاجتماعات التي تُقام حول القضايا المتعلقة بالأمن في البلاد، ورفض "فرناندو" في البداية المشاركة في اجتماعات مجلس الأمن، وحاول أن يشرح أنه ليس سوى محاسب في مصنع للنسيج، ولا يريد حتى أن يشارك في القضايا السياسية أو العسكرية في وطنه فرنسا، ناهيك عن تلك التي من بلد أجنبي، وطلب إنهاء وضعه الخاص، ولكن تبين أن الوضع قد مُنح لمدة سنة واحدة، وكان الإنهاء المبكر مستحيلًا، وهدد "فرناندو" بمغادرة البلاد، ولكن بعدما

درس القانون المحلي المتعلق بالوضع الخاص، أدرك أن الأشخاص الذين تم منحهم هذا الوضع لا يُحق لهم مغادرة البلاد سوى بموافقة المسئولين الاثني عشر الآخرين، وكان بعض هؤلاء المسئولين ضد عودة "فرناندو" لفرنسا، اعتقادًا منهم أنه كان لديه الكثير لتقديمه للبلاد.. كانوا مقتنعين أنه إذا غادر البلاد، فإنه لن يعود.. لجأ "فرناندو" إلى السفارة الفرنسية، لكنها، وبأدب جم، رفضت التدخل في أي قضايا تتعلق بالأشخاص من ذوي الوضع الخاص.. في نهاية المطاف، قرر "فرناندو" أن ينصاع للقانون، أمَّا السلطات المحلية، في محاولة وضع نفسها في موقف "فرناندو"، اتخذت القرارات التالية: يتم طرد "فرناندو" من الاجتماعات الإلزامية لمجلس الأمن، أو بالأحرى وافقوا أن يتم غض الطرف عن غيابه، وبدلًا من ذلك، كان عليه أن يتحمل مسئولية العمليات الخاصة كل ثلاثة عشر يومًا.. وافق "فرناندو" مجبرًا، يلعن سذاجة موافقته للعمل في تلك الدولة الأفريقية الصغيرة، والأمر الوحيد الذي كان يدعو للارتياح، أنه سوف يرجع إلى فرنسا بعد ستة أشهر، فينسى تلك الدولة الملعونة التي تحاول إشراكه في مسئوليات غامضة والقارة الأفريقية بأكملها.

وبالفعل، كل ثلاثة عشر يومًا، استلم "فرناندو" مسئولية مراقبة العمليات التي تتم في الدولة، ولم يكن العمل صعبًا.. وخلال الأشهر الثلاثة الأولى، أُبلغ عن اثنتين أو ثلاث من الجرائم الكبرى، وأبلغ فورًا رئيس الشرطة بها.. يبدو أنه نجح في مسئولياته غير المرغوبة، ولكنَّ حدثًا غير متوقع غيَّر كل شيء.. كان من الممكن أن يكون لهذا الحدث أثر إيجابي على "فرناندو"، ويتيح له فرصة العودة إلى فرنسا، ولكن، ومن قبيل المصادفة المؤسفة، وافق ذلك الحدث اليوم الثالث عشر.. في ذلك اليوم، بدأت المعارضة ثورة مسلحة، وقتلت الرئيس وحاصرت الأماكن الاستراتيجية المهمة، بما في ذلك المطار الوحيد في الدولة.. عندما تم إبلاغ "فرناندو" عن الأحداث، أسرع في الاتصال برئيس الشرطة، ولكن الاتصال قُطع، واتضح أن كل الاتصالات أصبحت تحت سيطرة المعارضة.. لم يتمكن "فرناندو" من التواصل مع أي شخص لمدة ساعة.

وبعد ساعة، أتى جنرالات الدولة إليه وأقسموا له الولاء والتفاني في خدمته حتى الموت.. شعر "فرناندو" بأنه يفقد عقله، وقد بيَّن له الجنرالات القائمة الرسمية لواجبات مسئول العمليات.. كان الأمر واضحًا جليًا: في حالة نشوب نزاع مسلح والخطر الناشئ منه، فإن مسئول العمليات من واجبه إدارة القوات المسلحة وتنفيذ برامج العمل العسكري حتى استقرار الوضع القانوني في الدولة.. أصابت "فرناندو" نوبة غضب، وأدرك أنه من المستحيل تجنب هذه الواجبات التي أصبحت آفة، وأمر الجنرالات بتحرير المطار من المتمردين بأي ثمن، وإبادة كل الذين يحاولون عركلة حركة الطيران.. وفي وقت لاحق، سوف يذكر الجنرالات خطاب "فرناندو" بإعجاب، معتقدين، حتى نهاية حياتهم، بأن "فرناندو" كان قد استخدم علمه كخبير استراتيجي ليقرر أولًا استعادة جميع الاتصالات الجوية مع العالم الخارجي، حتى تتمكن الدولة من تلقي مساعدات عسكرية وغيرها.. لم يفطن أحدهم إلى أن "فرناندو" كان يائسًا عندما أمر بتحرير المطار أولًا، وأن "إبادة

المتمردين" كان يعني كل من تجرأ على منع "فرناندو" من العودة إلى وطنه.. سارع الجنرالات بتنفيذ أمر "فرناندو" وبعد يوم كامل من القتال، تمكنوا من تحرير المطار، وبطبيعة الحال، كان من الضروري استعادة محطات التليفون، لأن بدونها لن تستطيع الطائرات على التحليق أو الهبوط، ولوجود محطات التليفون ومكتب البريد في وزارة الاتصالات، تم تحرير مكتب البريد أيضًا، وبما أن المتمردين كانوا قد استهدفوا تلك المناطق بصورة خاصة، فما إن تم استعادتها حتى استسلم العشرات من المعارضين طالبين العفو والغفران، وهكذا، وفي غضون يومين فقط، تم قمع التمرد تمامًا، وقد علموا لاحقًا أن ذلك التمرد كان قد تم التخطيط له منذ سنوات عديدة.

كان متاحًا لـ"فرناندو" أن يغادر البلاد، ولكن بعد حل مشكلة بدت صغيرة، وهي الانتخابات المقبلة في البلاد؛ فبعد أن شهد الجنرالات مقدرة "فرناندو" الاستراتيجية، تجمعوا حوله معلنين أنهم لا يعترفون بأي سلطة غير سلطة "فرناندو"، واتفقوا في نهاية المطاف على نقل السلطة إلى شخص آخر، بشرط أن يرشح "فرناندو" ذلك الشخص ويدير العملية الانتخابية برمتها.

استمع "علي" إلى قصة "فرناندو" باهتمام، وقد أعجبه أن يصبح المحاسب قائدًا عسكريًا.

وسأل:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بدأت الانتخابات.. أعتقد أنك تستطيع أن تخمن كيف سارت الأمور.. رفض "فرناندو" أن يتولى الحكم، وعلى أي حال لم يسمح القانون بذلك، لأن مدة "الوضع الخاص" كانت وشك الانتهاء، وقد اختار "فرناندو" أحد الجنرالات الذي كان له دور كبير في قمع التمرد المسلح، وقدمه كمرشح للرئاسة.. شرع الجنرال في حملته، وبدأ "فرناندو" حزم حقائبه.. كان الكل راضيًا، والحمد لله، ودون أن يُصاب أحد بأذى، وخلال خطاب له في أثناء حملته الانتخابية، تعهد الجنرال بتسوية النزاع الإقليمي المستمر منذ عقود مع الدولة المجاورة.

سَعد الناس وأخذوا يرقصون في الشوارع؛ فالنزاع الذي دام عقودًا، والذي كان يبدو غير قابل للحل، سوف يتم تسويته، وبطبيعة الحال، كان الجنرال قد قال ذلك من أجل جذب الناخبين إلى جانبه، ولكن خِدعته جلبت نتائج عكسية في غضون أيام قليلة.. كان الناس لا يزالون يثقون فقط في "فرناندو" كقائد عسكري، وبدأت الصحف تعلن أن الجنرال كان مرشحًا زائفًا، وأن "فرناندو" كان يعد حدثًا سياسيًّا وعسكريًّا عظيمًا، ولا يعرف أحد عنه شيئًا، وكانت مصادر إخبارية أخرى تقول إن "فرناندو" كان شخصًا قاسيَ القلب ولا يرحم، وإنه أمر الجيش بقتل الجميع من أجل قمع التمرد، وإن الجنرالات قد أطلقوا النار على المتمردين الذين وقعوا في الأسر خوفًا من "فرناندو".. لم يكن "فرناندو" يعرف ماذا يفعل، فمن جهة، كان يستطيع الفرار دون أن يلاحظه أحد في الليل، ولكن من ناحية أخرى، فإن وضعه الخاص لا يسمح له بالمغادرة، وقرر تأجيل عودته إلى فرنسا حتى نهاية الانتخابات.

وبعد أسبوع من الانتخابات، طلب مبعوثو الدولة المجاورة من "فرناندو" حضور حفل استقبال، ومع انحناء رءوسهم، اعترفوا بأن دولتهم في وضع اقتصادي صعب للغاية، وأن الحرب ستدمرها تمامًا، وقال المفاوضون إنهم سيوافقون على أي حل للنزاع الإقليمي حتى يتمكن شعبهم من تجنب كوارث الحرب، وانتقام "فرناندو" على وجه الخصوص.

أملى عليهم "فرناندو" أقسى الشروط، والتي تم قبولها على مضضٍ، واضطر مبعوثو الدولة المجاورة إلى سحب قواتهم من الأراضي المتنازع عليها، وعلاوة على ذلك، مُنعوا من الحصول على أي أسلحة لمدة خمسين عامًا.. عاش "فرناندو" في تلك الدولة الأفريقية الصغيرة لفترة طويلة، بل تمكن من قمع متمردين آخرين، وتضاعفت أراضي الدولة، وخشي قادة جميع الدول المجاورة اسم "فرناندو".. حاولوا التوصل إلى اتفاق مع العاهل "فرناندو".

وكُتبت الأغاني عن "فرناندو" الذى لا قلب له ولا رحمة، وانتشرت الحكايات حول قسوة حكمه.. كان "فرناندو" قد طعنٍ في السن، وبالكاد تمكن من الفرار إلى فرنسا بعد فشله في منع انتفاضة أخرى، وأُعلن أنه مطلوب كمجرم حرب في أفريقيا، لم يكن له أحدٌ هنا، وقد عُثر عليه في الشارع وتم إحضاره إلى منزل المسنين هذا من قبل ضباط الشرطة الذين اعتبروه من المتشردين، وقبل خمسة أيام، توفي وهو منسي.

كان "علي" يفكر فيما سمعه، ورجع البروفيسور "موشيه" من جولته في الحديقة المجاورة، وسمع "ماتيو" يقول:

- الله يحب المحاربين الشجعان.. أعتقد أن "فرناندو" سيكون كثير الحسنات في يوم الحساب.

- هل أنت مسلم؟

سأله البروفيسور "موشيه" فجأةً.. أكمل:

- لم تسنح لي الفرصة كي أسألك.

فرد "علي":

- نعم، ولكن الله هو الذي سيقرر إن كنت مسلمًا جيدًا أم لا.

قال البروفيسور "موشيه":

- كلامك مثير للاهتمام، فهل قرأت القرآن وما الذي يمكنك أن تخبرنا عنه؟

- بالطبع قرأت القرآن.. إن والدي "مصطفى" هو مفتي الجزء الشرقي من باريس، ولذلك، فإن معرفتي بالقرآن واسعة، لكنني لا أعتقد أنه من الضروري دراسة القرآن، فالإيمان يجب أن يأتي من هنا.

ولمس "علي" صدره بقبضته.

فسأله البروفيسور "موشيه":

- هل تعتقد أنه يمكن للمرء أن يؤمن دون دراسة، دون تدبر وتفهم؟

- نعم، يجب أن يكون الإيمان الحقيقي شيئًا من هذا القبيل.

- مثير للاهتمام.

وتابع البروفيسور "موشيه" بعد تفكير عميق.

- وهل سمعت عن أخناتون؟

- لا، من هو أخناتون؟

بدأ البروفيسور "موشيه" يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا كما لو كان يحاول أن يقرر ما إذا كان يستحق كشف سر أخناتون لـ"علي".. وبعد بضع دقائق، تحرر من توتره وجلس على السرير.

- اسمع يا ابني.. سوف أحكي لك قصة أخناتون، وأعتقد أنك سوف تفهم معنى الإيمان الحقيقي بعد أن تسمعها.

(7)

البروفيسور «موشيه» يحكي قصة أخناتون

الإيمان الأعمى

لم يتميز "أمنحتب الرابع" وعهده بأي شيء، إذا استثنينا شكل رأسه الطويل وملامح وجهه.

بعد تنصيبه فرعون جديدًا، أُقيمت الاحتفالات الاعتيادية التي تخللتها ذبح الأضحية.

تُقام هذه الاحتفالات على طول نهر النيل.. تبدأ من الصباح الباكر، فيوجه الكهنة صولجاناتهم نحو السماوات، ويرحبون بشروق الشمس ويصلون.. يركعون بعد ذلك أمام تماثيل الجعران المقدسة ويعبرون عن امتنانهم، ويُعتبر الجعران المقدسة والدة الشمس؛ ففي نهاية اليوم، عند غروب الشمس واستكانة الحياة على الأرض، الجعران المقدسة تأتيها آلام المخاض، فتُولد الشمس وتهب الحياة للأرض مرة أخرى.. في كل صباح، يُولد الناس والحيوانات من جديد مع ميلاد الشمس، ويشكر الكهنة والدة الشمس لهذا اليوم الجديد، ويعدونها بأن الناس سيقدمون الأضحية بحماس وإيمان لإله الشمس كدليل على امتنانهم لدفئها الذي يمنحهم الحياة، وبعد الإعراب عن امتنانهم، يحول الكهنة أنظارهم، وفقًا للطقوس، إلى الشمس التي تكون قد ارتفعت في السماء، ويتطلعون نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب، ويتأكدون من أن الشمس تبعث أشعتها على جميع أنحاء الأرض بعدل ومساواة، وبعد الاغتسال في البركة المقدسة، يسير الكهنة نحو شاطئ النيل، يتبعهم أربعة أو خمسة خدم، مُحمَّلين بالفواكه، وقبل الوصول إلى شاطئ النيل، يتوقفون عند سبعة منازل، للصدفة فقط دور في اختيارها، فيضيف أصحابها ما يستطيعون الجود بها إلى ما يحملها الخدم، وحيث إن المنازل يتم اختيارها عشوائيًا، كان على سكان المنطقة كلها أن يكونوا على استعداد لاستقبال الضيوف والوفاء بالمهمة المقدسة، وعند التحرك من المنزل السابع، تكون ظهور الخدم قد تقوست تحت أثقال لا تُحتمل؛ فيتجه الموكب ببطء إلى النيل ويطلب الكهنة وفرة المياه في الترع والمزارع، ويركعون ويصلون للشمس، ثم يلقى الخدم بأحمالهم في النهر المقدس، فينظر الكهنة نظرة استجداء إلى السماوات، ويستعطفون الآلهة لقبول هدايا البشر والنظر بعيون سمحة إلى الأرض.

كان "أمنحتب الرابع" أصغر أبناء "أمنحتب الثالث"، وبالتالي لم يكن لديه أي تطلعات لوراثة عرش والده.. خلال السنوات الأخيرة من حياة والده، كان "أمنحتب الرابع" يساعده في إدارة البلاد، وبعد الموت المفاجئ لشقيقه الأكبر، قرر "أمنحتب الثالث" أن يزيد مشاركة ابنه في الحكم ونَقَل إليه بعض السلطات الفرعونية، فرح الكهنة بالفرعون الجديد وسعوا إلى تقوية مراكزهم داخل القصر باسترضائه..

تزامن عهد "أمنحتب الرابع" مع أغنى عصور المملكة المصرية وأكثرها فخامة، كانت الخزينة الملكية ممتلئة، وكانت ترع المياه عميقة، والأراضي خصبة والناس سعداء بنعمة الوفرة في كل شيء، وكان حكام البلاد المجاورة تقلقهم قوة الجيش المصرى، ويميلون إلى استرضاء الفرعون ويغتنمون أي فرصة لتحسين علاقاتهم معه.

وعند وفاة "أمنحتب الثالث"، نَظَمَ الكهنة طقسًا جديدًا لتتويج الفرعون الجديد، فوجهوا الثناء لكل الآلهة، بقيادة "آمون"، سعيًا لرعايتهم لـ"أمنحتب الرابع".. كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية هي التي قررت منح العرش الفرعوني إلى "أمنحتب الرابع"، مع أنه الابن الأصغر، ولكن "أمنحتب الرابع"، بعد تتويجه، لم يبدُ في عجلة من أمره لتقديم الأضحية للآلهة، يشكرهم على هذه الهبة غير المنتظرة، بل ازداد سلوكه غرابة، وتدريجيًّا تحوَّل موقفه تجاه الكهنة إلى العداء، لم يستطع الكهنة فهم السبب، ولماذا يتجنب الفرعون الاجتماع معهم، متعللًا بالانشغال الدائم بأمور الحكم، وعلاوة على ذلك، كان الكهنة يتعجبون من تأجيل طقوس تقديم القرابين للآلهة، مع أنهم يذكِّرون الفرعون بها.. إنه لا يستمع إليهم، لا يأبه حتى بتحذيراتهم المباشرة أن موقفه المستهتر هذا قد يزعج الآلهة، وخاصة الإله "آمون".

وقد تجرأ أحد الكهنة وأفتى أن "آمون" سوف يستاء من عدم عرفان، وشكر حاكم البلاد له وقد يجرده من السلطة، فيعم السخط والاضطرابات في كل مكان.. استمع "أمنحتب الرابع" إلى شكاوى الكهنة، وأعلن بعد تفكر عميق: "سوف أوضح الأمور وأنهي حيرتكم في المستقبل القريب وبشكل قاطع.. وأنا واثق من أنني سأقدم لكم الحل الذي سوف يجيب على جميع أسئلتكم وأسئلة الآلهة أيضًا".

لم يفهم الكهنة ما يعنيه "أمنحتب الرابع"، ومع ذلك، ولأنهم يؤمنون أن جميع الفراعنة هم أبناء "آمون" على الأرض، كان من غير المجدي بل من الخطر مخالفته.. خرجوا من القصر، يحاولون تخمين ما كان يعنيه الفرعون عندما وعدهم بإنهاء حيرتهم!

بعد ذلك اليوم، ظل الفرعون في عزلة تامة داخل قصره لعدة شهور، وقد بدأت تقارير الكهنة تثير قلق الناس.. لم يفهموا سلوك "أمنحتب الرابع"، بل أحيانًا اعتبروها غير مقبولة.. بدأ الناس يظهرون علامات القلق، وخاصة أولئك الذين يحصلون على الأخبار من كبار الكهنة.

كان الناس يخافون من أن الآلهة سوف تمنع نعمها عن مصر بسبب سلوكيات الفرعون المشكوك فيها، وأن الجفاف، والمجاعة، والمرض سوف يضربون البلاد.. وبطبيعة الحال، فإن الناس العاديين سيعانون أكثر من غيرهم من سلوك وأفعال الفرعون، وهم الذين يؤدون جميع الطقوس بانتظام، ويقدمون الأضاحي والصلوات إلى جميع الآلهة المائة والتسع.

بعد فترة وجيزة، زار رُسُل "أمنحتب الرابع" الكهنة، وأبلغوهم أن الفرعون سوف يبلغهم بقرار مهم، ودعوا الكهنة لزيارة القصر بعد ثلاثة أيام.. بدت طريقة الدعوة غريبة جدًّا لهم، كان الفراعنة من قديم الأزل يدعون الكهنة بأنفسهم، وليس من

خلال الوسطاء، وذلك بعد الاتفاق مع الكهنة على الموعد المناسب، فهم الذين ينفردون، دون أي فئة أخرى، بمعرفة التاريخ المناسب لكل حدث، أو بتاريخ تفضيل الآلهة لبدء ووقف الحروب، حتى أيام بذر البذور في الأرض الزراعية هم من يقررونها، فكيف يقرر "أمنحتب الرابع" أن يتجاهل تقاليد الأسلاف، ويختار هو الوقت المناسب لدعوة الكهنة إلى القصر ليقول لهم شيئًا مهمًا؟ كما كانت صياغة الدعوة غريبة أيضًا.. فمن المعتاد أن يذكر الفرعون اسمه وأصله وإخلاصه لـ"آمون" ولجميع الآلهة.. انتاب الكهنة شعور سيئ، فهم يرون أن انتهاكات "أمنحتب الرابع" للتقاليد قد جاوزت بالفعل الحدود المسموح بها، وأنها سوف تجلب غضب الآلهة.

كان الخطر داهمًا، مما جعل الكهنة الثلاثة الكبار في مصر أن يقرروا تنحية خلافاتهم الشخصية جانبًا، وأن يقرروا العمل في انسجام تام ضد سياسة "أمنحتب الرابع" الدينية، وألا يخافوا من أي عقوبات قاسية قد يقررها الفرعون بحقهم، وبالطبع وافقهم الكهنة الآخرون تمامًا.

وفي التاريخ المحدد، ذهب الكهنة، يرتدون ملابس احتفالية، إلى قصر فرعون، ومع اقترابهم، لم يتمكنوا من إخفاء مفاجئتهم عندما رأوا حشدًا من الناس يمثلون مختلف المستويات الاجتماعية في مصر.. كان هناك النبلاء المصريون والتجار وحتى المشردين، وكان جميعهم قد تمت دعوتهم إلى القصر في اليوم نفسه، فوجئ الكهنة بذلك وغضبوا.. كيف يمكن لفرعون أن يدعو هذا الحشد المتنافر لمناقشة أهم القضايا الروحية؟ وهل هناك أي منطق في اختيار المدعوين؟ وبطبيعة الحال، فإن الكهنة لم يمانعوا اجتماع الفرعون مع ممثلي المجتمع المدني، ولكن دعوة النخبة الدينية معهم يدل على سوء تقدير لا يُغتفر.. بالتأكيد، سوف تغضب الآلهة، ومَنْ مِن الممكن أن يُخفف غضب الآلهة؟ الكهنة، بطبيعة الحال.

تشاور الكهنة مع بعضهم البعض، وأكدوا مجددًا عدم رضاهم في أثناء صعودهم لسلالم القصر.. كان حشدٌ كبيرٌ قد تجمع في القاعة العليا للقصر والتي زُينت بأعلام احتفالية ملونة.

كان الموسيقيون يقفون في الزاوية، ينتظرون دورهم لبدء العزف، وكان الصخب سيد القاعة.. حاول الجميع تخمين معنى ذلك الحدث الغريب، ولكن لا أحد لديه أي معلومات ملموسة لتأكيد ما يخمنه.. ادعى بعض الناس أن الفرعون كان يخطط لإطلاق حملة عسكرية إلى الجنوب، في حين ادعى آخرون أن الفرعون قد وقع في حب امرأة، وكان بعضهم يهمس أنها امرأة بسيطة من دون أصل، وكان آخرون يقولون بثقة إن الفرعون سوف يعلن مولد طفله الجديد أو اسم وريث العرش.. نوقشت العديد من الاحتمالات، ولكنها كانت كلها تكهنات تنتشر طنينها في القاعة الملكية.

وفجأة، بدأ الموسيقيون يعزفون بصوت عالٍ ودخلت حاشية الفرعون "أمنحتب الرابع" القاعة.. جاء أولًا أفراد الجيش من الحرس الملكي وأخذوا أماكنهم في زوايا محددة، ثم دخلت زوجات الفرعون واتجهن إلى مكانهن وراء العرش، ثم دخلت

"نفرتيتي" زوجة الفرعون الحبيبة، فوقف الجمع مشدوهًا؛ كانت نفرتيتي فاتنة، جمالها إلهي، لم تكن "نفرتيتي" مصرية.. إنها ابنة ملك شرقي.. سحرت الجميع، رجالًا ونساءً، بنعومة حركتها، كأنها غزالة بعنقها الطويل الرفيع، تسيرُ دائمًا مرتفعة الرأس، مفتخرة بأصولها النبيلة وعنقها الناصع البياض، انبهر الجميع بها، وبدا أن أحدًا لم يلحظ دخول الفرعون "أمنحتب الرابع"، جلس هو على العرش وأشار إلى رئيس المراسم أن يأمر الموسيقيين ببدء العزف.

رفع كبير رئيس المراسم عصاه التي وُضع في طرفها علم أحمر.. منذ تلك اللحظة، لم يكن لأحد الحق في الكلام ما لم يوجه له الفرعون الحديث أولًا.. بدأ الموسيقيون يعزفون، وبحماسة شديدة، حتى بدا أنهم سوف يكسرون آلاتهم عاجلًا أم آجلًا.

كان "أمنحتب الرابع" قلقًا، لم يولِ اهتمامًا كبيرًا للموسيقى أو لطنين الإثارة الذي سرى في القاعة، هو مستغرق في أفكاره، وعمَّا سيعلن عنه.. كان من الواضح أن أفكاره لم تكن في وئام مع الموسيقى البهيجة التي تهتز القاعة بها، وفجأة، كما لو أن أحدًا قد وخزه فاستيقظ، وقف الفرعون، وفورًا توقف الموسيقيون عن العزف.. نظر إلى الحشد، فتسمر الجميع في أماكنهم، كان تحديقه باردًا، وعيناه فارغتين، كأنما صُنعتا من زجاج.

"إن والدي، "أمنحتب الثالث"، بعد وفاة أخي الأكبر، قد أوكل إليَّ حكم البلد الأكثر جمالًا على وجه الأرض تحت رعاية الشمس".. هكذا بدأ "أمنحتب الرابع" حديثه.. "وعند تنصيبي أُقيمت طقوس الأضحية التي توارثناها، وعبَّر الشعب، رعاياي، عن فرحته لتتويجي، وأرسل العديد من الحكام رسائل تهنئة، بعضها لم أرد عليها مسترشدًا بالموائمة السياسية، في حين أُخطط أن أشكل مع آخرين تحالفات تنفعنا، وقد جمعتكم اليوم هنا لأن لديَّ شيئًا مهمًا سأقوله لكم.. وبطبيعة الحال، إن كل كلمات الفرعون مهمة، ولكن الرسالة التي أريد أن أقدمها اليوم ستشكل نقطة تحول لبلدنا، سوف تشهد اليوم بداية حقبة جديدة، وقبل أن ألقي الجزء الرئيسي من خطابي، سوف تستمعون إلى قصيدة كتبتها في مديح زوجتي "نفرتيتي"..

"سيدة أحلامي، الملكة نفرتيتي

أيتها النهر العذب الذي يمنح الحياة

لن يسيء لكِ أحدٌ بعد الآن

فأنتِ في حماية إله الشمس

وسوف نخطو معًا في الحياة

نمد أيدينا نحو الشمس

وفي الليل سوف نؤمن بالخلود

ونمحو حبات الزمن الرملية

من الآن، يا ملكتي، نحن جسد واحد

سوف نعلو معًا أو سنسقط معًا

أنا الحاكم.. ولكن الشمس تشهد

بأن لي حاكمة أخرى تحكمني".

عندما فرغ رئيس المراسم من القراءة، انحنى الجميع إظهارًا لإعجابهم، وشرع الموسيقيون في العزف بهدوء؛ فتقدمت وصيفة "نفرتيتي" إلى الأمام، وقرأت قصيدة مكتوبة على ورق البردي:

"أنت سيد أشواقي

إنك تعميني، فلا أرى الشمس

لأن زوجة كل حاكم ملكة

وليس زوج كل ملكة حاكمًا"..

توقفت الموسيقى ساد الصمت الكامل في القاعة، فوقف الفرعون الشاب مرة أخرى، وأضاف: "إن "أمنحتب الرابع" قد مات اليوم"؛ فُسمعت تعبيرات تنم على الدهشة من أناس لا تفهم.

"من اليوم مات الفرعون "أمنحتب الرابع".. من اليوم لم تعد هناك آلهة نعبدها ونقدم لها القرابين كما كنا نفعل من قديم الأزل.. من الآن فصاعدًا، سوف تتغير أشياء كثيرة في حياة مصر، سوف تُحَدد سلطة وقوة الكهنة.. إن الطقوس الدينية، من الآن، لن يرأسها الكهنة، بل سبعة أشخاص من المتعلمين الذين لا يمتلكون أرضًا أو أصلًا نبيلًا، سوف أختارهم من بين الناس الحاضرين هنا.. نور إلهي من السماء قد ألهمني أن هناك إلهًا واحدًا فقط، هو "آتون"، إله الشمس، الذي يداعب شعبه بأشعته كل يوم، ويعطي القوة والحكمة للحكام، والحب والدفء للنساء، والترفيه المُسلي للأطفال.

إن عبادة "آتون" سوف تجلب الحب والانسجام لحياتنا، لأن أيادي "آتون"، أشعة الشمس، هي التي تلعب مع الزهور الملونة، فتنمو الفواكه وتحلو من دفء الشمس وحب آتون، فالشمس تُولد كل يوم، آتية بالحياة، وليس هناك شيء أكثر حزنًا من الليل، عندما تغادر الشمس السماء، وتترك العالم في الظلام.. إن رمال الصحراء الشقراء تتوهج عندما تغمرها الشمس، ومع اختفائها يلفها السواد، فتشتاق لرجوعها.

"آتون" يرسل لنا حبه من خلال أشعة الشمس، كل يوم، دون كلل.. من الآن فصاعدًا، ومن أجل إلهنا الواحد الحق "آتون"، أحظر عبادة أي إله آخر، أكرر، إن "آتون" هو فقط الإله الحق.

ساد الصمت في القاعة، يبدو أن الفرعون يمزح معهم، أو أنه يقدم مسرحية أمام هذا الحشد المتنوع لإثارة الاهتمام بفن المسرح، لا أحد يفهم ما يحدث، لا يستطيع أن يتصور أحد كيف يمكن التخلي عن كل الآلهة وعبادة إله واحد فقط، وخاصة "آتون" الذي كان في رعاية وتحت سلطة "آمون".. إن "آتون"، كما تشهد الكتابات

القديمة، كان فرعون، وارتفع للسماء كإله من خلال أشعة الشمس، ليتوحد مع "آمون- رع".. كيف يُعبد "آتون"؟ هل تقدم كل القرابين له فقط؟ ألن يجلبوا على أنفسهم غضب الآلهة الأخرى؟ لن تعاني مصر فقط، بل الإنسانية كلها، لا يقدر أحد على تجنب غضب الآلهة.. خطاب فرعون يتحدى أي منطق معقول، عبادة إله واحد فقط؟ كان ذلك مستحيلًا.. لا يمكن أن يحدث هذا أبدًا! حتى ولو كان الأمر مزاحًا، سوف يُزعج الآلهة.. لا، إن الفرعون "أمنحتب الرابع" بالتأكيد قد فقد عقله، إنه يلعب لعبة خطيرة جدًّا، لن تغفر له الآلهة.

تقدم الكاهن الأكبر وتساءل: "فرعون مصر، "أمنحتب الرابع"، ابن "آمون"، عزيز الآلهة، قراراتك من حكمة السماء، ولكن ألا تعتقد أن هذا القرار سوف يثير غضب الآلهة الأخرى؟"، يدرك الكاهن الأكبر أن الوضع لم يعد مواتيًا للكهنة، وكان اعتراضه ينطوي على شجاعة استغرب الحشد لها، فعلى مر التاريخ لم يحدث أبدًا أن تجرأ أحدٌ واعترض على مشيئة الفرعون، بل على العكس تمامًا، كان الكهنة، على مر القرون، يوجهون الناس دائمًا بالتواضع أمام الفراعنة، وفي أي ظرف آخر، كان خطاب الكاهن الأكبر يُعد تمردًا واضحًا.

صرخ الفرعون من مقعده: "إن "أمنحتب" قد مات اليوم.. من اليوم لا يوجد "أمنحتب"، ربما لم تستمعوا إليَّ باهتمام، أنا لست "أمنحتب".. مات "أمنحتب" ووُلِد "أخناتون"، أنا الفرعون "أخناتون"، ويعني "المُخلص للإله آتون".. من الآن فصاعدًا، كل الذين يطلقون عليَّ أي اسم آخر سوف يتم إعدامهم، وسوف يُسجن أي شخص يتحدث ضد الإصلاحات الدينية التي بدأتها.. أيها الحراس! ألقوا بالقبض على الكاهن الأكبر".

قبض الحرس على الكاهن الأكبر وأخرجوه من القاعة، ساد الصمت، وطأطأ الحاضرون رءوسهم، ولم يجرأوا على النظر نحو الفرعون أو "نفرتيتي".

فصاح رئيس المراسم: "يعيش "أخناتون"، فرعون مصر، يعيش ابن "آتون"، فانصاع الجمع يكرر بأصوات تزداد حدة ووضوحًا تمجيدًا لـ"أخناتون".

بعد بضعة أشهر من اجتماع القصر، وقعت أحداث غير مسبوقة في مصر، أولًا، وبأمر الفرعون، أغلقت جميع معابد الآلهة، معابد "أوزيريس"، و"آمون"، و"رع" وجميع الآلهة الأخرى، المشيدة في جميع أنحاء البلاد، أخليت ولا يزورها أحد؛ فالتعبد فقط للإله "آتون" وزيارة معبد إله آخر قد تقود الشخص العاصي إلى الزنزانة، أو حتى الموت، إذا لزم الأمر.

"آتون"، قبل أن يصبح إله "أخناتون" الأوحد، لم يكن مشهورًا.. كانوا يصورون "آتون" كقرص الشمس مع أشعة تمتد كأذرع طويلة تنتهي بأيادٍ صغيرة، كأنها تبتغي ملاطفة العالم، وكان "آتون" - قبل ثورة "أخناتون" الدينية - يتمتع بدور ضئيل جدًّا كإله، أما الإله الأهم فهو "أوزيريس"، حاكم الآخرة، والعالم السفلي، والموتى، وكان المصريون يستعدون للقائه طوال حياتهم.

"أوزيريس" هو حاكم الخلود، والناس تحت هيمنته الأبدية بعد حياتهم القصيرة على الأرض، ولهذا السبب فإن الإصلاح الديني كان يتقدم ببطء وبلا رغبة، ففي البداية، لم يؤيد الناس الإصلاحات الدينية لـ"أخناتون"، اعتقدوا أن "أوزيريس" سوف يغضب؛ لأنهم يتجاهلونه وأن غضبه سوف يهلكهم، ومن المؤكد أن الكهنة، الذين كانوا قد غرسوا في الناس فكرة الشرك لقرون طويلة، لتعزيز سلطتهم، كان لهم دور في انتشار هذه الشائعات.

كان الكهنة قد استقروا في الطبقة الحاكمة، فأضافوا النفوذ العلماني على سلطتهم الروحية غير المحدودة، والآن، فقدوا نفوذهم ووظائفهم، وقد كان هذا التغيير أكثر وطئًا على الكهنة ذوي الرتب الدنيا، لم يكن في وسعهم تلقي التبرعات من الناس فواجه أغلبهم المجاعة، وفقدت المعابد الضخمة رونقها المعهود.. هجرها الناس، فباتت بنايات فارغة لا يملؤها إلا نذير الشؤم، لم تعد تفوح منها رائحة البخور العطرية، لم تعد تُسمع منها صلصلة الصنج، لم تعد تُقدسها همهمات المصلين، بدا أن الآلهة قد تخلوا عن معابدهم وابتعدوا عن الشعب الجاحد.

أمَّا الكهنة من الرتب الأعلى فكانوا في حالة سيئة أيضًا، وكان الكثيرون يبيعون الذهب الذي اكتنزوه من أجل الحصول على مال يصرفونه على ضروريات العيش، وبطبيعة الحال، لم يهددهم الجوع، ولكنهم وبعد أن اعتادوا على نمط الحياة الفاخرة، يجدون حياتهم الحالية صعبة تفتقر إلى وسائل الراحة والرفاهية، وكانت الحياة تزيد صعوبة كل يوم، وتُجبر الكهنة على استخدام الفضة في زيناتهم، فهي أرخص من الذهب، وقلَّت في ساحات المدن جولاتهم في عربات تجرها الأحصنة والكثير من العبيد كانوا غاضبين، يفكرون في كيفية تصحيح الوضع.

وبعد شهر من الاجتماع الذي أُعلن فيه عن بدء الإصلاحات الدينية، أدلى "أخناتون" ببيان جديد، يُبلغ فيه شعبه ببناء عاصمة جديدة، تسمى "أخيتاتون"، على شرف إله مصر الأوحد "آتون"، وكان من المقرر أن يُبنى قصر الفرعون "أخناتون" وسط العاصمة، قصر كبير يتجاوز حجمه حجم أي قصر آخر بُني على وجه الأرض، وكان من المقرر أيضًا أن يتم بناء العاصمة من الألباستر الأبيض، بحيث يعانق ويدفئ "آتون" المدينة التي بنيت على شرفه، وفي قلب العاصمة يُقام معبد الإله الأوحد "آتون" أيضًا من الألباستر الأبيض.

وأمر "أخناتون" ببناء معابد لـ"آتون" في جميع أنحاء مصر، معظمها من الألباستر الأبيض، وذات أحجام تتنوع بين مصليات صغيرة ومبانٍ ضخمة، وكان "أخناتون" يختار شخصيًّا الكهنة الذين سوف يخدمون في المعابد، وكان يفضِّل الشباب الذين لا ينحدرون من أصول نبيلة ولا يمتلكون الأراضي، فعزز هذا الإجراء عداء الكهنة السابقين تجاه الفرعون وإصلاحاته.

تم استبدال الكهنة، الذين كانوا يتجولون في مركباتهم المذهبة بشباب غير متعلم ليست لديهم معرفة أساسية بالهندسة، ولا يستطيعون التفرقة بين الشمال والجنوب، ويقرأون بصعوبة، وربما يجهلون الكتابة تمامًا، كما أنهم يفتقرون إلى المهارات اللازمة للصلاة.. كان الكهنة السابقون يسمون هؤلاء بـ"اليهود"، وكانوا على يقين

من أن اليهود سيدمرون قريبًا الحياة التي بنوها وأن الآلهة سوف تغضب في نهاية المطاف على أعمالهم الحمقاء وتكيل لهم العقوبات المروعة.

وبطبيعة الحال، لم يكن الغضب الإلهي على اليهود أمل الكهنة الوحيد، كانوا يقضون معظم الوقت في مناقشة طرق استعادة مواقعهم المفقودة، كان البعض يرى أن الفرعون كان قد خُلق لمعاداة الآلهة، وكان أنصار هذا الرأي يزعمون أن الفرعون ليس في الواقع ابن "أمنحتب الثالث"، وأن لا أحد يستطيع أن يتذكر متى ظهر "أخناتون" في عائلة "أمنحتب الثالث"، واختلاف هيئة "أخناتون" عن بقية أفراد عائلته زاد من احتمالية هذا الظن؛ فرأسه طويل، وعيناه الكبيرتان تفتقران إلى أي تعبير، وجسده الأنثوي وجلده الأبيض الحسَّاس يفصلانه عن معظم الرجال المصريين، وقد رأى كهنة آخرون أن شقيق "أخناتون" الأكبر كان من المفترض أن يُتوج بدلًا منه، لكنه تُوفي قبل أشهر قليلة من التتويج، وترك العرش لـ"أخناتون" الذي سرعان ما استغل الأمر، وكان البعض يصر أن "نفرتيتي"، زوجة "أخناتون"، ساحرة شريرة أرسلت من قِبل الأعداء وأنها سحرت الفرعون، بحيث تستطيع من خلاله أن تدمر مصر، وكانت كل هذه الفرضيات مظلمة ومثيرة للقلق، ولكن الكهنة أجمعوا على شيء واحد أنه قد تم التعامل معهم بظلم بين، وأنه من الضروري استعادة النظام السابق في أقرب وقت.

كانت فكرة المؤامرة تحوم في الجو، وكان عليهم تحديد خططهم وتنسيق الإجراءات المستقبلية بينهم.

وكان "أخناتون" قد حبس نفسه في قصره، لا يخرج منه إلا في مناسبات نادرة، ويظل غالبًا داخل القصر، وقد يتنزه في حديقة القصر لبضع ساعات فيملي قصائده على الكاتب الذي يرافقه.

كانت قصائد غنائية، قد تكون صلاة أو رباعية رومانسية عن "نفرتيتي"، أو دعوة عسكرية، أو تمجيدًا للشمس، وكان من المثير للاهتمام أن قصائده لم تكن فقط عن "آتون"، إله الشمس، الذي اتخذه "أخناتون" كإلهه الأوحد، ولكن عن الشمس نفسها كجرم سماوي مضيء.

يصف "أخناتون" في قصائده كم هي لطيفة الشمس، كيف توقظ الطبيعة وتهب الحياة إلى الزهور ذات الألوان الزاهية، كيف تُداعب الناس بأشعتها الدافئة، كيف تساعد القمح على النمو في الحقول، وتصبغ رمال الصحراء باللون الأحمر، كيف تصبح الحياة حزينة وقاتمة عندما تتركها الشمس في الليل، فيغرق العالم في الظلام، وكان "أخناتون" يصف في قصائده تأثير الشمس الإيجابى على العالم، ومن الواضح أن حبه للشمس ينبع من سنوات عبادته إياها، لقد أحب "أخناتون" الشمس، أو بالأحرى، كان في حالة حب مع الشمس.. الذين يعرفون "أخناتون" كانوا في حيرة من أمرهم: من هي حب "أخناتون" الأكبر؟ هل هي "نفرتيتي" أم الشمس؟

وكانت الملكة الجميلة تنتظر "أخناتون" في الحديقة كل يوم لسماع قصائده الجديدة، وكانت كلمات ونظرات "نفرتيتي" تنم عن حزن دفين، مع أنها نادرًا ما كانت تتحدث، لم يسبق لأحد أن رأى ابتسامتها، فقط عند استماعها لقصائد "أخناتون" قد

تبتسم أحيانًا ابتسامة رضا، وتخفي وجهها بسرعة كما لو أنها تخاف أن يلاحظها شخص ما.

وفي يوم من الأيام، كان "أخناتون" واقفًا أمام قصره الأبيض، وكانت "نفرتيتي" واقفة على مقربة منه، عالية الرأس، طويلة الرقبة رشيقها.. كانا يبتسمان وقد بدا الارتياح على وجوههما، تهفهف ملابسهما البيضاء النظيفة في الرياح الصحراوية، وكأنما سقطا توًا من السماء.

وكان المصريون قد تجمعوا للاستمتاع بالمباني الجديدة والمرافق العامة، وكان قصر "أخناتون" الاستثناء الوحيد، واجهته سبع مائة متر، ومع انتشار أشعة الشمس فوق المدينة، ترى العيون منظرًا إلهيًّا.. كانت مدينة تشبه الأحلام، هي واحة بيضاء متلألئة في الرمال الصحراوية الصفراء، وكان "أخناتون" قد وصف مدينة "أخيتاتون" في قصائده قبل أن تُبنى، وكتب أن "آتون" كان يعانق المدينة، يريد أن ينقل دفءه إلى الناس من خلال ملاطفته للعاصمة البيضاء، وإلى جانب قصر "أخناتون"، كان هناك مبنى كبير آخر في وسط المدينة، وكان ذلك معبد "آتون".. وقف اثنان من تماثيل الجعران المقدسة الضخمة يحرسان مدخل المعبد، وكان "آتون"، هو قرص الشمس بأشعتها التي تحولت إلى أيادٍ، مرسوم فوق المدخل.

استغرق بناء المعبد، الذي قام ببنائه عشرة آلاف من العبيد، خمس سنوات، وقد أشرف على عملهم ثلاثمائة مهندس معماري تمكنوا من تحويل عمل العبيد الشاق إلى بنية رائعة، وكانت نقوش المعبد تحكي قصة الإله "آتون" وكيف كان يحكم كفرعون عادل وذكي، كما تم تصوير الغزوات العسكرية ومشاهد الصيد، وكان نقش من النقوش يصور "آتون" مرتديًا عصابة عينين، يحمل طفلًا حديث الولادة في ذراعيه، وتمساح كبير تحت أقدام "آتون" يفتح فمه واسعًا، كما لو أنه كان ينتظر أن يطعمه "آتون" الطفل الرضيع، وعلى نقش آخر، تم تصوير "آتون" صاعدًا إلى السماء، يرتفع كإله إلى السماء من خلال أشعة الشمس، ويتحد مع قرص الشمس ليصبح الشمس نفسها، وكان قرص الشمس سعيدًا باندماج "آتون" فلم يعد يرسل الكوارث إلى الناس، بل داعب الأرض بأشعته.. هذه هي الفكرة التي حاول المهندسون المعماريون نقلها من خلال نقوش المعبد، وما عدا عدد قليل من الصور ذات الأهمية السحرية، مثل الطفل الرضيع والتمساح، معروفة المعنى للكهان، كانت جميع النقوش الأخرى جميلة جدًا ولا تحتاج إلى مزيد من التوضيح.

ومع ذلك، كانت هناك خاصية مثيرة للاهتمام في النقوش، ولم يصور أي منها مشاهد تصف كيف كان الفرعون، وهو منشئ المعبد، يتصرف في ساحة المعركة، لم تكن هناك مشاهد تصور "أخناتون" أثناء الصيد، أو أثناء تقديمه القرابين للآلهة، وفي الواقع، لم يكن هناك أي صور للآلهة في المعبد.

وكان الكهنة، ومعظمهم من المعينين حديثًا، يقفون في نصف دائرة يحرقون البخور العطرية داخل القصر، وكانوا يمرون عبر غرف القصر، يباركونها بصلواتهم، ويعلنون أنهم يكرسون جميع المباني الكبيرة منها والصغيرة إلى "آتون".

مجد الكهنة الإله "آتون"، طالبين منه أن ينظر إلى الفرعون "أخناتون" بعين الرضا حتى يكون مخلصًا لاسمه، مفيدًا لإله الشمس في كل شيء.

وبعد أن داروا سبع مرات حول القصر في الاتجاه المعاكس لحركة الشمس، بدأ الكهان مراسم تكريس المعبد، وكان جسر حجري يصل قصر "أخناتون" بمعبد "آتون"، وكانت الشرفة الاحتفالية في الجزء الأوسط من الجسر، وعليها سوف يقف الفرعون ويخاطب شعبه.

تمت مباركة المعبد غرفة تلو الغرفة، وانتشرت رائحة البخور العطرية في أنحائه وطردت الأرواح الشريرة، ودق اثنان من الطبالين الطبول بكل ما لديهما من قوة، وخلقا إيقاعًا منسجمًا مع الجو الاحتفالي، وجلجلت الصنوج، فصعدت صوتها إلى "آتون" في الأعالي.. كان المشهد جميلًا ومثيرًا، حيث رقص الناس على إيقاع ضربات الطبول، صلوا بأذرع ممدودة إلى السماء.

كما حضرت ثلاثمائة فتاة جميلة من مختلف أنحاء مصر لافتتاح العاصمة الجديدة، نهودهن عارية، وعلى أجسادهن وشوم مختلفة الأشكال، وكان الرجال ينظرون بسعادة إلى النساء اللواتي يلتوين وهن يرقصن.. إنهن يرمزن إلى الجمال الذي يعيش في الشمس، تحت رعاية "آتون".. جمال يتمتع بدفء يديه، وكان "أخناتون" و"نفرتيتي"، يحيطهما العديد من العبيد والخدم، يسيران وقد تشابكت ذراعاهما.

مرا من بين صفوف من الراقصين، والمصلين، والموسيقيين والكهنة، وقاما بتحية الجميع على قدم المساواة، وبدت "نفرتيتي" قريبة جدًّا من "أخناتون" كأنه يحملها بين ذراعيه.. وقف الجمع مشدوهًا من مشهد الحب؛ فالفرعون ليس إنسانًا عاديًا، لذا مشاعره تجاه زوجته لا بدَّ وأن تكون إلهية.

استمر الفرعون وزوجته الجميلة في المشي واحتضان بعضهما البعض، يرحبان بالناس بإيماءة رأس خفيفة، وكان مشهدًا متناغمًا تمامًا.

مرت سبع سنوات طويلة، تم خلالها إخلاء مدينة "طيبة"، العاصمة القديمة، تمامًا، أما "أخيتاتون" فقد امتلأت بالناس، يأتون إليها لإيجاد الوئام الروحي، ويتوقعون حياة هادئة سلمية، وكان الناس من مختلف المهن، ولكن غالبية السكان كانت تتألف من الفنانين الذين وجدوا الإلهام في "أخيتاتون"، وهكذا ازدهرت جميع فروع الفنون التطبيقية في المدينة.

وخلال تلك السنوات، حلَّت الكثير من الكوارث على عائلة الفرعون، حيث توفيت الملكة "نفرتيتي" من داء مجهول، فانسحب "أخناتون" إلى داخل القصر، يبكي فقدان زوجته، وعلى الرغم من أنه لم يشارك قط في الشئون الملكية، فإنها وصلت الآن إلى حالة من الإهمال التام، فتراكمت مشكلات الدولة المصرية وتسببت بالطبع في مشكلات جديدة، ونتيجة لذلك بدأ الحكام الأجانب يرفعون رايات الاستهجان بسلطة مصر؛ فالملك السوري رفض دفع الضرائب لمصر، وكان يسخر من "أخناتون" في رسائله، والحيثيون، من جانبهم، كانوا يحاولون نشر المؤامرات، ففي رسالة له، كتب ملكهم لـ"أخناتون" أنه لم يدعُ أي شخص من المملكة الحيثية

إلى اِحتفال تتويجه أو إلى حفل زفافه مع "نفرتيتى"، وكانت التحالفات العسكرية التي أبرمت خلال عهد "أمنحتب الثالث" تنهار الواحدة تلو الأخرى، لقد تضاءلت سلطة الدولة المصرية.. يبدو أن "أخناتون" قد تخلى عن مسئولياته ولم يحاول إصلاح الأمور بأي شكل من الأشكال.

وفي أحد الأيام، أخبر رئيس المراسم "أخناتون" أن "فيديخ" - وهو أحد الكهان السابقين - يريد أن يراه في مسألة مهمة جدًّا، وبعد الكثير من التفكير، قرر الفرعون أن يسمح "فيديخ" بالحضور.

كان "أخناتون" لا يريد أن يلتقي مع أي شخص، وخاصة مع شخص يذكره بحياته الماضية، عندما كانت "طيبة" عاصمة البلاد، وكانت هناك العديد من الآلهة، وكان هو الفرعون "أمنحتب الرابع"، ولكنه أراد أن يخرج من رتابة حياته ولو لبرهة، ولذلك فقد وافق على رؤية "فيديخ" مع أنه كان قد سجنه مرة واحدة لحديثه ضد إصلاحاته الدينية، "ربما لديه شيء مثير للاهتمام"، هكذا فكر "أخناتون"، وأمر أن يأتي "فيديخ" في اليوم التالي بعد العشاء.

وفي اليوم التالي، كان القصر يستعد لتناول العشاء.. دُعيت مجموعة من الموسيقيين المهرة من بلد بعيد، وعلى الرغم من غرابة الألحان فقد كانت مرضية للآذان، وكان الطعام المعروض على المائدة الملكية متنوعًا ووفيرًا.

سكب السُقاة النبيذ من أباريقهم في كؤوس الضيوف، وخلال العشاء، لم يأكل الفرعون شيئًا باستثناء قطعة صغيرة من الخبز، والحاضرون أيضًا لم يتناولوا الكثير من الطعام، واكتفوا باحتساء القليل من الخمر.

أشار "أخناتون" إلى رئيس المراسم، فتوقف الموسيقيون عن العزف.. اقترب رئيس المراسم من المائدة وفتح برديًا ملفوفًا، وشرع في قراءة إحدى قصائد "أخناتون":

"آتون، خالق الحياة، الخالد في الأبدية

إنك تستيقظ في شروق الشمس

فتملأ البلد كله بجمالك

إنك تتألق رهبة وقوة

وعندما تذهب إلى الغرب

تنغمس الأرض في الظلام

كما هو الحال عند باب الموت

تخرج الأسود من عرائنها

تلدغنا الثعابين

تصبح الأرض صامتة في الليل

طالما أن الخالق ظل في الظلام"..

انحنى الحاضرون احترامًا وامتنانًا للقصيدة الجميلة.

وقال الفرعون دون أن يلتفت إلى الكاهن السابق: "تكلم، "فيديخ"، أنا أصغي إليك.. ما الذى جاء بك إلى هنا؟".

فانحنى "فيديخ" وركع أمام الفرعون، وبدأ الكلام: "حاكم مصر! إنه لشرف عظيم لي أن أراك! وإنه من دواعي سروري أن أستمع إلى قصائدك، ولكنني جئت لغرض آخر.. لديَّ معلومة في غاية الأهمية، حيث يحاول مسئول مصري تقويض أسس دولتنا، لقد جعل تدمير بلدنا الغرض الرئيسي لأنشطته، ومن المحتمل أن هذا الوغد على علاقة مع دولة معادية، وينفذ أوامرها لتدمير مصرنا العظيمة".

فسأله الفرعون بهدوء: "من الذي تتحدث عنه؟ من هو الخائن؟".

"أيها الفرعون! يا حاكم بلادي! أتحدث أنا عن مسئول رفيع المستوى، تصل علاقاته حتى هذا القصر، ولذلك لا أستطيع أن أتكلم عن الأمر علنًا.. فمن الممكن أن شخصًا موجودًا في هذه القاعة يعرفه، والأسوأ من ذلك، أن يكون في خدمة الخائن.. أيها الفرعون "أخناتون"، إن لرسالتي أهمية قصوى، يجب أن أتحدث إليك في حراسة "آتون" فقط وأشعته العادلة".

كان الموسيقيون أول من غادروا القاعة، تاركين آلاتهم الموسيقية في زاوية قصية، وأمر رئيس المراسم العبيد بتنظيف المكان ورفع بقايا الطعام من المائدة، وبعد نحو نصف الساعة، أصبح "أخناتون" و"فيديخ" وحدهما.. في صمت جلسا لبضع دقائق، كأن الفرعون أراد أن يتأكد من عدم وجود أي شخص غيرهما.

"حسنًا، الآن بعد أن أصبحنا وحدنا، من الممكن أن نبدأ.. من هو الشخص المنشق الذي يجرؤ على تعتيم مجد مصر بأفعاله؟".. وبعد صمت طويل، تكلم "فيديخ" بتروٍّ وهدوء: "الشخص هو أنت، يا "أخناتون".

"ماذا؟ هل جننت؟ كيف تجرؤ على اتهامي بذلك الفعل الشنيع؟".

قاطعه "فيديخ: "حافظ على الهدوء! فأنا أعرف السر الخاص بك، وإذا حدث شيء لي، فإن أصدقائي سوف ينشرونه في أنحاء الأرض في يوم واحد".

"ماذا؟ ما هو السر؟ عن ماذا تتحدث؟ من الواضح أنك قد جننت! سأتصل بحراسي ليتم اعتقالك على الفور".

فقال "فيديخ" مبتسمًا: "لن تفعل ذلك.. فكما قلت، أعرف السر الخاص بك، والأفضل أن نبدأ الحديث، ونرجئ الاتصال بالحراس لوقت لاحق".

كان "أخناتون" قد احمر وجهه من الغضب، فقد تجاوزت وقاحة "فيديخ" كل الحدود، يتجاهل الرسميات في الحديث إلى ابن الإله "آتون"، ويحاول أن يملي عليه شروطه.. تمالك "أخناتون" نفسه وتحدث بعد برهة: "لنفرض، يا "فيديخ" أنك بالفعل تعرف شيئًا، فماذا تريد؟ لماذا جئت إلى هنا؟".

"كنت أعرف أنك سوف تتخذ القرار الصحيح بأن تسمع كلامي حتى النهاية.. ماذا أريد؟ لقد مرت خمسة عشر عامًا منذ أن توليت السلطة، ولكن اليوم أكثر أهمية من يوم تتويجك ملكًا على مصر.. اليوم، ولأول مرة، عليك أن تهتم بما يريده شخص آخر، لقد حكمت هذا البلد لمدة خمسة عشر عامًا دون أن تهتم بأي نصيحة، لا تفعل إلا ما يخبرك به قلبك.. اسمع يا "أمنحتب" الذي يُسمى نفسه "أخناتون"، لقد عرفتك وأنت طفل صغير، أعرف كل أفراد عائلتك، كنت لوالدك كاهنه المفضل.. في ذلك الزمان كانت "طيبة"، عاصمة مصر الحقيقية، مزدهرة، وبفضل مَنْ؟ بفضل والدك! وكان معبد الإله "آمون"، يمتلئ بالزوار، أناس عاديين، تجار وجنود، كانوا يقدمون القرابين في معبد "آمون"، وكان والدك يقدم للكهنة، بعد كل انتصار عسكري، خمسمائة أسير حرب، وكان آلاف الكهنة يقدمون طقوس الشكر والامتنان في معابد "طيبة"، وكان "آمون" راضيًا، مثل كل الآلهة.. ومصر تزدهر".

وأخذ "فيديخ" بردية صغيرة من جيبه وقرأ: "ستون كيلو جرامًا من الذهب و ألف كيلو جرام من الفضة وألفان وخمسمائة كيلو جرام من النحاس، وخمسة وعشرون ألف إبريق للنبيذ وثلاثمائة بالة من القماش المخملي واثنا عشر فدانًا من الأراضي الزراعية الخصبة.. تبرع بها والدك لمعبد "آمون"، وفي أثناء العام الأخير من حياته، قدم الكثير من القرابين للآلهة.

كان شعب مصر ينتظر الفرعون القادم، "تحتمس"، أخاك الذي كان كاهنًا في المعبد، ولكن "تحتمس" تُوفي بشكل غير متوقع، وبما أنك أخوه الوحيد، فقد تُوجت فرعون".

"ما تقوله صحيح، ولكنني لا أستطيع أن أفهم سبب سخطك.. ما الذي يزعجك، يا "فيديخ"؟ لماذا تعرض حياتك للخطر بوقوفك أمامي والتحدث إليَّ بجرأة هكذا؟".

فواصل "فيديخ" حديثه: "كان كل شيء يسير بشكل طبيعي، وكانت الآلهة مبتهجة، تبارك بلادنا، فازدادت خصوبة أراضينا وقوة جنودنا، حتى أصبحت أنت الفرعون، لقد رفضت أن تحمل اسم والدك، وكان ذلك كافيًا بأن يصيبك بلعنات الآلهة والشعب، ولكن جرائمك كانت تتواصل.. رفضت تقديم القرابين للآلهة، رفضت أن تعيش في العاصمة التي شيدها واعتنى بها والدك، لقد بنيت عاصمة جديدة لمتعتك الشخصية، وقد عزلت نفسك هناك، تخليت عن إمبراطورية جبارة شاسعة، وبعد كل ذلك، أعلنت نفسك ابنًا لإله الشمس - "آتون" - وأنشأت العبادة التوحيدية، وتجاهلت الآلهة الأخرى.. لقد أعلنت للشعب أن هناك إلهًا واحدًا فقط، "آتون"، وأن الآخرين كاذبون".

استمع "أخناتون" إلى "فيديخ" دون أن يقاطعه، يريد أن يعرف ما سوف يقوله رئيس الكهنة السابق في نهاية حديثه.

كان "فيديخ" واحدًا من أقرب رفقاء والده وكثيرًا ما زاره، وعاش "أخناتون" حياة معزولة منذ الطفولة، ولم يشارك كثيرًا في الطقوس والأحداث العامة، ولكنه كان يعرف "فيديخ" وعلاقته الوثيقة بوالده، وكان لـ"فيديخ" تأثير كبير على "أمنحتب

الثالث"، حتى إنه شارك في قرار تسمية "أخناتون" الفرعون القادم، وكان من المستحيل القيام بذلك دون موافقة "فيديخ".. في بداية الأمر، لم يتعامل "فيديخ" مع قضية "أخناتون" بجدية، عندما بدأ الفرعون الشاب إصلاحاته الدينية، غضب "فيديخ"، لكنه كان يأمل أن تكون جولات "أخناتون" مؤقتة، وأن كل شيء سوف يعود قريبًا إلى أصله.

"وما هي تهمتي؟ استبدال الهراء الديني القديم بفكرة مشرقة جديدة؟ أم أنني أظهرت للناس سخافة صور أجساد بشرية برءوس حيوانات؟ أو ربما جعلت الآلاف من الكهنة الطماعين يعانون البطالة؟".

صاح "فيديخ" وقد أغضبته كلمة "الطماعين": "لم يفقد الكهنة فقط أعمالهم، بل أيضًا العديد من الحرفيين، وتجار البخور، والكثير من الناس الذين كانوا يخدمون في المعابد.. أصاب الفقر الجميع، لقد لعنوك وجنونك الديني.. "طيبة"، عاصمة والدك، باتت فارغة، وغادر الناس مصر، فقد أصبحت مكان شؤم وشر.. هل أنت على علم، يا "أخناتون"، بالوضع العسكري في مصر؟ هل أنت على علم بأن دول الجوار لم تدفع ضرائب منذ عامين، وأن الحيثيين يجهزون حملة ضد مصر؟ هل تعلم أننا فقدنا قلعتين في سوريا؟ وهل تعتقد أنه بعد كل هذا فإن الكهنة هم الذين يتسمون بالنهم، وليس شخصًا آخر؟ إنك حبست نفسك في المدينة التي اختلقتها، يا "أخناتون"، ورفضت أن تشارك في حكم بلادك، لقد لعنتك الآلهة، وإذا استمرت على المنوال نفسه، أبشرك أن نهاية مصر ليست بعيدة".

كان "أخناتون" صامتًا، حيث كان من الممكن أن يدعو جنوده ويأمرهم بإلقاء القبض على الكاهن، الذي كان يجرؤ على توجيه الاتهامات له، ولكنه لم يفعل، فبعد وفاة "نفرتيتي"، فقد الاهتمام بكل شيء، حتى الدفاع عن نفسه.. يجلس الآن يستمع إلى أحكام "فيديخ" فيتسامح معها، ويرى فيها بعض الحقيقة.

عندما أعلن "أخناتون" عن إصلاحاته الدينية، أدرك أن الأمر لن يكون سهلًا، يعلم أن الناس لن تقبل الحقيقة فورًا، ويعرف أن فئات من الشعب سوف تعاني من التغييرات، وبطبيعة الحال، كان الفرعون يتلقى المراسلات اليومية من جميع القلاع المصرية، وكان على علم بالشئون العسكرية، ولكن الحل الذي ارتآه يختلف تمامًا عمَّا يتصوره الكاهن السابق، لم يكن هناك شيء مروع أو جديد في كلمات "فيديخ"، وكانت كلها أخبارًا قديمة، تمامًا مثل الآلهة التي يعبدها "فيديخ".

"ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى كثيرة، ومن أجل منع مزيد من الدمار، أنا، الكاهن الأكبر الذي تباركه الآلهة المصرية الحقيقية، أجردك من حقك في عرش الملك، إنني أطردك من مصر مع مؤيديك.. أنت وسكان "أخيتاتون" وبغض النظر عن الجنس أو العمر أو المهنة، ملعونون إلى الأبد.. سوف تتوه في الصحراء لسنوات طويلة.. ملعون أنت وسوف تهاجمك الناس عند كل فرصة سانحة".

"لقد عاديت العالم كله، والتقاليد التي يمارسها الناس منذ آلاف السنين، لن يغفر لك الناس اختلافك عنهم، وسوف يتم تعيين "توت"، ابنك الوحيد، فرعون بدلًا منك، سوف أقوم بتتويجه ملكًا باسم "توت عنخ آمون"، أي "صورة آمون الحية"..

صحيح أن عمره خمس سنوات فقط، ولكن بمجرد أن يتم تتويجه فرعون، سوف نقوم نحن الكهنة بمساعدته إلى أن يبلغ سن الرشد، وسوف يحكم مصر أفضل منك، وسوف ترجع "طيبة" عاصمة للبلاد، أما "أخيتاتون"، العاصمة التي بنيتها أنت، فمحكوم عليها بالخراب والدمار".

ظل "أخناتون" صامتًا في أثناء حديث الكاهن، حيث كان يستمع إلى "فيديخ" محني الرأس، لم يحاول قط أن يعارضه، أما "فيديخ" فواصل حديثه بصوت خافت: "هناك شيء واحد أحاول أن أفهمه، ولكنني لم أنجح حتى الآن".

فسأله "أخناتون": ماذا؟

"قصائدك.. على سبيل المثال، القصيدة التي قرأتها في العشاء: "آتون".. خالق الحياة.. الخالد في الأبد.. إنك تستيقظ في شروق الشمس.. فتملأ البلد كله بجمالك.. إنك تتألق رهبة وقوة".. كيف نجحت في أن تكتب هذه القصائد؟ لقد أنشأت عبادة الشمس، وأسست مدينة مخصصة للشمس، وبنيت معبدًا مخصصًا للشمس، فكيف استطعت أن تصف جمال الشمس في قصائدك، يا "أخناتون"، كيف؟ كيف يمكنك أن تصف شيئًا لم تره.. إنك لم ترَ المدينة التي بنيتها، أو المعابد التي شيدتها، أو جمال زوجتك، "نفرتيتي".

إنك لم ترَ الشمس التي تصفها في قصائدك، فكيف أخفيت سرك من الجميع كل هذا الوقت؟ كيف أخفيت، يا "أخناتون"، سرك الخاص، كيف أخفيت أنك قد وُلدت كفيفًا؟".

(8)

"أوربانوس الثاني" يدرس الرأي العام

كليرمون.. 1095 م

كان البابا "أوربانوس الثاني" جالسًا أمام مكتبه، يدرس خريطة كبيرة توضِّح ممالك الشرق أعدها رسام الخرائط الملكي خصيصى له.

ثلاث خرائط، تبين إحداها ممالك الشرق، وحدودها والوضع الديني الحالي فيها مع ملاحظات مفصلة، أمَّا الخريطة الثانية فتبين الطرق الآمنة في تلك الممالك، وتتضمن الخريطة الأخيرة معلومات عن مستوى معيشة السكان، وتم جمع جميع البيانات من قبل المخابرات السرية للبابا.

كان "أوربانوس الثاني" يدرس الخرائط، وأحيانًا يدوِّن بعض الملاحظات على قطعة من ورق الرق أو على الخريطة نفسها، وكان منهمكًا في عمله، حتى إنه لم يلحظ حضور "أودو"، الذي وقف يراقب "أوربانوس الثاني" في صمت لفترة طويلة من الوقت.. هكذا كان "أودو"، هو الشخص الوحيد في القصر الذي يمكنه الدخول إلى غرف البابا، وحتى غرفة النوم، ولا يمكن لأي حارس إيقافه أو منعه من الدخول، كأنه ظِل البابا.. حركته داخل القصر حرة وخارج الملاحظة.

- "آه، لقد جئت.. اجلس، أوشكت على الانتهاء".

جلس "أودو" على الطرف الآخر من مكتب "أوربانوس"، الذي قال، وهو لا يزال يحدق في الخريطة:

- كنت أريد أن أسألك عن شيء ما، ولكنني نسيت ما هو.. آه، نعم، أخبرني اليوم رسام الخرائط الملكي بأنك أعطيت تعليمات بتجنيد مائتين من الفنانين، وأنك سوف توصيهم بعمل بعض الأشياء المهمة باسمي.. فهل ممكن أن أعرف ما هذه الأشياء المهمة؟

رد "أودو" مبتسمًا في خبث:

- إنني أجري أعمالًا تحضيرية قبل الحملة العسكرية.. هؤلاء الفنانون سوف يرسمون أيقونات تصوِّر الكفار المسلمين، وهم يقتلون وينهبون الحجاج المسيحيين في طريقهم إلى الأرض المقدسة.

- وهل كانت هناك مثل تلك الحالات؟ لماذا لم يتم إبلاغي؟ هل رئيس جهاز المخابرات أحمق؟ لماذا لم يخبرني بتلك الفظائع؟ دعه يأتي إليَّ الآن!

قال "أودو":

- لم تحدث مثل هذه الحالات حتى الآن.. المسلمون، بالطبع، يتصرفون بعدوانية في بعض الأماكن، ولكن في غالب الأمر على بعضهم البعض، وليس على المسيحيين،

وتحدث الصراعات أساسًا بين المغول والعرب في شكل اشتباكات صغيرة حول مسائل محلية.. لا تقلق، رئيس جهاز المخابرات لم يخدعك، لا أحد يذبح المسيحيين، على الأقل ليس حتى الآن.

فقال "أوربانوس" مترددًا:

- إذًا، لماذا تلك الأيقونات؟

- يجب أن تُعلق تلك الأيقونات في الكنائس في جميع أنحاء أوروبا، نريد أن يهتم المؤمنون بها، يدرسونها ويعبِّرون عن غضبهم في أثناء القداس.. ألم تغضب أنت عند سماعك عن ذبح المسيحيين؟ فأنت، مع امتلاكك لواحدة من أقوى شبكات الاستخبارات في العالم وإبلاغك حتى عن أصغر الأحداث التي تجرى في البلدان البعيدة، صدقت كلماتي.. سوف يكون تأثير الأيقونات عظيمًا على بسطاء الناس عديمي الإدراك.

فقطع "أوربانوس الثاني" الغرفة ذهابًا وإيابًا، فحتى بعد أن أكد له "أودو" أن كلماته لم تكن حقيقية، لم يستطع أن يتخلص من غضبه:

- أنا لا أفهم الغرض من ذلك.. كنا قد اتفقنا على أننا ما زلنا بحاجة إلى مناقشة فكرة الحرب المقدسة، أليس كذلك؟ لقد وعدتني بأنك ستقوم ببحث الأمر باستفاضة وتقديم تقرير لي.. نحن لم نحسم بعد مسألة الحرب، ولكنك بدأت بالفعل في نشر الكراهية من خلال الأيقونات الكنسية.

- لا تعارض بين الاثنتين، سوف توضع الأيقونات في الكنائس لمدة شهرين فقط، هذا عمل تحضيري، فلو اتخذنا قرارًا بعدم بدء الحرب، سنقوم بإزالة الصور من الكنائس، وسيتم نسيان هذا الموضوع في غضون أيام قليلة، ولكن إذا قررنا الذهاب إلى الحرب، نكون قد وضعنا بالفعل الأساس، ولن يبقى إلا تنظيم وتوجيه الغضب إلى ما نصبو إليه.

كان البابا لا يزال منفعلًا.

- على أي حال، لا أستسيغ أن تعمل بعيدًا عن أمري ودون معرفتي.

- حسنًا، اسمح لي أن أسألك: إذا كان لديك أي شكوك أن الحرب ضرورية، لماذا تدرس خريطة العالم الإسلامي؟ ولماذا أمرت تحضير خمس نسخ من تلك الخريطة؟

- حرب أو لا حرب، يلزم عليَّ دراسة الخرائط والمعلومات المتاحة، وأنا لن أبلغك عن كل خطوة أقوم بها.. أنت تتخطى حدودك.. نعم، أنا أدرس الأمر، ولكن هذا لا يعني شيئًا حتى الآن، أنا أفعل ذلك كي أفهم مدى جنون وحماقة مشروعك.

فرد "أودو":

- على نحو مماثل، تعليق بعض الأيقونات الإضافية في بعض الكنائس لا يعني شيئًا في هذه المرحلة.. يمكننا إزالتها في أي وقت.

عاد "أوربانوس" ينظر إلى الخريطة، يدرسها، وقال:

- هناك أماكن وعرة، لا أستطيع أن أتخيل كيف سيتمكن الجيش من اجتيازها.

فرد "أودو" بسخرية:

- ليس عليك أن تتخيل، ما يهمنا حقًا هو أن يصل الجيش إلى القسطنطينية، وبعد ذلك، فإن توجيه الجيش إلى الأرض المقدسة بالطرق الصحيحة هي مهمة "الإمبراطور ألكسندر".. إنه حليفنا الوحيد في الشرق، وبعد انتهاء العمليات القتالية، سوف يكون في موقف قوي جدًّا، إن طرد المسلمين من الأرض المقدسة سوف تزيد سلطته في المنطقة؛ فبطريقة أو أخرى، فإن كل المدن المحررة سوف تنحني لـ"ألكسندر" وتصبح تحت سيطرة "بيزنطة".

- أنت تتحدث كما لو أننا نقوم بهذه الحملة من أجل "ألكسندر"، إن طرد المسلمين سوف يعزز، في واقع الأمر، موقفنا نحن في الشرق، فلو وافقت على الحرب المقدسة، يا "أودو"، فسيكون هذا من أجل أن تنتشر المسيحية، دين الله الحق، في الشرق.

علَّق "أودو" ساخرًا:

- انتشار المسيحية أم السلطة البابوية؟ لا فرق بينهما! إن انتشار سلطتك لن يتم إلا بواسطة "ألكسندر"، سوف يزداد الإمبراطور قوة، نعم، ولكننا أيضًا سوف نعزز نفوذنا في الشرق، وعلى كل، ليس لدينا بديلٌ آخر.

اتجه "أوربانوس الثاني" إلى النافذة.. المنظر جميل.. حديقة القصر تملؤها الزهور العطرة المتعددة الألوان.. حقًا إن كل شيء يخلقه الله بديع مبارك.

- بالنسبة لي، من المهم نشر تعاليم المسيح في الشرق.. أريد أن أحضر نور الله إلى أولئك الذين يقبعون في الظلام.

لم يستمع "أودو" إلى البابا، حيث كان منشغلًا بالنظر إلى الخرائط الملقاة على المكتب، يقيس المسافات بمسطرة، ويتمتم بعض الكلمات لنفسه.

قال "أوربانوس" راجعًا من النافذة:

- في النهاية، ما هي مهمتي؟ إنها حماية الرعية من الشر ومن الشيطان، لقد أمرنا المسيح بذلك: "أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ لَهُ مِئَةُ خَرُوفٍ، وَأَضَاعَ وَاحِدًا مِنْهَا، أَلاَ يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَيَذْهَبَ لأَجْلِ الضَّالِّ حَتَّى يَجِدَهُ؟" سوف نعطي غير المؤمنين فرصة الدخول في الدين الحق.

فابتسم "أودو" ابتسامة ذات مغزى:

- بالطبع، وبجميع الطرق الممكنة.

سأله البابا:

- هل كنت ترغب في إبلاغي عن شيء ما؟

أخرج "أودو" بعض الأوراق من حقيبته، ورتبها على المكتب.

- أود أن أؤكد أولًا، إنه حتى الآن لم يقم أحد بدراسة مستفيضة للرأي العام في أي مكان، وبطبيعة الحال، فقد استخلصت منهج البحث من بعض الكتب الموجودة في كاتدرائية "نوتردام" في باريس، بما في ذلك كتاب يُدرس "الهرمسية"، ولكنني أضفتُ أيضًا بعض العناصر الدقيقة، والتي لم يسبق تطبيقها من قبل وهكذا أصبح المنهج كاملًا، لقد حاولت تكييف المنهج لوضعنا.. إن الأيقونات التي تصور الفظائع الإسلامية هي نتائج البحث الذي تم إجراؤه على عدة مراحل، وحاولتُ أولًا أن أستشعر المزاج العام في ألمانيا وفرنسا من خلال المبشرين وأصحاب حانات وتجار التجزئة ومصففي الشعر، وقد اتضح أن هذا إجراء "لوغارتمي" معقد تمامًا، لا أريد أن أزعجك بتفاصيل رياضية لا لزوم لها، لكنني أستطيع أن أقول إن مناطق البحث كانت كبيرة وكذلك عدد المشاركين، من أجل توضيح الأمور بأكثر قدر من الشمولية والدقة، وممَّا ساعد في نجاح البحث استفادتي من مصدر كنسي موثوق به جدًّا، أي اعترافات المؤمنين بخطاياهم! فالآلاف الناس يعترفون بخطاياهم كل يوم.

بدا البابا مُندهشًا.

- "أودو"، آمل أنك لم تنسَ سرية الاعتراف.

- لا بالطبع لا.. لا تقلق، ستظل الاعترافات سرية، تمامًا كما هي دائمًا، ولن يجرؤ أحد على انتهاك مبدأ سرية الاعتراف، ولكن بغض النظر عن دلالته الدينية؛ فإن الاعتراف هو حوار صادق للغاية بين الشخص الذي يعترف بخطاياه، والكاهن الذي يستمع إليه ويوجه له الأسئلة حتى يستطيع أن يرشده نحو الطريق القويم، لقد اخترت مجموعة من الأسئلة وضمنتها في أسئلة الكهان ومن أجوبة الناس حصلت على الصورة الحقيقية للرأي العام!

أخذ "أودو" واحدة من أوراقه وقرأ:

- غالبية الجمهور غير راضين عن تحمُّل عبء ضرائب الدولة، والرتابة والتعب في حياتهم، وعدم وجود التسلية والترفيه، وقد أدى هذا السخط إلى زيادة عدد الذاهبين إلى الكنيسة، وفي الوقت نفسه، وقد يبدو الأمر غريبًا، إلى زيادة في الابتعاد عن الإيمان، ومعظم الناس يذهبون إلى الكنيسة لا بوازع روحي أو ديني، ولكن لأنهم لا يعرفون وسيلة أخرى لقضاء أوقات فراغهم؛ فالناس يدفعون الضرائب للكنيسة ثم يشعرون بأنهم ملزمون بالحضور، تمامًا كما لو كانوا ذاهبين لمشاهدة عرض مسرحي بعد دفع رسوم الدخول، وقد زاد في ألمانيا عدد المعارض التي تتحول في الواقع إلى حلقات من السكر الجماعي، والناس يميلون إلى إظهار قوتهم ومهارتهم القتالية، الأمر الذي يؤدي عادة إلى شجار جماعي في نهاية المطاف، للأسف تسمح الكنيسة بحدوث هذا، وتتحول تلك المعارض إلى خليط من العنف والمرح.

فسأله البابا متشككًا:

- ماذا تعني، يا "أودو"؟ هل تقصد أن الناس لا يذهبون إلى الكنيسة بدافع الحب والإيمان؟

- إن الحب والإيمان قد قلا في قلوب الشعب، وللكنيسة مسئولية في ذلك؛ لأن الكنيسة ليست مجرد مبنى، والشعب هو الذي يقيم الكنيسة؛ فبدون مؤمنين تفقد الكنائس رونقها حتى لو شُيدت بالذهب، وبالناس تبقى الكنيسة على قيد الحياة وتموت بدونهم.. هذه الملاحظة، بطبيعة الحال، لا علاقة لها مع نتائج أبحاثنا، ولكنها ليست أقل أهمية.. الكنيسة نفسها بحاجة إلى الإصلاح، ولكن لنرجع إلى موضوعنا الأصلي، ووفقًا للرأي العام، يمكن تنفيذ الحملة الصليبية بنجاح إذا تم الوفاء بتوقعات المجتمع.

واستكمل "أودو" حديثه بعد أن وضع ورقة على مكتب البابا:

- متطلبات المجتمع هي: هدايا مادية وروحية، تُعطى في بداية الحملة إلى المشاركين فيها، ووعد بهدايا إضافية في المستقبل، للحفاظ على معنويات المشاركين؛ فالحملة قد تستمر لسنوات عديدة، إذا تم الاستجابة لهذه المتطلبات، يكون لنا حركة شعبية تساعدنا في تنفيذ حملتنا إلى الشرق، وبسط سلطتك في تلك المنطقة.

أخذ "أوربانوس الثاني" الورقة وبدأ في دراستها بعناية، لم تكن حجج "أودو" تعني الكثير له، فهذه هي الخطوة الأولى فقط، وسوف تأتي الحلول في وقت لاحق.

كان البابا قد اعتاد على حب "أودو"؛ لتقديم مثل هذه الخطط الكبرى في تقاريره.. قال له:

- دعني أذكرك بأن هدف الحملة ليس بسط سلطتي، بل نشر نور المسيحية في الشرق.

- دعني أذكرك أنا أيضًا بأن المسيحية، التي تطمح إلى انتشارها في الشرق، في الواقع نشأت هناك ثم جاءت إلينا، ربما كنت قد نسيت، ولكن خطتنا هي استرداد التراث التاريخي الغني للمسيحية، كنيسة القيامة والمناطق المقدسة الأخرى من أيدي الكفار المسلمين، لذلك ربما كان من المبكر جدًّا الحديث عن نشر نور المسيحية هناك.

لم يُلقِ "أوربانوس" اهتمامًا لتعليق "أودو" الأخير، هو يفكر في النقاط التي عرضها عليه سابقًا، وكان "أوربانوس" مقتنعًا بأن "أودو" قد قام بالفعل بدراسة جميع الخطوات التالية، وأن له نهجًا خاصًا به، وكان "أودو" يريد كسب الوقت، حيث أراد من "أوربانوس" أن يسأله عن خطواته القادمة، فيشرع هو في تقديم حلوله التي يرى أنها رائعة.

- أعتقد أن لديك بالفعل بعض الحلول، ألا تقدمها؟ ماذا لديك من اقتراحات؟

شعر "أودو" بالإطراء وابتسم.. هو بالفعل قد فكَّر في الحلول ورسم خطة كاملة قبل قدومه إلى البابا، فهو لم يُجرِ أبحاثه لمجرد التسلية!

- النقطة الأولى هي الهدية المادية، أعتقد أننا بحاجة إلى إعفاء المشاركين في الحملة من دفع الضرائب والرسوم والغرامات؛ فالضرائب عبء ثقيل جدًّا، وتخفيف هذا العبء من على عاتق الناس عن طريق إعطائهم جائزة مادية مشجعة سوف تحفزهم على الانخراط في مشروعنا.. كثير من الناس لديهم مشكلات في دفع الضرائب، وسوف يفرحهم هذا الخبر، وهذه فرصة أن ننفذ ما جاء في الصلاة الربانية: "واغفر لنا ديوننا، كما نغفر نحن أيضًا للمدينين لنا".. كمية الضرائب غير المدفوعة سوف تبدو كبيرة في البداية، ولكن فقط في البداية، سأعود إلى تسوية المسائل المالية في أثناء تناولي للنقاط الأخرى.

النقطة التالية هي الهدية الروحية، ينبغي ضمان المشاركين في الحملة دخول الجنة كجائزة مستحقة؛ فالاستشهاد الأعظم هو في سبيل تحرير قبر الرب وكنيسة القيامة، أعتقد أنهم يستحقون أن يُغفر لهم جميع ذنوبهم بمنشور بابوي خاص، حتى يقفوا أمام حكم الله بنفوس نقية.. إن الله يحب أن يستشهد المؤمنين واسمه المبارك على شفاههم.

فقال "أوربانوس":

- أتفق مع النقطتين الأوليتين مع بعض التحفظات؛ فبادئ ذي بدء، أريدك أن تخبرني بمصادر مالية بديلة للضرائب؛ لأن الإعفاء منها سوف يسبب نقصًا فظيعًا في نظام مالي ليس أصلًا في أفضل حالاته، ولدينا العديد من الخطط المستقبلية، وكلها تتطلب موارد مالية ضخمة.

إن الخزانة البابوية سوف تصبح خاوية تمامًا في غضون أشهر قليلة، وأنا لا أرى أي مشكلات في مغفرة الخطايا، ولكن في قضية الضرائب آمل أن تكون قد فكرت فعلًا في حلول حاسمة.

ابتسامات "أودو" لا تنتهي.. قال:

- بالطبع لديَّ حلول حاسمة، وهل سآتي إليك وأقترح خطة غير مكتملة؟ أتينا إلى النقطة الثالثة: المكافآت المادية التي سوف نقدمها للمشاركين في الحملة المقدسة سيتم جمعها خلال الحملة.. مدن الشرق غنية، ومليئة بالذهب والفضة وغيرها من الكنوز.

إن كنوز المدينة المحررة سوف تُصرف فورًا للحجاج، سوف تصبح من ممتلكات الحجاج، ولأن الكنيسة هي راعية الحج، سوف تفرض على الحجاج رسومًا بنسبة عشرين في المئة من الغنائم التي حصلوا عليها، وسيتم فرض رسوم منفصلة على القائد الذي قام بتحرير المدينة، وهذه المبالغ، في تقديري، ستكون عدة مرات أكبر من الضرائب التي نتلقاها حاليًا من الناس بالضغط عليهم وقمعهم، هكذا، وبعد بداية الحملة الصليبية المقدسة، لن تنخفض مواردنا المالية، بل سوف تزداد.

إن إيرادات الخزانة البابوية سوف تزيد عدة مرات، وبهذه الطريقة سوف تُحل أيضًا مشكلة إضفاء الشرعية على النهب، فسوف يطمئن الناس أن نهب عدوهم ليست بالخطيئة.

- حسنًا، دعنا نفترض أن خطتك معقولة.. كيف ستتم إدارة العملية برمتها؟

فأجاب "أودو" بسرعة:

- بكل بساطة!

وأضاف:

- إن الحملة المقدسة سوف تكون تحت إشراف مبعوث البابا الخاص، وهو الذي سوف يقوم بإدارة الجانب الروحي ومراقبة المعاملات المالية، ويمكنك تعيين أحد الكهان من الذين تثق فيهم في هذا المنصب، ويمكنك أن تُرَسِمه أسقفًا لو أن رتبته الكنسية ليست عالية.. كل شيء في يدك.

- والنقطة الرابعة؟

- النقطة الرابعة تتعلق بالهدية المادية التي سوف يحصل عليها الشخص في المستقبل؛ فالحملة الصليبية مشروع خطير جدًّا، وسوف يفشل الكثيرون في الوصول إلى النهاية.. سوف يموتون في المعارك، أو من الأمراض، أو من الحوادث، من المهم أن يثق الجميع أنه حتى لو ماتوا خلال الحملة، وقبل تحقيق النصر، سوف تذهب أرواحهم إلى السماء.. هذا هو الوعد الذي سيرافقهم خلال الحملة بأكملها، وهذه الثقة هي التي ستحفز الناس على القيام بأعمال جسورة، هذا كل شيء.. لقد أنهيت كلامي.

استغرق "أوربانوس الثاني" في أفكاره.. من الواضح أن "أودو" قد خطط جيدًا للحملة المقدسة، بطبيعة الحال، فإن نجاح مثل هذا المشروع يعتمد إلى حد كبير- إن لم يكن كليًّا - على بركة الله، ولكن خطة "أودو" كانت تشمل كل الاحتمالات ولا شك في نجاحها.

ومع ذلك، كان البابا يشعر أن المسئولية جسيمة، لم يقم أحد قبله بمثل هذه الحملة.. بالطبع، كانت هناك حالات كثيرة في التاريخ يشارك فيها الجيش البابوي، ولكن لم يخاطر أي بابا في شن حملة عسكرية بهذه الضخامة بمفرده، على الرغم من أن "أودو" كان يسمى الحملة حجًا، وأنهم سوف يعتمدون على حماسة المؤمنين، وليس على جيش مهني.

كان "أوربانوس" يقدِّر مثابرة "أودو" وحرصه على تضمين كل التفاصيل، ولكنه يدرك أيضًا أن مسئولية الحملة تقع فقط على كتفيه هو، وفجأة تذكر شيئًا وظهر العبوس على وجهه.. أخذ الأوراق الملقاة على مكتبه، وأمعن النظر فيها مرة أخرى، وأخيرًا، رافعًا رأسه من الأوراق، قال:

- يا "أودو"، العمل الذي قمت به مهم جدًّا، ليس هناك شك في ذلك، قد تكون خطتك فعالة جدًّا، وأعتقد أنك قضيت الكثير من الوقت، وصرفت الكثير من المال لكي تنجح، ومع ذلك، وعلى الرغم من أنك لست من رجال الدين، أعتقد أنك تعرف الوصايا العشر.. هل تذكر الوصية السادسة؟

فرد "أودو":

- بالطبع.. "لا تقتل".

- نعم.. "لا تقتل"، إذًا كيف تبرر دعوتك لرئيس الكنيسة بأن ينتهك الوصية السادسة لله؟

فاسترسل "أودو":

- "أوربانوس"، نحن على وشك أن نبدأ مشروعًا عالميًا، فكيف تفكر في أتفه العقبات؟ بالطبع، لم أهمل ذلك الأمر، نعم نحن بحاجة إلى الوصايا، ولكن البعض منها مثيرة للجدل.. قبل الإجابة على سؤالك، لديَّ سؤال أيضًا، وأنا متأكد من أنك تعرف الوصية التاسعة، التي تقول: "لا تعطي شهادة كاذبة ضد جارك".. أولًا، تبدو هذه الوصية وكأنها جديرة بالثناء، وحقًا، كيف يمكن لأي شخص إعطاء شهادة كاذبة ضد جيرانه؟ ولكن هنا يُطرح سؤال: إذا كانت إعطاء شهادة كاذبة ضد الجار غير مقبولة، وهذا مكتوب في الكتاب المقدس، هل نستطيع أن نفترض أنك يمكنك أن تعطى شهادة كاذبة ضد شخص ليس جارك؟

اعترض "أوربانوس" قائلًا:

- لا يوجد شيء من هذا القبيل في الكتاب المقدس.

- بالطبع لا يوجد، هذا ما أقوله.. الوصية تحرِّم عليك أن تعطى شهادة كاذبة ضد جارك، في حين أنها لا تحرِّم عليك إعطاء شهادة كاذبة ضد شخص يعيش على بعد قريتين، إذا كان ذلك ممنوعًا، كانت الوصية قد حظرت الشهادة الزور على الإطلاق وليس ضد الجار فقط، ويتضح من ذلك أن الشهادة الكاذبة في حد ذاتها ليست ممنوعة، الله يحرم فقط أن تستخدمها ضد الجار، ولدى الإنسان مطلق الحرية في أن يشهد زورًا ضد الآخرين.

- دعنا لا نخرج من الموضوع.. يُرجى الإجابة عن السؤال المتعلق بعدم الامتثال للوصية السادسة، وهي في هذه الحالة واضحة جلية: "لا تقتل".. كيف يمكنني، كرئيس الكنيسة المسيحية، خليفة القديس بطرس على الأرض، أنا الحبر الأعظم، أن أدعو المؤمنين لمخالفة وصية الله السادسة، بوصف الحملة العسكرية بالمهمة المقدسة.. نعم، لا أستطيع أن أنكر أن الكرسي البابوي قد دعم بعض الحروب بطريقة أو بأخرى، ولكن أبدًا لم تأخذ الكنيسة زمام المبادرة لبدء حرب واسعة النطاق، والأسوأ من ذلك، أن توافق على عمليات قتل حربية، وما تقوله مثير جدًّا للاهتمام ومُغرٍ، لكنه يتعارض مع القيم المسيحية.

إن المسيحي لا يمكن أن يحصل على نعمة الكنيسة بارتكاب جريمة قتل.

- الناس يَقتلون دائمًا ويُقتلون، وسوف يستمرون في ذلك، بغض النظر عن موافقة أو رفض الكنيسة.. الناس يقتلون الحيوانات والطيور في أثناء الصيد، يقتلون بسبب الجوع، ولا يفكرون في الوصية السادسة وهم يقتلون.. أنت، يا "أوربانوس"، أنت رئيس الكنيسة المسيحية، أكلت طائر الحجل الذي قُتل بالأمس.. نعم، أنت لم تقتل بشخصك، ولكنك أصبحت جزءًا من القتل.

- مثال الحيوانات والطيور لا جدوى منه، والوصية السادسة تنطبق على الناس، وليس على الأبقار أو الدجاج.

- ومن قال إن هذه الوصية تنطبق فقط على الناس؟ لم يتم تحديد الأمر في الوصية، وفي الوصية التاسعة الأمر واضح: "لا تشهد زورًا ضد جارك"، لكن التحديد غائب في الوصية السادسة.. هل بإمكانك أن تخبرني من هو المقصود بعدم قتله؟

- لا أعتقد أن هناك حاجة لتوضيح الوصية السادسة.

- بالعكس، هذه الوصية بالذات تحتاج للتوضيح، وأعتقد أن مسئولية توضيح هذه الوصية تقع على عاتقك أنت، لكونك خليفة القديس بطرس على الأرض.

إن تفسير كلمة لله الحية هو المهمة الرئيسية للكنيسة، الأمر غامض في الوصية السادسة وعلينا أن نضع حدًّا لهذا الغموض، فكما أسلفت، يبدو أنه لا يوجد اعتراض على قتل الحيوانات والطيور، هم مخلوقات تفتقر إلى التفكير، حياتهم خالية من الغرض والروحانية، ويمكنك أن تصطاد الأسماك ثم تقليها وتأكلها دون شعور بالذنب، لأن الأمر لن يُعتبر جريمة قتل، وبالمناسبة، دعني أذكرك بأن القديس بطرس كان صيادًا أيضًا.

اقترب "أودو" من نافذة الغرفة.. كان وقت الغروب، وقد اندمجت أشعة الشمس الحمراء في ألوان زهور الحديقة، مما زاد من جمالها.. تأمل "أودو" المنظر البديع، ثم استأنف محاولة إقناع البابا بخطته، وهو يعلم تمامًا أن "أوربانوس" لن يوافق بسهولة.

قال "أودو":

- هل يمكنك أن توضح لي الفرق بين الحيوانات والكفار؟ فالإنسان هو إنسان بقدر درجة قربه من الله.. ما معنى حياة الكافر؟ ما الفرق بين غير المؤمنين على الأرض والأسماك في البحر التي كان القديس بطرس يصطادها؟.. سأجيب لك: لا يوجد فرق!

استمع "أوربانوس" إلى "أودو" وشعر بالحرج الشديد، وكان "أودو" بالنسبة له الرجل العلماني البعيد كل البعد عن علم اللاهوت، ولكن ها هو مستشاره يظهر بحججه المضادة، وللمرة الأولى، معرفته العميقة بعلم اللاهوت.

واستكمل "أودو" مرافعته:

- لا ينبغي أن تكون الوصية السادسة "لا تقتل"، ولكن "لا تقتل المسيحيين".. فقط قتل رجل مسيحي يمكن اعتباره خطيئة، أمَّا قتل كافر مسلم أو وثني هو ضرورة قصوى، وليس جريمة قتل، وخاصة عندما يتعلق الأمر بتحرير الأرض المقدسة، وهذه الضرورة أكبر من تلك التي تُحدثها الجوع الذي يدفع الإنسان لقتل الحيوانات والطيور والأسماك.. أنا، كمسيحي، أفضل الموت جوعًا على تقبّل الوضع الحالي.. أنا أرفض ترك قبر الرب في أيدي الكفار حتى يتمكنوا من الاستمرار في تدنيس الأماكن المسيحية المقدسة.

لم يعرف "أوربانوس" ماذا يقول؛ فكلمات "أودو" تتضح عن حقيقة، ومن الصعب العثور على حجة مضادة تفندها، رغمًا عن "أوربانوس" كان "أودو" على حق! إن الوصايا المذكورة في الكتاب المقدس لا شأن لها إلا بمن يؤمن بهذا الكتاب، ولأن غير المؤمنين، وعلى عكس الحيوانات، قد ابتعدوا عن الله من تلقاء أنفسهم وبمحض إرادتهم، يجب اعتبارهم أعداء الله.. يُضاف إلى ذلك أنهم يحتلون الأرض المقدسة، وأيًا كان اعتراض "أوربانوس" الآن، فإنه سيظهر وكأنه يدافع عن الكفار! ولذلك قال:

- نعم، تفسيري للوصية السادسة: لا تقتل مسيحيًّا!

(9)
حجاج "أوربانوس الثاني"

أوروبا.. 1095م

بعد القداس مباشرة، بدأ النقاش بين الإقطاعيين الأرستقراطيين، كل واحد منهم يحاول أن يقرر مدى وشكل مشاركته في الحملة المقدسة.. الفارس النبيل أعطى "مارك" مجموعة من الأوراق وأمره أن يأخذها على الفور إلى ألمانيا، موضحًا أنها تحتوي على خطبة البابا "أوربانوس الثاني"، والتي تم تسليمها في آخر القداس، وقال إنه من الضروري نقل رسالة الخطبة لسكّان جميع المدن والقرى الألمانية.

أخذ "مارك" الأوراق، وقد أعطاه الفارس البخيل مبلغًا صغيرًا أيضًا لتغطية نفقات السفر، سرج "مارك" الحصان الأقوى تحملًا، واتجه شمالًا إلى ألمانيا.

ولسوء الحظ، نفدت أمواله قبل وصوله إلى وجهته.. دخل "مارك" واحدة من الحانات وجيوبه فارغة تمامًا وليس لديه فكرة كيف يخرج من هذا المأزق، جلس على إحدى الموائد، طلب النبيذ، وحاول أن يستريح قليلًا.. كانت الحانة مليئة بالناس وصاخبة الأجواء، وبعد مرور بعض الوقت، اقترب رجل من "مارك" وجلس على مائدته دون استئذان.

قال الرجل:

- إنه أمر مثير للاهتمام.. أليس كذلك؟

رد "مارك" على مضضٍ:

- ماذا تعني؟

تفحص "مارك" إلى الغريب من الرأس إلى أخمص القدمين، وكان رجلًا متوسط الطول، وذا لحية وعينين زرقاوين، يبدو عليه أنه واسع الحيلة، داهية.

- أعني كل هذه الفوضى، يبدو أن الجميع قد مسهم الجنون.. إنهم يريدون الذهاب وتحرير الأرض المقدسة من غير المؤمنين، إنهم يغادرون منازلهم وينتقلون إلى أورشاليم، ألا تجد هذا غريبًا؟

"يجب أن أكون حذرًا"، هكذا فكر "مارك"، كان قد سمع أن الحانات مليئة بعملاء البابا السريين، والذين كانوا يبحثون عن الخونة لاعتقالهم وسجنهم.

وقال "مارك":

- لا أرى شيئًا غريبًا.. الناس يحبون البابا "أوربانوس" ويذهبون إلى الحرب المقدسة إطاعة لكلمته، وكان علينا أن نسترد قبر الرب من قبضة الكفار منذ فترة طويلة؛ فالصلاة في كنيسة القيامة حق لكل المسيحيين، محبي الكتاب المقدس.

- من الجيد أن يطيع الناس كلمات البابا، ولكن في ألمانيا يطيع الناس أي أحد يقول أي شيء.. إن الأوغاد واللصوص والمشردين يحصلون على السلطة بهذه الطريقة، وفي الآونة الأخيرة كانت بطة تقود حشدًا من الناس.

فاندهش "مارك" وتساءل:

- بطة؟ كيف يمكن للبط قيادة حشد من الناس؟

- إن قيادة حشد من الناس أسهل من قيادة فرد واحد، الأصعب من ذلك قيادة أشخاص متفرقين، وفي بعض الأحيان قد يكون لحشد من الناس درجة غباء تُمكن حتى البطة من قيادته.

- ولكن كيف؟ لا بدَّ من أنك تمزح.

- على الإطلاق.. كان حشد من الناس قد قرروا أنهم إذا سلموا إرادتهم إلى طائر لا يفقه شيئًا، سوف يسهلون إرشاد الرب لهم من خلال البط، وفي هذه الحالة لعبت البطة دور الوسيط بين الله والشعب، ولكن هنا يُطرح سؤال: من كان أكثر فقدانًا للوعي، البطة أم الناس الذين تبعونها، معتقدين أن ذلك يسهل المهمة الإلهية؟

وتساءل "مارك":

- وماذا فعلت البطة القائدة؟

- كانت البطة تقفز يمينًا ويسارًا وكان الناس يتبعونها في كل مكان، وبدأ الحشد يقتلون سكان أي مكان تدخله البطة، مدعين أنها إرادة الله، وقطع الحشد الذي تقوده البطة مئات الأميال حتى لقي نحو 4 آلاف شخص مصرعهم في مشاجرة كبيرة في إحدى البلدات، والذين نجوا منها طردوا من البلدة، ومعهم البطة.

قال "مارك" بصراحة:

- نعم.. هذه أوقات صعبة.

كان "مارك" قد نسي القلق الذي اعتراه عند جلوس الرجل على مائدته.

وسأله الغريب:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فأجاب "مارك":

- أنا مسافر إلى ألمانيا، إلى الشمال.

ابتسم الغريب:

- أنت أيضًا غريب! الجميع يذهب إلى الجنوب الآن، إلى الأرض المقدسة، بينما أنت تسير في الاتجاه المعاكس!

قال "مارك" هامسًا:

- لديَّ أشياء مهمة يجب على القيام بها.

علَّق الغريب:

- لدينا جميعًا أشياء مهمة يجب علينا القيام بها.

أخذ "مارك" كوب النبيذ، فشربه إلى آخر قطرة، وتنهد، وتذكر أنه ليس لديه المال لدفع ثمن النبيذ، وأنه كان من غير المجدي محاولة الاستمرار في مهمته.

قاطع الغريب أفكاره:

- هل الحصان الوضيع المربوط في الحظيرة ملكك؟

- نعم.. إنه حصانُ سيدي، ولماذا تسميه حصانًا وضيعًا؟ هل تعرف ثمنه؟ ربما لم يسبق لك أن رأيت مثل ذلك المال حتى في أحلامك!

ابتسم الغريب وهو يقول:

- حسنًا، بالطبع كل ذلك يعتمد على صحة الحصان، وما إذا كان يحصل على حصة كافية من النوم أم لا، فلتبِعْ لي الحصان.

فوجئ "مارك" بالعرض.. يبيع حصان سيده؟

- سوف تقول لسيدك إن الحصان سُرق في الطريق، نحن نواجه أوقاتًا صعبة الآن، وهذا أمر وارد الحدوث.. ماذا سيفعل سيدك؟ هل سيجلدك؟ سوف تعطيه المال بدلًا من الحصان.

- وكيف أواصل أنا طريقي؟

فأضاف الغريب:

- لقد اقتربت من ألمانيا، أستطيع أن أعطيك حمارًا، والحمار أفضل من الحصان، حيث إن راكبه لا يجذب الانتباه.. تذكر، نحن نواجه أوقاتًا مقلقة واللصوص في كل مكان، ولو كانوا لصوصًا عاديين، لكانوا قد تسببوا في نصف المتاعب فقط، ولكن هؤلاء اللصوص يعتقدون أنهم يحققون إرادة الله.. ليس هناك شيء أكثر خطورة من ذلك؛ فالشخص الأكثر خطورة هو السارق الذي يعتقد أنه يفعل ما يفعل بمباركة الرب.

أخذ "مارك" يفكر.. كان الغريب على حق، إن النبيل لن يستطيع أن يؤذيه.. في أصعب الفروض، قد يجلده، وهو في الوقت الراهن يحتاج إلى المال كما يحتاج إلى الهواء والماء، وكان "مارك" قد لاحظ أيضًا أنه كلما اقترب من وجهته، زادت غرابة الأشخاص الذين يقابلهم، حتى عابرو السبيل أكثر عدوانيةً.

كانت هناك برودة غريبة وقسوة في أعين الناس، وبطبيعة الحال، إذا قرر شخص ما الاستيلاء على حصانه وقتله، سوف ينجز فورًا ما يعتقد أنه وحي من عند الله.

أدرك "مارك" أن شخصًا ما سوف يفكر في قتله والاستيلاء على حصانه عاجلًا أم آجلًا، وعلى أي حالٍ، لا يمكن أن يتوقع أي شيء جيد من أناس يطيعون بطة.

تأوه الغريب متكاسلا، كأنه لا يهتم كثيرًا بما قد يقرره "مارك".

قال "مارك":

- وكم سوف تعطيني مقابل الحصان؟

- حسنًا، 30 قطعة ذهبية هو الحد الأقصى الذي يمكنني تقديمه، وهذا مع الأخذ في الاعتبار الحالة البائسة التي أنت فيها الآن!

- ثلاثون قطعة من الذهب؟

صرخ "مارك" متسائلًا في غضب.

فصاح الغريب ناظرًا حوله في خوف:

- أغلق فمك!

- هل تريد جذب اهتمام لا لزوم له إلينا؟ إن اللصوص والنهابين حولنا في كل مكان، وإذا سمعنا أحدهم نتحدث عن الذهب، فسوف يكون مصيرنا القتل أنا وأنت على حد سواء.

- حسنًا، إن عرضك مثيرٌ للشفقة إلى حد ما.. في الأسبوع الماضي دفعت خمس قطع من الذهب لمجرد تجهيز الحصان، بالإضافة إلى سبع قطع من الذهب للسرج، وأنت الآن تقدم لي 30 قطعة من الذهب لا غير في مقابل الحصان كله؟!

- الحد الأقصى هو 40، وفي الوقت الحاضر لن تجد أي شخص يدفع أكثر من ذلك.. أربعون قطعة من الذهب وحمار أيضًا! فكر في الأمر، سوف تنفق 20 قطعة في طريقك إلى ألمانيا والعودة منها، فتتبقى لك 20 قطعة يمكنك أن تحتفظ بها، وسوف أدفع أيضًا ثمن النبيذ الذي تشربه في مقابل هذا الحديث الشيق بيننا، أي شخص آخر سوف يستولي على الحصان دون أن يدفع لك أي شيء.

في نظر "مارك"، فإن 40 قطعة من الذهب مبلغ كبير جدًّا، وسوف يقول لسيده إنه سُرق في الطريق ويحتفظ بالحمار لنفسه.

نادى "مارك" النادل:

- أريد المزيد من النبيذ!

ثم اتلفت للغريب:

- قلتَ إنك سوف تدفع ثمن النبيذ.. أليس كذلك؟

لم يجبه الغريب وإنما ابتسم ابتسامة باهتة.

في الصباح، سرج "مارك" الحمار، وحمَّله بالمؤن، وبعد نظرة أخيرة على حصانه المربوط في الحظيرة، استأنف رحلته إلى الشمال.

لاحظ "مارك" وهو يمر من بلدات مختلفة، أن الناس يخرجون إلى الشارع ويحدقون في وجهه، لم يستطع "مارك" فهم سبب اهتمامهم به.. هل السبب لحيته

الطويلة، التي تجعله يبدو كالهمجي؟ أم أن منظر رجل ضخم على حمار يدعو إلى الدهشة؟ أم أن السبب ملابسه القذرة الممزقة، والتي كانت تختلف عن هندام سكان تلك البلدات؟ مهما كان السبب، شعر "مارك" أن الناس اختلط عليهم الأمر، لا يستقرون على رأي، هل يعاملونه كمتسول، أو تاجر تجزئة، أو أنه شخص يدَّعي أنه فارس من الفرسان (وهناك الكثير من هؤلاء) أو أنه نبي جاء لقيادتهم، انطلاقًا من ردود أفعال الناس، كانت الفرضية الأخيرة أكثر احتمالًا، كان الناس يرون مبعوثًا إلهيًّا في كل غريب.. إن مظهر رجل ملتح يدخل بلدتهم راكبًا حماره كان يخلق لديهم صورة نبي من الأنبياء خرج توًا من الكتاب المقدس، وفعلًا انتشرت الشائعات أن الرجل الراكب على الحمار كان ملاكًا من الملائكة، أرسله الله لتنفيذ كلمته.. كان يسافر من بلدة إلى بلدة في مهمة خاصة، هذا ما يعتقده الناس.

تضخمت شهرة "مارك"، فأصبح معروفًا حتى في المدن التي لم يصل إليها، وكان الناس يضعون ملابسهم في منتصف الطرق التي يمر بها كوسيلة للتواصل معه، لكن "مارك" لم يكن على علم بكل هذا، وكان اهتمامه الوحيد هو الوفاء بمهمة سيده بسرعة والعودة إلى فرنسا، وإنفاق أقل قدر من المال، ولهذا السبب لم يتوقف عند الحانات إلا للضرورة القصوى، على سبيل المثال شراء بعض المواد الغذائية الرخيصة أو قضاء ليلة في غرفة رخيصة؛ فسَّر الناس مظهر "مارك" البائس إلى الزهد الإلهي والتواضع، وتخطت الأساطير التي نُسِجت حوله حدود المنطق، وارتفعت إلى عالم المعجزات، واعتقد الناس أنه يمكنه أن يشفي أي مرض مُستعصٍ فقط بنظرة منه، لم يكن واضحًا إلى متى سوف تستمر شهرة "مارك"، ولكن في يوم من الأيام، عند مروره من مدينة من المدن، اعترضه بعض الغرباء.

ونادى عليه أحد كبار السن:

- مرحبًا "مارك".

توقف "مارك" وقد فاجأه سماع اسمه.

- مَنْ أنت وكيف تعرف اسمي؟

ربما سمعوا عنه من أحد الفنادق الرخيصة، حيث كان يمضي الليل.

- نحن نعرف من أنت وما المهمة التي أنت هنا من أجلها، نحن معجبون بك.. نستسمحك، ونحن نركع أمامك، أن تبقى في بلدتنا اليوم، وإذا قدت جيشنا الصغير إلى الأرض المقدسة، فسوف تنعم علينا بسعادة غامرة.

وبالفعل، ركع الرجال أمام الحمار، وأحنوا رءوسهم، منتظرين أن يتفضل "مارك" بالحديث إليهم.

شعر "مارك" بالحيرة، وكان من الواضح أنه تم الخلط بينه وبين شخص آخر.. هذه مقابلة لم يسبق لها مثيل، لم يكلمه أي شخص بهذا القدر من الخوف والتبجيل، أو أن يركع أمامه أو أمام حماره، وأخذ "مارك" يفكر، لماذا لا يستفيد من هذا؟ ليس لديه شيء يخسره.. تاه "مارك" في أوهام أهميته حتى نسي أين هو، وكان "مارك" من الطبقة الريفية الدنيا، لم يحلم أبدًا باحترام الناس له، والمخلوقات الوحيدة التي كان

يمارس سلطته عليها هي خيول سيده، حتى لو كان قد تم الخلط بينه وبين شخص آخر، قرر "مارك" المضي قدمًا في هذه اللعبة غير المنتظرة، حتى لو انتهى الأمر بكشف كذبه وجلب العار له.. "لا يهم، سوف أهرب بطريقة أو بأخرى".

تحدث "مارك" إليهم، وقد نفخ صدره بفخر وخيلاء:

- أولًا، لنرى مدى حفاوة استقبالكم لي، سوف نناقش قضايا قيادة الجيش والشئون الأخرى في وقت لاحق، أنا متعب من رحلتي؛ لنتوجه إلى حيث أستطيع أن أستريح قليلًا.

تبادل الرجال نظرات تنم على الرضا، وكانوا سعداء بأن شجاعتهم في تحية "مارك" قد أسفرت عن هذه النتيجة الإيجابية.. كان النقاش كبيرًا بين أعضاء مجالس البلدية قبل وصول "مارك"، واقترح البعض أنه من الأفضل أن يقتربوا من "مارك"، يتحدثون معه ويقدمون له طعامًا ومكانًا للراحة، ثم يطلبون منه أن يقود 500 من المجندين إلى أورشاليم؛ لتحرير قبر الرب وكنيسة القيامة، وكان آخرون أكثر حذرًا ولا يعتقدون أن مثل تلك المهمة ستجلب لهم أي خير، وزعموا أنه لا يجوز لهم التدخل في شئون الله، وأنه من الخطأ اللجوء إلى "مارك".

وكان الرجال المسنون الذين اقتربوا من "مارك" هم من المواطنين الشجعان الذين رأوا فيه قائدًا لجيشهم، وكانوا سعداء جدًّا أن "مارك"، بعد قليل فقط من الإقناع، قَبِل دعوتهم للبقاء في بلدتهم، هم يعرفون أن أعضاء المجلس الآخرين سوف يصيبهم الإحباط؛ لأنهم كانوا ضد فكرة التحدث إلى "مارك"، فزادت سعادتهم، وهكذا، وبرءوس مرتفعة، وجَّه المسنون حمار "مارك" لأكبر وأفضل حانة في البلدة، حيث جهزت مائدة وافرة بوجبات لذيذة ونبيذ أحمر راقٍ في غضون دقائق معدودة.

كان "مارك" مرهقًا من الرحلة، جائعًا، فانقض على الطعام على الفور، فاعتبر رفقاؤه هذا السلوك علامة رضا لا يستحقها مجتمعهم المتواضع، لم يجرؤ أحدهم أن يتناول شيئًا من الأطباق، انتظروا تعليمات "مارك" برءوس منحنية.

قال "مارك" قاطعًا الصمت:

- فلتأكلوا! لماذا تحقرون هدية الرب؟

فأذعن الرجال لأمره، وبعد العشاء، أراد "مارك" أن يستريح، وأن يرجئ الحديث حتى الغد، فاستجابوا لرغبته على الفور.

استلقى "مارك" على سريره، يحاول أن يحلل تلك التطورات العجيبة، وكان من الواضح أنهم يخلطون بينه وبين شخص آخر، لقد أطاعه الجميع، لكن من الواضح أيضًا أن لديهم بعض التوقعات منه.. أولًا وقبل كل شيء، بقدر ما فهم، كانوا يتوقعون منه أن يقود حجاج بلدتهم إلى الأرض المقدسة، لم يستطع "مارك" أن يتصور نفسه قائدًا، ولكن بعد التفكير في الأمر أدرك أنه ليس لديه ما يخسره، لم يكن له مرتبة عالية في المجتمع، لذلك فإن أي تغيير سوف يرفع من شأنه، وخصوصًا أن احتمال الجَلد لا يزال قائمًا من قبل سيده لفقدانه الحصان.

"ليكن كل شيء كما يجب أن يكون".. هكذا أفرغ "مارك" رأسه من الأفكار الثقيلة واستغرق على الفور في النوم.. في الواقع، كان مرهقًا لدرجة أنه فقد وعيه تمامًا، لم يستطع أن يتذكر آخر مرة كان قد استمتع بمثل هذا النوم العميق والهادئ، ولا حتى أن يتذكر آخر مرة قام فيها بتمديد جسده على مثل هذا السرير، حيث كان "مارك" ينام في حظيرة سيده على الأرض، أما الآن فالفراش المحشو بالريش يحتضن جسمه المتعب.. هذه هي اللحظة الأكثر هناءً في حياته.

استيقظ "مارك" في ظهيرة اليوم التالي.. بدأ يتذكر كل ما حدث له في اليوم السابق، مطمئنًا نفسه أن الأمر لم يكن حلمًا، كان أول شيء قد لاحظه عندما فتح عينيه هي الملابس النظيفة الجديدة التي وُضعت على الكرسي المجاور لسريره، فضلًا عن إناء مليء بالماء الدافئ للاغتسال.. لبس "مارك" هندامه الجديد وخرج من غرفته، وكان الإفطار الفخم ينتظره بالفعل، وكان أعضاء المجلس المحلي واقفين بجانب المائدة، ينتظرون أن يفرغ من تناول طعامه، وقد خفضوا رءوسهم، هذه المرة، لم يعطهم "مارك" أي اهتمام، وانهمك في الأكل متلذذًا، ولم يكلف نفسه عناء دعوتهم للانضمام إليه.. كان نمط الحياة هذا مختلفًا تمامًا عن أي شيء كان قد شهده من قبل.

"ليس هناك خلط بيني وبين شخص آخر، أنا الشخص الذي ينتظرونه، وأنا مستعد لقيادتهم، حتى إلى الجحيم، لقد حان الوقت للمضي قدمًا!".. هكذا فكر "مارك"، وهو يفرغ كأس النبيذ.

قال أحد الرجال:

- أيها الزعيم العزيز، نود أولًا أن نتمنى لك صباحًا طيبًا.

فرد "مارك":

- صباح الخير.

تلك التحية المقتضبة أفقدت الرجل العجوز شجاعته فتوقف عن الكلام، على الرغم من أنه كان واضحًا أنه يريد استكمال كلامه.

- هل تريد أن تضيف شيئًا لتحية الصباح؟

فارتبك الرجل وقال:

- لقد أردت أن أتمنى لك صباحًا طيبًا.

ثم أكمل مستجمعًا شجاعته:

- لدينا بعض الأسئلة حول الذهاب إلى الأرض المقدسة.. نحن علينا أن نقدم تقريرًا، قداستك.

"قداستك"، ليست سيئة!" هكذا فكر "مارك"، ثم تذكر أن "قداستك" هو لقب البابا، وبه يبدأ الناس حديثهم إليه.

قال "مارك":

- أرجو ألا تبدأ كلامك لي بـ"قداستك".

فخفض الرجل العجوز رأسه.

- تحدَّث.. أنا أستمع إليك باهتمام.

- إذا وافقت على قيادة حجاج بلدتنا إلى الأرض المقدسة، سيكون شرف عظيم لنا، وأيضًا، فإن أعضاء المجالس المحلية لخمس بلدات مجاورة يرغبون في أن أنقل لك طلبًا لهم.. إنهم يستعطفونك ألا يُترك الحجاج هائمين بلا قائد لهم.

- هل يريدون أن أقودهم أيضًا؟

رد الرجل بسرعة:

- نعم.. إنهم يسألون بتواضعٍ، ولكن إذا كان هذا سوف يسبب إزعاجًا لك...

قاطعه "مارك":

- سأعلن عن قراري في غضون ثلاثة أيام، حاول تحديد عدد الحجاج الذين يريدون الذهاب إلى الأرض المقدسة، وقدم تقريرًا لي في المساء، والأمر ينطبق على تلك البلدات الخمس أيضًا.

انحنى الرجال أمامه، وغادروا المكان.

وفي المساء، ذكر الرجال لـ"مارك" أن عدد الذين يرغبون في المشاركة في الحج لم يكن قليلًا، ومن ست بلدات مختلفة، أعرب 10451 شخصًا عن رغبتهم في الانضمام للحملة المقدسة، وكان "مارك" قد اتخذ قراره، لكنه لم يتصور أنه سيتعين عليه التعامل مع هذه الكثرة من الناس، كان يخشى أن يفشل في السيطرة على الحشد، لكنه تذكر كلمات الغريب الذي اشترى حصانه: "إرادة الحشد أضعف بكثير من إرادة فرد واحد".. كان عليه أن يقود هؤلاء الناس، لأن طول بقائه في البلدة قد يؤدي إلى اكتشاف حقيقة أمره، فقد يُخمن الناس أنه ليس ملاكًا أو جنديًا، بل هو مجرد سائس بائس، ويحتمل أن يكون رد فعلهم عنيفًا مهلكًا.

في مساء اليوم الثالث، خرج "مارك" إلى الساحة، حيث تجمَّع كل من يريد المشاركة في الحج، وقال لهم: "لقد اخترتكم جميعًا"، واستكمل، مقتبسًا آية من الإنجيل كي يترك انطباعًا حسنًا: "هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ".. فانتظر الجمع المزيد وقال "مارك":

- سوف أقود جميع الناس المختارين إلى الأرض المقدسة، وسوف نحقق هدفنا لأنه هدف مقدس.. الآن، عودوا إلى منازلكم وتفكروا في الأمر، فلو كنتم مستعدين للاختبار وسوف ترضخون لأوامري دون قيد أو شرط، أراكم هنا صباح الغد، أما إذا كان لديكم أدنى الشكوك، فمن الأفضل أن تبقوا في منازلكم، فأنا لن أسمح لأي أحد بالرجوع من نصف الطريق، علينا أن نستكمله حتى النصر المبين.. فكروا في الأمر واتخذوا قراركم.. سوف نشرع في حجنا المقدس صباح الغد.

عاد «مارك» إلى غرفته ولم يخرج مرة أخرى حتى الصباح، وكان الناس يقولون لبعضهم البعض إنه يتشاور مع الملائكة السماوية، وفي الصباح، كانت حشود الناس في انتظار قائدهم.. ابتسم «مارك» راضيًا، بارك الحشد بحركات يمينه، ومشى أمام الحشد، تابعه الكل.. لقد بدأ الحج المقدس.

(10)
هروب "سعيد" إلى قلعة آلموت

دمشق.. 1115 م

عاد "سعيد" بأمان من أول رحلة له إلى دمشق، لم تكن هذه رحلة طويلة، حيث استغرقت 40 يومًا فقط، وكان قد اشترى شيشة جميلة لـ"أحمد" بقطعتين من الذهب، سعد "أحمد" بالهدية.. كان "أحمد" يحب "سعيد" لصدقه وأمانته، ولكنه في بعض الأحيان كان يقلق أيضًا من استقامته وثقته الزائدة في الآخرين.

كان "سعيد" يتقدم بسرعة كبيرة في حياته المهنية، وفي غضون ثلاثة أشهر فقط، ارتقى من حمَّال إلى مرشد، وذلك بفضل تفانيه في العمل وعقله المتقد.

رافق "سعيد" القوافل عبر الصحراء، وفي عامين تعلم لغة الصحراء عن ظهر قلب، وكان يعرف متى تبدأ الرياح، وكم من الأيام تدوم حرارة الجو، وكان يعرف كل الطرق والمسارات الآمنة؛ فالصحراء، في نظر الناس، رتيبة، صفراء، لا نهاية لها، أما بالنسبة لـ"سعيد" فهي مدينة معقدة بعلامات وشوارع.

أصبح من الصعب أن يجادله أحد حول الأمور المتعلقة بالصحراء، يأتي بهدية لصديقه القديم "أحمد" عند عودته، لم تكن هدايا كبيرة: نكهة جديدة من تبغ الشيشة، الشاي النادر، أو سجادة صلاة صغيرة، وكان "أحمد" يشكر "سعيد" على هذه الهدايا، فيعانقه ويُقبل جبهته، ثم يشغل نفسه بضبط نار الشيشة، لكنه في الواقع كان يخبئ دموعه من "سعيد"، لم يكن "أحمد" فقيرًا، فهو يمتلك عدة محلات للحلويات في دمشق، وكان "أحمد" سعيدًا، ليس بسبب الهدايا الصغيرة التي يتلقاها، ولكن لأنه استطاع أن يقي هذا الطفل اليتيم من سلوك غير قانوني، وأنه نجح في توجيهه إلى الطريق القويم، وكان فخورًا بتقدم "سعيد" في عمله، ولم تكن الهدايا إلا دليلًا ملموسًا على كل ذلك، وكان "أحمد" مقتنعًا بأنه فعل شيئًا جيدًا، فعل ما يرضي الله.. كان "سعيد"، عند عودته، يحكي قصصًا طريفة مثيرة عن أحداث صادفته في أثناء الرحلة، وكان "أحمد" يشهد أن الله رحمن رحيم.

كان كل شيء يسير بما يرضي الله، ولكن في ليلة واحدة مصيرية تغير كل شيء، كان "أحمد" نائمًا في سريره، وقد انتصف الليل، فاستيقظ على صوت شخص يحاول فتح باب منزله.. "اللصوص"، هذا ما اعتقده الرجل العجوز، نظر إلى أعلى وتمتم: "يا رب، ألهمني القوة"، ونزل إلى الطابق الأرضي، ورأى في الظلام شكلًا مبهمًا.

صرخ "أحمد":

- مَنْ أنت؟ ماذا تفعل في بيتي؟

- هذا أنا، "سعيد".

- "سعيد"، ماذا تفعل في بيتي؟

وحاول أن يشعل المصباح المعلق من السقف.

- "أحمد"، من فضلك، لا تقم بإشعال المصباح!

اقترب "أحمد" من "سعيد".

- ماذا حدث؟ هل بإمكانك إخباري؟

فقال "سعيد":

- إن القافلة التي كنت أرافقها تعرضت للسرقة.

- "سعيد"، القوافل غالبًا ما تكون عرضة لمحاولات السرقة.

- لكنني المشتبه به الرئيسي، أنا متهم بتنظيم السرقة.. أنا مطارد! بالكاد نجوت!

- أنت، يا "سعيد"؟ لماذا يشكون فيك؟ انظر في عيني!

كان هناك نظرة خزي وعار في عيني "سعيد".. هل لأنه خذل صديقه "أحمد"؟

وكرر "أحمد" سؤاله:

- لماذا يشكون فيك؟

- أنا الشخص الوحيد الذي نجا من السرقة، ولأنني لم أسر بالقافلة على الطريق المعتاد، وفضلتُ طريقًا آخر اعتقدت أنه أكثر أمانًا، لم أكن أعلم أن قاطعي الطريق في الانتظار.. هاجمونا وذبحوا الجميع ونهبوا القافلة، تمكنت بالكاد من الفرار! ووصلت دمشق مشيًا على الأقدام.

- وجودك على قيد الحياة ليس دليلًا كافيًا لاتهامك.

- "أحمد"، لقد انحرفت القافلة عن طريقها بسبب قيادتي.

تاه "أحمد" في أفكاره، ففي مثل هذه الحالات، عقوبة الإعدام لا مفر منها، قد لا تُنسب لـ"سعيد" المسئولية المباشرة في نهب القافلة، ولكن من المستحيل أيضًا أن يُفسر انحراف القافلة عن مسارها لصالح براءته، إذا تم القبض على "سعيد"، فسوف يتم اتهامه بتواطئه مع قاطعي الطريق، وقد يُحكم عليه بالإعدام دون محاكمة.

كان الوضع معقدًا للغاية، وفرصة "أحمد" في النجاة ضئيلة، بالإضافة إلى أنه كان قد توسط مرة في صالح "سعيد" بالفعل، وطبعًا لا يمكن اتهامه هو أيضًا بالتواطؤ، فسمعته كإنسان مؤمن طاهر تسبقه.

تناول "أحمد" الشيشة وبدأ يدخن، وبعد قليل استطاع أن يستجمع أفكاره، ويتخذ قرارًا.

- "سعيد"، سوف أعطيك رسالة، وأودعك إلى قلعة "آلموت" قبل الفجر.

***

بعد شهرين من تلك الليلة الحاسمة، كان "سعيد" يقف أمام أبواب قلعة "آلموت"، ألقى نظرة أخيرة على الطبيعة حوله وكأنه يودع العالم، واتجه إلى بوابات القلعة، كان السفر طويلًا، كان "سعيد" يمشي في الليل غالبًا، عندما يكون الناس نائمين، ويجد لنفسه مأوى بعيدًا عن الناس في الصباح، حيث يستريح ويأخذ قسطًا من النوم.

كان "أحمد" قد أخبره قصة "آلموت" بالتفصيل، القلعة على جبل من جبال فارس الشاهقة، والوصول إليها صعب، وفي رحلاته عبر الصحراء، كان "سعيد" قد سمع الكثير عن أفضل الطرق المؤدية إليها، لكنه كان يعرف أيضًا أن رجال القافلة مقطوعون نوعًا عن الواقع، يميلون إلى المبالغة، ولا يمكن الاعتماد على المعلومات التي يقدمونها عن طيب خاطر.

للوصول إلى القلعة عليك أن تأخذ دربًا ضيقًا ملفوفًا مثل ثعبان حول الجبل، يؤدي هذا الدرب الخطر إلى بوابات القلعة، أمَّا الجوانب الثلاثة الأخرى فتحيطها هاوية عميقة، ارتفاع القلعة عاليًا على شفة الهاوية، وكأنها نبتة صخرية هائلة.. تناغم مذهل بين الجبل والقلعة، وكان للقلعة أربعةُ أبراج يحرسها جنود بعيون حجرية باردة، لا يأبهون بالأحداث المحيطة وتغيرات المناَخ، هم من الرماة المهرة، ولا توجد وسيلة لتجنب سهامهم القاتلة، أمَّا داخل القلعة، فكان من المستحيل أن تعرف الأحداث التي تجري هناك.. يُسمع أحيانًا صليل السيوف دليلًا على ممارسة التمارين القتالية.

وعلى بوابات القلعة تم تثبيت لوحة نحاسية كبيرة، نُقش عليها: "أبو طاهر أراني، جندي الله الذي لا يخاف، أرسل الشيطان "نظام الملك" إلى جهنم، ولقي الله شهيدًا".

كان "أحمد" في تلك الليلة الأخيرة قد ذكر اللوحة النحاسية تحديدًا.. كانا جالسين في غرفة المعيشة في منزله في دمشق، "أحمد" يدخن الشيشة، و"سعيد" غارق في أفكاره اليائسة. سأله «أحمد»:

- هل سمعت عن قلعة «آلموت»؟

- نعم، سمعت عنها من رجال القافلة، أليست القلعة التي يعيش فيها "الحسن الصبَّاح"، الملقب بـ"شيخ الرجال"؟

فقفز "أحمد" من على مقعده وصاح:

- لا تقول اسمه بصوت عالٍ؛ فالحيطان لها آذانٌ.

بدا القلق على "أحمد"، قام من مقعده، وخفض الضوء، ونظر من النافذة، واستلقى أخيرًا على الأريكة.

- أنت ما زلت طفلًا يا "سعيد"، وتورط نفسك في المشكلات! قل لي ما تعرفه عن قلعة "آلموت" و"الحسن الصبَّاح"، ولكن بصوت خفيض.

فأعاد "سعيد" كل التفاصيل التي سمعها تلك الليلة في الصحراء، هو يتذكر القصة كاملةً فقد أثرت فيه.. روى القصة، ثم قام ونظر من النافذة، سوف تشرق الشمس بعد ساعة.

قال "أحمد":

- أود أن أخبرك ببعض الأمثال، لأنك حتمًا سوف تحتاج إلى القليل من الحكمة في رحلتك الطويلة، ما حكيته لي هو الحقيقة الواضحة، ولكنَّ لهذه القصة تنويعتين، وأنه سيكون من الأفضل أن أحكي لك التنويعة الثانية بحيث يكون لديك وجهة نظر كاملة.

رجع "أحمد" يدخن الشيشة لجمع أفكاره، ثم قال:

- كانت هناك شائعات، قد لا تكون لها أساس من الصحة، وهي أن مؤذن مدينة "ساوة" لم يقتله رجال "الحسن الصبَّاح"، الدعاة النزاريين، كما قيل للجميع، ولكن من قتله هم رجال رئيس الوزراء "نظام الملك" لتسبب موجة من الكراهية ضد الحشاشين، والحقيقة هي كالآتي: علم "نظام الملك" أن الوعاظ الإسماعيليين يحققون نتائج جدية، وأن الناس العاديين قد بدءوا يحبونهم ويؤمنون بما يتفوهون به، فأقدم على قتل مؤذن "ساوة" لإلقاء اللوم على رجال "الحسن الصبَّاح"، هذا يعني أن "نظام الملك" هو الذي حرَّض الناس على الانتقام من الحشاشين، بطبيعة الحال، لا أحد يعرف ولن يعرف حقيقة ما حصل بالفعل.. إن الحكم في يد الله وحده، فهو الذي يعرف الحقيقة، سبحانه.

قصة "أحمد" كانت مفصلة جدًّا، وكأنه كان حاضرًا لتلك الأحداث، وكان ذلك ممكنًا تمامًا؛ فالأحداث وقعت قبل 25 عامًا، وكان "أحمد" شابًا حينها، وربما شارك في الأحداث، لكن قصة "أحمد" بدت وكأنها حكاية فلسفية تشبه الأمثال ولا تعبِّر عن الواقع الفعلي، لم تحتوِ القصة على معجزات أو ظواهر خارقة للطبيعة، لكنها كانت قصة آسرة، شخصياتها درامية، من الصعب قبولها كواقع مؤكد.

- "أحمد"، هذه قصة مثيرة جدًّا للاهتمام.. هل أنت متأكد من أنها حقيقية؟

كان "سعيد" يستمع باهتمام، وقد نسي أنه مطارد، وقد يُقبض عليه.

- بعد الإعدام العلني والمذل للواعظ الديني النزاري، ازدادت حدة التوتر، وكان قتل رئيس الوزراء حدثًا غير مسبوقٍ في العالم الإسلامي، ودفع "الحسن الصبَّاح" إلى فكرة بسيطة ولكنها فعالة: دولة تُقام على جيش لا يحتاج إلى تكاليف باهظة، جيش لإرهاب الناس بالاغتيالات المدوية، وأدرك "الحسن الصبَّاح" أهمية الدين كقوة دافعة؛ فالمؤمن سيقتل مجانًا ولن يخشى الموت، ولا يمكن لجدارٍ عالٍ ولا لجيش من الحراس إنقاذ الضحية التالية.

أول ما فعله "الحسن الصبَّاح" كان إنشاء شبكة عملاء واسعة.. هم من دعاة العقيدة الإسماعيلية المتناثرين في جميع أنحاء العالم، وكان "الحسن الصبَّاح" أول من استخدم آلية استراتيجية لتجنيد العملاء؛ فالذين يقومون بالتجنيد هم الأئمة، اختياراتهم صائبة؛ لأنها تعبر عن إرادة الله، يُبلغون العملاء أن الله كانِ رحيمًا

معهم، وأنهم ولدوا لمهمة عظيمة، وأن جميع الملذات الدنيوية لا تعني شيئًا مقارنة بالمكافأة التي سيحصلون عليها بعد أداء مهمتهم، وبفضل أولئك العملاء المتفانين في عملهم، كان "الحسن الصبَّاح" على علم دائم بكل التفاصيل المتعلقة بحياة الحكام الشرقيين في شيراز وبخارى وأصفهان والقاهرة وسمرقند وغيرها من المدن.

أمَّا الجيش، فكان من القتلة المحترفين، هم خبراء في قتل الناس، لا يخافون من الموت، بل يتوقون له.

وأنهى "أحمد" كلامه قائلًا:

- بدأت الشمس في البزوغ، يا "سعيد".. سوف يبحثون عنك في المدينة، حان وقت المغادرة، سيرحبون بك في "آلموت"، وما التوفيق إلا من عند الله.

(11)
آلموت

بلاد فارس.. 1115م

جلس مئات من الشبان تحت جدران القلعة في انتظار أن يستقبلهم شيخ الجبل في مذهبه الجديد، فيصبحون من الحشاشين، هم في ذلك الحال منذ أسابيع، لا يعرفون متى سيسُمح لهم بالدخول، وكان حراس القلعة يسخرون منهم ويتمادون في إذلالهم بكل الطرق الممكنة، فكانوا يسكبون عليهم مياهًا قذرة من أعالي الأسوار ويشتمونهم بأقذر الشتائم، ولم يدرك الشبان أن هذا هو أول اختبار لهم، اختبار الصبر، ولم يُسمح بدخول "آلموت" إلا للذين كان إيمانهم بالله أثمن بكثير من الراحة الشخصية؛ فلم يكن هناك خارج أسوار القلعة أي شكل من أشكال الراحة، لا سرير، لا مرحاض، لا طعام، لا شيء مطلقًا، كانوا ينتظرون تحت أشعة الشمس الحارقة، راقدين في القاذورات.

كانت طفولة "سعيد" صعبة، حياة متسول صغير في شوارع دمشق الضيقة، لكن تلك المناظر المزرية صدمته؛ فاقترب من أحد الشبان الذين يفترشون الأرض محاولًا جمع بعض المعلومات.

- السلام عليكم.

فأجاب الغريب:

- وعليكم السلام.

كان شابًا صغيرًا يتراوح عمره بين الثامنة عشرة والعشرين، عيناه سوداوان، فضوليتان.

قال له "سعيد":

- متى ستفتح بوابات القلعة؟

- الله وحده يعلم، لقد مضت عشرة أيام منذ أن جئت، فُتحت البوابات مرة واحدة فقط وسُمح لشخصين فقط بالدخول، وبالمناسبة، اسمي "المعلم".

فمد "سعيد" يده للغريب قائلًا:

- "سعيد".. هل هذا يعني أن البوابات لا تفتح في أوقات محددة؟

- عادة ما تدق أجراس البرج قبل خمس دقائق من فتح البوابات، وبمجرد أن تفتح، يخرج منها عدد قليل من الناس، فيقومون باختيار من سُمح له بالدخول.

- حسنًا، ماذا لو كان لشخص ما شيء عاجل، مثل رسالة يجب عليه توصيلها؟

فأشار "المعلم" إلى آخر السور وقال:

- هناك باب يدخل ويخرج منه الحشاشون، يغادرون في مهام ويعودون، أو كما قلت، يأتون برسائل، ولكن الحشاشين فقط لهم حق استخدام الباب.. لا تقترب منه!

- لماذا؟ ماذا سيحدث؟

- الرماة يحرسون الباب من أعالي السور، وسوف يطلقون سهامهم على أي شخصٍ غريب.

- ماذا عليَّ أن أفعل إذًا؟ معي رسالة يجب أن أسلمها، لقد مشيت لمدة شهرين للوصول إلى هنا.

فقال "المعلم":

- هناك أشخاص ساروا لأكثر من عام إلى أن وصلوا إلى القلعة، وما زالوا ينتظرون دورهم صابرين.

- حسنًا، حسنًا! اهدأ! لديَّ بعض الخبز الطازج، تفضل.. حدثني قليلًا عن نفسك.

وجلس الاثنان تحت ظلال أسوار القلعة، وأخذ "سعيد" رغيف الخبز من حقيبته، وقطعه إلى قطعتين متساويتين، وقدَّم قطعة إلى "المعلم" وأضاف:

- منذ متى لم تذق خبزًا طازجًا؟

انتزع "المعلم" الخبز من يد "سعيد" وقال:

- لا أستطيع أن أتذكر! هناك أيام لم نأكل فيها شيئًا على الإطلاق.. ذات مرة، أُعلن أن البوابات ستُفتح قريبًا، فوقفنا أمامها لعدة أيام، حتى استنفدنا ما لدينا من طعام، كنا جميعًا جوعى وقد أصابنا الهزال.

- لماذا لم يذهب أي منكم لجلب بعض الطعام؟

- الشروط هنا في غاية الصرامة، يجب عليك الصمود رغم الصعاب، فإذا غادرت المكان لا يُسمح لك بالرجوع! لك حرية المغادرة قبل أن تدخل القلعة، أما بعد الدخول فليس هناك إلا طريقة واحدة لمغادرة "آلموت".

فسأله "سعيد" وهو يمضغ الرغيف:

- وما هي؟

- الموت! حتى الآن لم يتمكن أحد من الفرار من شيخ الجبل.

دار بين الاثنين حديث طويل، قال "المعلم" إنه كان يعيش هائمًا على وجهه قبل المجيء إلى هنا، لا يعرف حتى من هما والديه.. سمع من أحدهم عن "الحسن الصبَّاح" وأدرك أنه خليفة الله على الأرض.

- كنت قد سئمت خطب الملالي الكاذبة.. إنهم يستخدمون الدين من أجل مصالحهم الشخصية.

سأله "سعيد":

- هل تعتقد أن ذلك مسلك الجميع؟

كان "سعيد" قد سمع روايات تحكي عن فواحش يرتكبها الملالي، ولكنه كان يعتقد أنها شائعات ليس إلا.

رد "المعلم":

- حسنًا، ربما ليس الجميع، لكن الغالبية بالتأكيد.

وواصل "المعلم" حديثه:

- بعد سنوات عديدة من الضياع، قررت أن أصبح عبدًا لله، وسوف أصبر على كل الصعاب حتى أصبح جديرًا بذلك.

وفجأة، سُمع جرس البرج في صمت الفجر، فاضطرب الجميع؛ فالصبية الذين كانوا يتقاسمون الخبز، هرولوا لأخذ أماكنهم أمام البوابات، وهم يدفعون بعضهم البعض.

قال "المعلم" فرحًا:

- "سعيد"، هذه فرصتك لتسليم رسالتك، وقد يسمحوا لي بالدخول!

- وكيف أسلم رسالتي؟

- بمجرد فتح البوابات، سيخرج ثلاثة أشخاص، وسوف يأتون لاختيار المقبولين، عندما يمرون بك، تمتد يدك بالرسالة، وتقول إن لديك رسالة مهمة جدًّا.. هل أنت متأكد أنها تحتوي على أخبار سارة؟ إنهم ليسوا مولعين بالأخبار السيئة!

وقال "سعيد":

- لا أحد يرحب بأخبار سيئة.

قال "المعلم":

- بالطبع، ولكن الفرق هنا أن مكافأة الأخبار السيئة هي ضربة سيف! هيا بنا نذهب! عجل! سنتأخر.

جرى الاثنان نحو البوابات، وبمجرد وصولهما، فُتِح الباب وخرج ثلاثة رجال يرتدون ثيابًا بيضاء، ساروا ببطء أمام المتقدمين وهم يمعنون النظر في وجوههم، اختاروا شخصين وهمُّوا بالرجوع إلى القلعة دون أن يقتربوا من "سعيد" و"المعلم".. صاح "المعلم"، فاقدًا الأمل:

- لدينا رسالة مهمة!

هرع الحشاشون إلى "المعلم".

- أنت الذي صرخت؟

- نعم سيدي! قد لا تعودون إلا بعد وقت طويل، لذا فضلت أن أخبركم بالأمر.

فأخرج حشاش خنجره ووضعه على حلق "المعلم".

- أين هي الرسالة، أيها النكرة!

فأشار "المعلم" بإصبع مرتجف إلى "سعيد" الذي أخرج الرسالة بسرعة من جيبه ومدها إلى الحشاش، أخذ الحشاش الظرف المغلق، فشحب وجهه عند رؤية ختمه الثلاثي الشكل.

أومأ لزميله ليبعد الخنجر من حلق "المعلم"، وسرعان ما عاد الحشاشون الثلاثةُ إلى القلعة، آخذين المختارين معهم، وتاركين "المعلم" و"سعيد" في الخارج، وأُغلق باب محدثًا صريرًا مزعجًا.

ظل الشبان الذين تجمعوا أمام البوابات في أماكنهم لبضع دقائق، مذهولين ممَّا رأوا.

صرخ "سعيد" في "المعلم":

- هل أنت مجنون؟ لماذا تكلمت نيابة عني؟ كنت على حافة الموت!

- سلمت أمري لله! لا يتم شيء إلا بإرادته! انظر، لم أُقتل.. هل لاحظت رد فعلهم عند رؤية الرسالة؟ ما السبب؟

فقال "سعيد":

- أنا نفسي لا أعرف، ربما هي رسالة من شخص مهم جدًّا.

وقبل أن ينتهي "سعيد" من حديثه، فُتح الباب مرة أخرى، وخرج حشاش واقترب من "سعيد" والمعلم" وصاح:

- اتبعاني!

ففعلا ذلك، ودخل الثلاثة القلعة، تاركين وراءهم نظرات حسود.

في داخل القلعة، كان السكان يعيشون حياة عادية، باستثناء رجل كان يتم جلده في ساحة البلدة، فبعد كل ضربة سوط كان الرجل يصيح "الله أكبر".

توجه الثلاثة إلى منزل كبير في وسط "آلموت"، منزل كأنه قلعة داخل القلعة.. ورأى الشابان حشاشين يتدربون على فن القتال بالخناجر، ففكر "المعلم"، وهو يتحسس عنقه:

- هكذا يصقلون مهاراتهم!

رافق الحشاش الشابين حتى مدخل المنزل.. قام آخر باستقبالهما في الداخل وقادهما إلى الطابق الثاني، وهناك دعا "سعيد" إلى داخل الغرفة، وترك "المعلم" ينتظر في الخارج، كانت الغرفة تشبه مكتبة كبيرة، لم يرَ "سعيد" كتبًا كثيرة في حياته، أمَّا هنا، فرأى أكوامًا من الكتب مكتوبة بلغة غير مألوفة، لم يكن "سعيد" ضليعًا في اللغات، كان بالكاد يستطيع أن يقرأ، وذلك لأن "أحمد" قد علمه.. رجل مسن، ولكن مفتول العضلات، كان واقفًا بالقرب من نافذة المكتبة، كانت لحيته طويلة بيضاء ونظرته ماكرة خطيرة، وكان يرتدي ثيابًا بيضاء.

قال الرجل بصوت عميق، لا يكاد يُسمع:

- هيَّا، يا طفل الله الضال، ماذا فقدت وما الذي تبحث عنه؟

- لا أعرف ماذا أقول، يا سيدي! كلماتي فقدت قوتها.

- الكلمات مهمة جدًّا، وبالبناء اللغوي السليم يمكن للمرء أن يصلي ويحمد ربه، في حين أن البناء اللغوي العليل قد يقوده إلى الشيطان! حلم أحد الحكام ذات مرة أن أسنانه تسقط الواحدة بعد الأخرى، وعندما استيقظ في الصباح، حاول أن يهتدي إلى معنى حلمه، قضى اليوم قلقًا، محبطًا، وفي ذلك المساء، أمر خادمه بالعثور على مفسر أحلام، فأتى بشخصين.. هز المفسر الأول رأسه، بعد أن سمع الحلم، وقال إن الحلم نذير شؤم، وإنه يفضل ألا يخوض فيه، ولكن الحاكم أقنعه بالكلام، بعد عناء، فادعى المفسر أن أسنان الحاكم هم أقاربه، الذين سوف يموتون الواحد تلو الآخر، ويتركون الحاكم وحيدًا، وعند سماعه هذا، غضب الحاكم غضبًا عظيمًا، وأمر بجلد وسجن المفسر، بعد ذلك، دعا الحاكم المفسر الثاني إلى إبداء رأيه، فقال إن الحلم يؤكد أن الحاكم سوف يعيش أطول من جميع أقاربه.. فرح الحاكم بهذا التفسير، وكافأه بسخاء، واندهش رجال الحاشية؛ فالمفسران قالا الشيء نفسه، فلماذا أمر الحاكم بجلد وسجن أحدهما ومكافأة الآخر؟ ووجهوا السؤال للمفسر الثاني، الذي قال: "من المهم أن تعرف ماذا تقول، ولكن الأهم أن تعرف كيف تقول ذلك".

بعد الانتهاء من قصته، اقترب الرجل المسن من "سعيد"، الذي شعر فجأة برغبة الركوع أمامه، ففعل، ووضع الرجل المسن يده على رأس "سعيد" وقال:

- بركات الله عليك وعلى الذي أرسلك إليَّ، لم أسمع من أخي "أحمد" منذ سنوات عديدة، لقد فرح قلبي.. يوصيني "أحمد" أن آخذك في خدمتي، وطالما هو من أوصاني بذلك، فهذا يعني أنك تستحق ذلك.. يا "سعيد"، لقد أتخذتك ابنًا لي، أنا أبوك، ليس لك أب آخر، وهذا هو بيتك، ليس لك بيت آخر، وليس لك هدف إلا خدمة الله.. إنني أعلن موتك للعالم، أنت حي فقط في "آلموت".. أنا "الحسن الصبَّاح"، شيخ الجبل، خليفة الله على الأرض، أقول لك هذا.. ارفض حياة الدنيا وسوف تكافأ بالملذات الأبدية في السماء! اكسب رضاء الله! لقد دخلت "آلموت"، الباقي عليك.. اذهب يا بني، اذهب واخدم الله بصدق!

انحنى "سعيد" أمام "الحسن الصبَّاح"، وغادر الغرفة، رافقه أحد الحشاشين إلى مسكنه، وكان المسكن غرفة فقيرة، ليس فيها إلا أربع أسرة حجرية ضيقة، صلبة وغير مريحة، في وقت لاحق، وبعد فصل من التدريبات الشاقة، سوف يرتاح "سعيد" عليها وكأنه ينام على فراش محشو بريش النعام! ولكن في الوقت الراهن، لم يكن يعرف ما كان ينتظره في "آلموت"، وكان واقفًا حائرًا عندما دخل "المعلم" الغرفة ووجهه يشع بهجة.

- "سعيد"، لقد تم اختياري، وسوف أصبح حشاشًا!

وتظاهر "المعلم" القتال بسيف وهمي وأكمل:

- لا أستطيع الانتظار لبدء التدريبات.. ها قد أفادتني جرأتي! فالحياة قد تكون سخية الهدايا لو لم تخف من الموت! أنا سعيدٌ جدًّا، يا "سعيد"!

فعانق "سعيد" صديقه وقال:

- أنا أيضًا أيها "المعلم"، أنا أيضًا.

كانت حياة المجندين في "آلموت" صارمة جدًّا، لا يحصلون على وقت فراغ يختلون فيه مع أنفسهم.

خُصص حشَّاش لكل أربعة من المجندين، يأمرهم بكل ما عليهم أن يقوموا به، من تدريبات عسكرية، لتناول الطعام، لقضاء الحاجة، خلال الأيام السبعة الأولى، كان المجندون يتكيفون مع حياتهم الجديدة، فمدة تناول الطعام محددة: ثلاث دقائق للإفطار، سبع دقائق للغداء، وأربع دقائق للعشاء، ويُتاح لهم فرصة قضاء الحاجة مرة واحدة في اليوم، وكانت هناك أوقات كثيرة مخصصة للصلوات، وكان عقاب منتهكي هذا الجدول حرمانهم من التدريبات وعزلهم عن الآخرين.

كان الحشاشون يشرحون للمجندين أن أي شخص بجسم وعقل ضعيفين لا يستحق أن يُسمى بجندي الله؛ لأن الله لا يحب المؤمن الضعيف.

لم يجد "سعيد" و"المعلم" فرصة التحدث مع بعضهما البعض.. كان الكلام ممنوعًا إلا بتصريح خاص، في تلك الأيام السبعة الأولى، تعلم المجندون قواعد وأنظمة "آلموت"، وفي اليوم السابع بدأت التدريبات الفعلية.

كان للتعليم دور أساسي في "آلموت"، كان "الحسن الصبَّاح" قد دعا مختلف المتخصصين لتعليم المجندين وفق منهج صارم، وكان المتخصصون من جنسيات مختلفة ويتكلمون اللغات الأجنبية.

تنوع أيضًا مظهرهم؛ فبعضهم قصيرو القامة، بشرتهم صفراء ورءوسهم حليقة، باستثناء خصلة شعر طويلة، وهناك أيضًا السمر، ولون بشرتهم يقترب من سواد الليل، وكان آخرون قد فقدوا أطرافًا أو عيونًا في ساحات القتال وكانوا فخورين بذلك.

وكان المجندون يحلمون بأن يصابوا بعاهات مماثلة أو حتى أن يُقتلوا في سبيل الله.

كانت عملية التعليم تتكون من أربع مراحل، تستغرق كل منها ثلاثة أشهر، أولًا، يتم تدريس المجندين مهارات فنون الدفاع عن النفس، بما في ذلك كيفية استخدام الخناجر، في البداية يتعلمون الطعن بالخنجر، وفي نهاية المطاف يتقنون رميه على العدو، وبعد ذلك يتم تدريسهم فن انتزاع الخنجر من يد العدو، وكان على المجندين أن يتعاملوا مع الخنجر وكأنه ثعبان سام، يجب الحذر منه والسيطرة الكاملة عليه.

تُقام التدريبات في ساحة صغيرة مستديرة في وسط القلعة، فتُسمع صليل اشتباك الخناجر في أنحاء "آلموت".

كان المجندون يتعلمون أيضًا فنون الدفاع عن النفس دون أسلحة، على أيدي متخصصين من الشرق الأقصى، وتُضاف إلى التدريبات القتالية تسلق الجدران، ورفع الأوزان، والمشي على الأيدي، والزحف لمسافات طويلة، والوثب من أماكن

مرتفعة، والجري دون توقف، وبعد ثلاثة أشهر، ومع نهاية المرحلة الأولى يتم تقليل التدريب البدني إلى مرة كل يومين.

والمرحلة الثانية من عملية التعليم كانت تسمى "درس الصبر"، وتبدأ بالتكليف التالي: كان على الجندي أن يفتت حجرًا كبيرًا إلى أجزاء صغيرة مستخدمًا عتلة، وقد تمر ساعات أو حتى أيام ولا يزال المجند عاجزًا أمام الحجر، وإذا نجح في تفتيته أخيرًا يُعطى له حجرًا آخر، فيفاجأ المجند به ولكن عليه أن يشرع في كسر الحجر الجديد.

كان المجندون يزدادون كرهًا لما كُلفوا به، بعضهم يستمر بالحماس نفسه، والبعض الآخر يصابون بالإحباط، وقد ينسحبون من المهمة كليًّا، ويظفر الصابرون فقط بالنجاح.

أمَّا المرحلة الثالثة فكانت تُسمى "درس الإغراءات والتحمل"، يتم اختبار قدرة المجندين على التحمل من خلال مجموعة متنوعة من المهام، وقد يؤمرون بالوقوف بلا حراك لساعات طويلة، بل لعدة أيام، ودون قضاء الحاجة، وبطبيعة الحال، فشل الكثير منهم في ذلك، فاضطروا إلى التبول وهم واقفون، وعلمهم المدرب ألا يخجلوا من ذلك؛ لأن الاختباء كان جزءًا أساسيًّا في المعارك، والأفضل للجندي أن يتبول على نفسه من أن يبحث عن موقع مناسب للتبول فيكشف نفسه للعدو ويُقتل دون أن يُنهي مهمته، فيستحق الخزي والعار، أمَّا الجندي الذي يستشهد في سبيل الله فجزاؤه الجنة ونعيمها.

بعد هذا الاختبار الصعب، كان على المجند الامتناع عن الشرب لمدة يومين وعن الأكل لمدة أسبوع.. يأتي بعده الامتحان الأخير: الدفن حيًّا، ثلاثة أيام كاملة يقضيها المجند مدفونًا في صندوق خاص، حيث يتم تزويده بالهواء فقط بواسطة أنبوب ضيق، هذه المهمة الأخيرة، وبصرف النظر عن كونها جزءًا من تدريب المجند، كانت لها معنى طقوسي؛ فالدفن يرمز إلى وفاة المجند وخروجه إلى ولادته كحشاش، قبل هذه المهمة لم يكن المجند إلا شخص نكرة، مخلوق بلا دماغ، منقوع في الخطيئة، أمَّا بعد إتمامه المهمة، فلا يستطيع أحد أن ينعته بتلك الأوصاف، فهو قد أصبح بالفعل حشاشًا.

والمرحلة الأخيرة تسبقها خمسة أيام من الراحة، تُتاح خلالها للحشاش الجديد فرصة استعادة قوته، يبدأ بعدها اختبار الإيمان؛ فيتم تقسيم الحشاشين إلى مجموعات صغيرة، حيث يستمعون إلى الوعاظ وهم يدعونهم لاعتناق المسيحية، والإسلام السني، واليهودية، والفلسفة الشرقية لمدة ثلاثة أشهر، وقد كان على الحشاشين الجدد المشاركة في جميع الفعاليات الدينية، من صلوات وترانيم، وطقوس، وكان الوعاظ يحثون الحشاشين بترك عقيدتهم واعتناق ديانة أخرى بكل ما في وسعهم، فكانوا يحكون الأساطير من الكتب الدينية، يبشرون بحياة أبدية أو ولادة جديدة على الأرض، ويعدون بسلام عقلي وروحي، ويقرأون نصوصًا جذابة، والمثير للاهتمام أن أحد الوعاظ كان يدعو للإلحاد، فيقدم تفسيرات علمية لظواهر الطبيعة لإقناع

الحشاشين بعدم وجود قوة خارقة للطبيعة في الكون، وأن الديانات من صنع البشر لجعل الناس حمقى وللسيطرة عليهم.

وبعد اختبار الإيمان مباشرة، حلم "سعيد" حلمًا غريبًا.. بالطبع، كان "سعيد"، مثل كل الناس، يرى أحلامًا كثيرة، ولكن هذا الحلم كان أغربها وأيضًا أجملها على الإطلاق.

كان "سعيد" نائمًا كالمعتاد على سريره الحجري الصلب عندما استيقظ فجأة، غير قادر على فهم ما رآه للتو، لم يكن متأكدًا إن كان مستيقظًا أم لا يزال يحلم.. فتح عينيه على حديقة مجهولة ولكنها جميلة جدًّا، وقد اختفت رائحة "آلموت" العفنة، كان يستنشق عطر الزهور، وبدلًا من أشعة الشمس الحارقة، كانت الأشجار تلاطفه بظلالها، وتحت إحدى الأشجار رأى "سعيد" مائدة زُينت بوافر الأطعمة والمشروبات.. اقترب من المائدة وبدأ يأكل، كل شيء بدا حقيقيًّا؛ فالأطعمة لذيذة والمشروبات منعشة، وفجأة، عانق أحدهم "سعيد" من الخلف.. استدار ورأى فتاة جميلة، كانت عارية لا يسترها سوى قماش رقيق شفاف، كانت الحلمتان ظاهرتين، فضلًا عن مكان التقاء الفخذين، أغلق "سعيد" عينيه، لا بدَّ أنه في الجنة، وأن الجميلة المبتسمة ليست إنسانة عادية، بل حورية من الحور!

وتساءل "سعيد":

- هل متُّ وذهبتُ إلى الجنة؟

ضحكت الفتاة الجميلة وهربت، وقرر "سعيد" أن يلاحقها، فتوقفت الحورية تحت شجرة وانتظرت، وعندما وصل إليها، أعطته قبلة متقدة، أغلق "سعيد" عينيه في النعيم، وفجأة، شعر بيد الحورية على ذكورته، واحتفظت الحورية بقضيب "سعيد" في يدها، تتأمل جماله، لم يكن "سعيد" قد شعر بمثل هذا الشعور.. موجات هناء تتالت وصعدت إلى رأسه، فاستلقى على العشب، واستلقت الحورية إلى جانبه، لن يهتم بأي شيء بعد الآن، فقط أن يبقى في تلك الحديقة إلى الأبد، مستلقيًا إلى جانب الحورية.

وفجأة سمع صوتًا آخر.. امرأة تضحك، لكنها لم تكن الحورية، فهي كانت لا تزال مستلقية إلى جانبه، رفع "سعيد" رأسه، ورأى طيفًا أنثويًّا في نهاية الحديقة.. كانت هذه الفتاة أصغر سنًا، وجاءت إليه، وأيضًا نظرت بإعجاب إلى قضيبه، أحس بشيء دافئ، ورطب، وممتع أسفل بطنه، كانت الحورية الثانية تقبّل الأجزاء الأكثر حساسية من جسده.. تأوه "سعيد" من النشوة، وعندما استلقت إلى جانبه تعرف عليها فجأة، هي الفتاة التي رآها مرة في الصحراء وهو في رحلته مع القافلة.. حدث ذلك منذ فترة طويلة، لكنه لا يزال يتذكرها، ويبدو أنها تتذكره أيضًا، ضغطت بشفتيها على أذن "سعيد" وهمست:

- "حبيبة"، اسمي "حبيبة".

استيقظ "سعيد" مرتعشًا، وأدرك أن كل ما رآه ليس سوى حلم، فكر أن يطلب تفسير الحلم من أحد الوعاظ، ولكنه قرر ألا يفعل ذلك.

في الأشهر التالية كان "سعيد" يتذكر الحلم، فيغلق عينيه حتى يستمتع به.

***

في صباح اليوم التالي، اختبار جديد كان ينتظر الحشاشين الجدد، تم نقلهم إلى خارج "آلموت"، إلى مكان مسطح مليء بالحفر، وكانت الحفر أعمق من شخص متوسط الطول، يسمح عرضها بتحريك الذراعين بحرية، أمر الواعظ الحشاشين دخول الحفر والصلاة، لم يحدد نوعية الصلاة، المهم أن يستمروا في الصلاة لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متتالية، وتم توزيع دلو من المياه لكل حشاش، لم يسمح لهم بالتوقف عن الصلاة إلا لشرب الماء.

بدأ "سعيد" يصلي.. كان الأمر سهلًا في اليوم الأول، وعندما حل الظلام، شعر "سعيد" أن حلقه قد جف، أصابته نوبة من السعال، ساعدته المياه قليلًا، ولكن المشكلة عادت بعد قليل.. منعه السعال من الصلاة، وفي الصباح كان "سعيد" قد فقد صوته، وكان بالكاد ينطق بعض الكلمات، وكانت الكلمات مثل المسامير الحادة، تثقب حلقه وتسبب له ألمًا رهيبًا، وفي الليلة الثانية، استحالت الصلاة بالفعل، فكان "سعيد" يصلي صامتًا، يجبر نفسه على الصلاة؛ لأن كل كلمة كانت تمزق قطعة من جسده وتسبب له ألمًا لا يُطاق.

وفجأة، شعر "سعيد" بارتياح مفرح، كان يصلي من جديد، بهدوء، لم يستطع أن يقول متى أو كيف حدث ذلك، ولكنه كان يصلي، يبدو أن الصلاة هي التي أنقذته من الألم الرهيب.. واصل الصلاة حتى توقف الألم تمامًا، في نعيم هادئ، يرى الله ويسمع الله.. كان الله يدعوه إلى الجنة، وبدأ "سعيد" يحلم في اللحظة التي سيكون فيها قادرًا على الاقتراب من النور، ولم يعد مهتمًا بالمسائل الدنيوية، بل كان يشعر بالحرج داخل قالب الحياة الدنيوية، مثل مسافر في أرض أجنبية، وكان يحلم بالوصول إلى النور، بالوصول إلى حديقة الجنة والعيش هناك خادمًا وضيعًا لمالك الحديقة.. كانت الحياة الأرضية تزعجه، يريد أن يعيش بجانب "حبيبة"، وكانت الحورية قد استولت على قلب "سعيد".

فتح "سعيد" عينيه، وكان مستلقيًا في مشفى "آلموت"، وكان الطبيب، وقد تلقى دعوة من "الحسن الصبَّاح"، خبيرًا في عمله، وكان يضع كمادات على حلق "سعيد".

حاول "سعيد" أن يسأله كم من الوقت كان مستلقيًا هناك، ولكن لم يخرج من حلقه إلا صوت صفير.

- اهدأ.. لا يمكنك التحدث لمدة عشرة أيام على الأقل.. دعني أخبرك خبرًا سارًا، لقد نجحت في اختبار الصلاة، أما الآن، فيجب أن تسترخي وتشرب الأدوية التي حضرتها لك.

ابتسم "سعيد" وأغلق عينيه، فخبر نجاحه أسعده، وكانت روحه تطفو في مكان ما في السماء ولم يهتم بمصير جسده؛ فجسده سوف يصيبه العفن تحت الأرض، وقد رأى طريق الروح.

في نهاية اختبار الإيمان التقى الواعظ النزاري مع الجميع فاستمع إلى أسئلتهم لمعرفة من انحرف عن الإيمان الحق، وكانت الأيام العشرة الأخيرة تهدف إلى بناء الحصانة ضد الديانات الأخرى، وقد تم تحديد درجة تفاني كل حشاش خلال هذا الاختبار ومدى تقربه إلى الله.

بعد اختبار الإيمان، كوفئ الحشاشون بفترة راحة استمرت ثلاثة أيام، يستطيعون في أثنائها التحدث مع بعضهم البعض، وبعد الراحة سوف تبدأ مرحلة التعليم الفكري.

كان لـ"المعلم" و"سعيد" فرصة مشاركة انطباعاتهما للمرة الأولى منذ دخولهما "آلموت"، وتحدث "المعلم" بحماس عن كل إنجازاته التدريبية، على الرغم من أنه لم يحقق الكثير منها؛ فعلى العكس من "سعيد"، كان "المعلم" قد فشل في عدد كبير من التدريبات، لم يكن ناجحًا في التمارين البدنية، لم يكن جسده قويًا، وكان التعب يصيبه بعد فترة قصيرة، ولم يكن المدربون راضين عنه، ولكن لحسن الحظ، نجح "المعلم" في الاختبارات الروحية، دون شكاوى تُذكر من قبل المدربين، وأشار "المعلم" إلى أن مرشده الروحي كان يحضِّر له مهمة خاصة وأنه كان يتطلع إليها.

قرر "سعيد" مشاركة حلمه الغريب مع "المعلم"، وبعد سماع القصة، نظر "المعلم" إلى "سعيد" بشيء من الحسد، ولم يقل شيئًا، وفي تلك اللحظة جاء حشاش وأوصاهم بمهام مختلفة.

وكانت المرحلة التالية والأخيرة من برنامج التدريب هي الأطول.. مُنح الحشاشون فرصة تطوير مهاراتهم اللغوية أو تعلم لغة جديدة، كما حضروا محاضرات عن السموم، وتعلّموا آثارها وترياقها، وكما تعلم الحشاشون كيفية تضميد الجروح واستخدام الأعشاب لوقف نزيف الدم، كما كان مطلوبًا من جنود الله أن يكونوا قادرين على الخياطة وطبخ بعض الوجبات البسيطة.

في نهاية هذه المرحلة، تعلم الحشاشون الدرس الأخير والأهم والذي كان يسمى "درس الحقيقة"، معنى هذا الدرس كان في الواقع على العكس تمامًا من اسمه، فقد تعلم الحشاشون كل ما يتعلق بالكذب: كيفية الكذب بنجاح دون أن يكتشف ذلك أحد، وكيفية كشف كذب الآخرين من تعبيرات الوجه ونظرات العيون، وكان المدرس يقتبس أمثالًا ومقاطع من الكتب المقدسة، والتي كانت شيقة جدًا بسبب مفرداتها الغنية.

قال المدرس: "عندما كان النبي "محمد" يتعرض للاضطهاد، فكر "علي"، وهو زوج ابنته، أن يختبئ النبي في سلة عالية، ووضع السلة الثقيلة على كتفيه، وحاول أن يمر من أمام الحراس، فسأله أحد الجنود: "ماذا لديك داخل سلتك؟ فأجاب "علي": النبي "محمد"، فضحك الحراس وسمحوا له بالمرور.. إن قوة الحقيقة أكبر بكثير مما تتخيلون.. الناس ليسوا مستعدين لسماع الحقيقة وعادة ما يفاجئون بها".

وبعد درس الحقيقة، كان على الحشاشين تنظيم عرض مسرحي يتم تقييمه من قبل "مجلس الحكماء".. حشاش يمثل دور قس مسيحي، أو تاجر تجزئة أو أي شخص

آخر، ويعيش في "آلموت" وفقًا لطبيعة الشخص، وكان "مجلس الحكماء" يتابع تمثيل الحشاش ويصحح له أخطاءه، ويستمر العرض عادة من سبعة إلى خمسة عشر يومًا.

وعند إتمام العرض، يتسلم الحشاش خنجره إشارة إلى أنه قد أكمل المرحلة الأخيرة من الدراسة، وأصبح جندي الله.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت حياة الحشاش ملكًا لله، فإذا مات تحت أي ظرف من الظروف، حتى من مرض أو في حادث، كان يذهب رأسًا إلى الجنة وحور العين.. منذ تلك اللحظة، كان للحشاش رغبة واحدة فقط في الحياة وهي الموت.

(12)
حديث بين الأب والابن

باريس.. 2015 م

عبثًا حاول والد "علي" إخفاء عواطفه، احمر وجهه من الغضب وارتعشت يداه، قطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وكان أبناؤه قد تجمعوا في إحدى الغرف يتناقشون همسًا في الحدث العائلي الكبير، في حين أن ابنته وزوجته كانتا تبكيان في غرفة أخرى.

كانت الأم تنتحب وتقول:

- كارثة! كارثة!

وكانت "عائشة" تحاول أن تواسيها:

- أمي.. إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام.

- أنا لا أعرف، أشعر بالأسف لوالدك.. إنه يعاني الآن.

- أمي، نحن جميعًا نعاني.

- لا، ليس "علي"! قد يكون الأمر مقبولًا من أحد أشقائك، ولكن ليس من "علي"!

واستمرت والدتها في البكاء.. قالت:

- مصائب لا يعرفها إلا الله تنتظرنا.

- أمي.. من الأفضل أن تكونين بجانب أبي.. إنه يعاني أكثر منَّا.

- نعم، عندك حق.. سأحاول أن أكون سندًا له.

غادرت أم "علي" الغرفة بهدوء واقتربت من زوجها، استدار "مصطفى" ورأى زوجته واقفة في ثوب النوم الرمادي تمسح دموعها بمنديل. وقال:

- أنت ملومة على كل هذا!

- عزيزي.. الله يعاقبني إذا كنت أعرف.

- إذا كنت على علم؟ لم أقل إنك كنت تعرفين، هذا هو نتيجة تدليلك له، يتضح الآن أننا لم نترك وطننا فحسب، بل ابتعدنا أيضًا عن تقاليدنا، بل أسوأ من ذلك، عن ديننا.

زوجته لم تجب، انهارت على الأريكة واستمرت في البكاء.

- أنا لا أعرف لماذا تلقي باللوم عليَّ، لقد كنت دائمًا زوجة مخلصة لك وأمًا مثالية لأولادك، لقد أرضعته من لبن التقوى الدينية.

قال والد "علي":

- لا ينبغي أن أسمح له بالذهاب إلى الجامعة هنا، يجب أن أرسله فورًا إلى القاهرة.

في تلك اللحظة، سمعوا أحدهم يفتح الباب ويحاول الدخول بهدوء، هو "علي"، كان يدرك أن والده لن يكون سعيدًا لتأخره، ويأمل أن يكون الجميع نائمين، دخل "علي" غرفة المعيشة، ووضع قدمه على السجاد الفارسي، وتجمد مثل اللص الذي يتم فجأة القبض عليه.

سأل "علي":

- هل حدث شيء؟

فأخذت أمه تبكي بصوتٍ عالٍ، وقال "مصطفى":

- لا شيء.

ثم أمر زوجته أن تترك الغرفة، فذهبت الأم وانضمت إلى بقية أفراد الأسرة الذين كانوا قد حبسوا أنفسهم في الغرفة الأخرى، ولكنهم يريدون أن يسمعوا أيضًا ما سوف يدور بين الأب والابن.

سأله "مصطفى" بغلظة:

- أين كنت؟

- زميلة لي طلبت مني زيارة جدها المريض، لم أستطع أن أرفض.

- آه، لم تستطع أن ترفض، وما سبب عدم استطاعتك؟

ارتبك "علي" ولم يجب، لم يفهم سبب انفعال الأب الشديد.

- لا تستطيع أن ترفض طلبًا لزميلتك، ولكنك تستطيع أن تهمل عائلتك، لماذا لم تفِ بوعدك وتحضر لتناول العشاء مع عائلتك؟ هل هناك شيء أكثر أهمية من العائلة؟

رد "علي":

- جدها مريض ويعيش في دار رعاية.

صاح "مصطفى":

- هذه كارثة، كارثة كبرى!

لم يسبق لـ"علي" أن رأى والده في مثل هذه الحالة، كان ينظر إلى والده مستغربًا، ولا يجد مبررًا لشعوره بالذنب، لم يتصور أن تأخره لتناول العشاء يمكن أن يجعل والده غاضبًا إلى هذا الحد.

- أنت تدمر حياتك، يا "علي".. ربما عندما أكبر أنا أيضًا سوف تأخذني إلى دار لرعاية المسنين، ويبدو أن السلوك المقبول في هذا البلد هو إلقاء المسنين بعيدًا مثل الأشياء غير المجدية، وربما، عندما أكون في دار مسنين، سوف يزورني أصدقاؤك بدلًا عنك.

أثرت هذه الكلمات في "علي"، فمد ذراعيه على الفور يحاول أن يعانق والده.

- ماذا تقول يا أبي؟

دفعه "مصطفى" بعيدًا.

- ماذا أقول؟ أنا أخبرك الحقيقة، أنا أتوقع المستقبل، منذ متى أصبحت عبارة "دار المسنين" طبيعية بالنسبة لك؟

- أبي، إن شعوري في هذه المسألة مثل شعورك تمامًا، ولكن زميلتي طلبت مني ذلك.

- وما اسم زميلتك التي زرت جدها بدلًا عنها؟

فقال "علي" خافضًا رأسه:

- اسمها "ليز".. نحن نتواعد منذ بضعة أشهر.

فصرخ "مصطفى":

- آه، هذا هو الأمر! إنك تقابل فتاة، وأنا متأكد من أنها ليست حتى مسلمة! وهذه قضية أكثر خطورة، ألا تعرف، يا "علي"، أن مواعدة فتاة وتشويه سمعتها وعدم الزواج منها هو ضد ديننا؟ الرجل ليس له الحق في معاملة فتاة بهذه الطريقة، حتى لو كانت كافرة.

فرد "علي" دون أن ينظر إلى وجه والده:

- أبي، أنا لا أسعى إلى تشويه سمعتها.. أنا حقًا أحبها.

فانهار "مصطفى" على الأريكة.

- يا "علي"، يا بني، هل تحبنا نحن، والدك، وأمك، وإخوتك، و"عائشة"؟

- أبي.. أنتم أعز الناس إليَّ.

- "علي"، إن تصرفات الشخص تتحدث عنه، وقد أثبتت أفعالك العكس تمامًا، أنت لا تحبنا، أنت أذيتنا، لقد جلبت لعنة الله على عائلتك، فعندما ينحرف شخص عن إيمانه، فإن عقاب الله لا يتنزل عليه فقط، بل على عائلته وجميع أقاربه.

ظل "علي" هادئًا.. لم يكن يريد أن يجادل والده في المسائل الدينية. تابع "مصطفى":

- الآن استمع لي.. من الآن فصاعدًا، ممنوع عليك إلى أجل غير مسمى مغادرة هذا المنزل، ممنوع عليك الخروج من المنزل بزعم الذهاب للنزهة أو إلى المسجد أو حتى إلى الجامعة، لن تترك المنزل حتى تدرك أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء مشترك بينك وبين هذه الفتاة، أيضًا، أنا لا أسمح لك استخدام الإنترنت أو الموبايل، هذه غواية من غوايات الشيطان، وسوف نكافحها معًا، والآن، أعطني موبايلك واذهب إلى غرفتك ونم.

أراد "علي" أن يعترض، لكنه فضّل أن يذهب إلى غرفته في صمت، حتى لا يغضب والده أكثر، جلس على سريره وأخذ يفكر.. كان رد فعل والده متوقعًا، كان والده دائم الاهتمام بأسرته، يحب أن يكون كل شيء تحت سيطرته وينصاع الكل لأوامره.

ربما هو أيضًا، بعد أن يتزوج، سيحاول أن يسيطر على كل شيء في عائلته، ولكن هذه المرة كان عقاب والده شديدًا.. قرر أن يطلب من صديقه "باتريك" أن يشرح الأمر لـ"ليز"، لن يستمر الأمر أكثر من بضعة أسابيع، يستطيع أن يتحمل ذلك.. إن الفراق سوف يعذب "ليز"، ولكن ليس بيده شيء يفعله.

استلقى "علي" على السرير بقلب ثقيل ونام.

(13)
حلم "علي"

باريس.. 2015 م

حلم "علي" حلمًا غريبًا مثيرًا في تلك الليلة.

في الحلم، فتح "علي" عينيه، وكان في مصر، أو بشكل أدق، في قصر الفرعون في وسط الصحراء.. كان "علي" يقف وسط حشد من الناس الذين تجمعوا أمام القصر لحضور مراسم احتفالية، وكان الناس يتتوقون لمشاهدته، وكان "علي" يشعر بحماس الناس المتدفق أمواجًا.

ومع أصوات الأبواق، خرج الفرعون "أخناتون" إلى شرفة الجسر الذي يربط القصر بالمعبد، وحيا الناس، فعم الفرح الجميع، وكان غريبًا وقوف البروفيسور "موشيه" بجانب "أخناتون"، وقد ارتدى بدلة زرقاء وربطة عنق صفراء، الأمر الذي جعله يبرز عن بقية الناس من حوله.. همس البروفيسور شيئًا لـ"أخناتون"، وهز الفرعون رأسه موافقًا وخاطب شعبه.

- أمرني "آتون" أن أقول شيئًا مهمًا لشعبي.. إنه يريد منا أن نتجه إلى إلهنا الواحد بهذه الصلاة.

وبدأ "أخناتون" يصلي بصوت عالٍ؛ فيردد الحشد الصلاة جملة وراء جملة.

"أبانا الذي لا نراه

ليكن اسمك مضيئًا في السماء

ليكن حكمك أبديًّا

خبزنا كفافنا أعطنا اليوم

واغفر لنا ديوننا الدنيوية

واحمنا من الإغراء والشر

ولنهتف باسم إلهنا: آتون..

فصاح الحشد: "آتون"!

كان البروفيسور "موشيه" يراقب الصلاة بابتسامة ارتياح على وجهه، فجأة، استقرت عينا البروفيسور على "علي" ولوَّح له، ثم نادى على أحد الجنود، وأمره بشيء ما مشيرًا إلى "علي".

وبعد بضع دقائق، اقترب رجلان مزعجان من "علي" وأبلغاه بأن هناك من ينتظره في القصر.. اصطحباه حتى القاعة الملكية، وأشارا له بالدخول، كان "أخناتون"

جالسًا على العرش تمامًا مثل التماثيل التي نحتت له، وكانت عيناه كرتين بيضاوين فارغتين من البؤبؤ، بحيث كان من المستحيل تحديد اتجاه نظره.

سمع صوت "موشيه" يتحدث قائلًا:

- عزيزي "علي"، تقدَّم! يا فرعون، كنت أكلمت عن هذا الصبى.. إنه متدين جدًّا.

لم يقل "أخناتون" شيئًا، بل لم يتجه بوجهه نحو "علي".. اقترب البروفيسور "موشيه" من "علي"، فتأبط ذراعه، واقترب به من "أخناتون".

وسأل "أخناتون":

- يا "موشيه"، هل الصبي يعبد "آتون"؟

رد البروفيسور:

- نعم!

فعارضه "علي":

- لا، إنني أعبد الله، وأتبِّع ملة نبيه "محمد".

انفجر البروفيسور "موشيه" و"أخناتون" يضحكان، وانضم لهما جميع من في القاعة الملكية، أمَّا "علي"، فبعد لحظة ارتباك، قال:

- اضحكوا، ولكن بعد ألفي عام من الآن لن يتذكر أحد "آتون" الذي تتكلمون عنه، وسوف يؤمن الجميع بالإله الحق؛ فازداد الضحك.. "أخناتون" يمسك بطنه، وكأنه يحاول أن يمنعه من الانفجار، أمَّا "موشيه"، فكان يتقلب على السجادة!

قال "أخناتون":

- إن سذاجتك ليست لها حدود، لقد ذقت ثمار الشجرة التي زرعناها نحن، والآن تجرؤ أنت على انتقاد تلك الشجرة.

فرد "علي":

- الإله الواحد الأحد هو الله، ولن تتغير هذه الحقيقة حتى بعد ألف عام.

فتفوه "أخناتون" ساخرًا:

- الحقيقة؟

قال البروفيسور "موشيه":

- إن الحقيقة مرض، قبل خمس سنوات، أتوا برجل يدعى "ديدي" إلى عيادتنا، حيث بقى لمدة شهر، كان قد أنقذ من الغرق في النهر، وأعلن عن موته إكلينيكيًّا.. اهتمت صحف الحوادث بحالته، فاحتل اسمه المانشيتات، ولكن بعد أن استرد الرجل وعيه، لاحقته أشياء غريبة، لسبب ما، أصبح الرجل لا يستطيع أن يكذب، واجه مشكلة مع عائلته؛ لأنه بدأ يرد على أسئلة زوجته بالحقيقة، وعلى سبيل

المثال، علمت زوجته أنه في يوم وقوع الحادث لم يكن "ديدي" في حفل شواء مع أصدقائه، كما كان قد قال مسبقًا، ولكنه كان يلهو مع واحدة من عشيقاته على ضفة النهر، وكان للرجل أربع عشيقات لا يعرفن بعضهن البعض، يقضي معهن أطيب الأوقات، وهكذا تحولت الخيانة إلى فضيحة كبرى، ولكن الزوجة آسرت أن تغفر لزوجها وتنسى الموضوع من أجل أطفالهما، ولكن بعد ذلك، وردًا على واحدة من أسئلة زوجته، أعلن "ديدي" بصدق أنها قبيحة، سمينة ومزعجة الصوت، وأنه سوف يبحث عن عشيقات أخريات.

اتضح أن "ديدي" فقد أيضًا القدرة على المجاملة، التي هي، كما نعرف، نوع لطيف من الكذب، زوجته، عند سماعها لرأي "ديدي" الصريح عنها، قررت أن تتركه آخذة الأطفال معها، وفي أثناء محاكمة الطلاق، اتهمته بأنه شخص معتل اجتماعيًّا، وأعلن "ديدي" للقاضي أن زوجته لم تعد جذابة بالنسبة له وأنه أعتاد على خيانتها مع عدة نساء في الوقت نفسه، وعندما سأله القاضي عن عيب زوجته الرئيسي، أجاب "ديدي" أن زوجته لم يكن لديها عيب معين، تتميز به عن سائر النساء، فطلب القاضي من "ديدي" تحديد عيوب النساء بصفة عامة، فقال إنهن يعشن لفترة طويلة جدًّا، وإنهن من الممكن تحملهن لو عاشت النساء عشرين أو ثلاثين عامًا فقط.

كان القاضي ينظر إلى الزوجة بإشفاق، ولكن عند سماعه لتلك الآراء حكم فورًا بالطلاق، متهمًا "ديدي" بالاختلال الاجتماعي، فتمت مصادرة شقته وبيعها لصالح زوجته، وبعد ذلك بفترة قصيرة، تركته عشيقاته أيضًا؛ لأنه أخبرهن جميعًا عن وجود الأخريات.

اعتقد "ديدي" أن مصائبه قد انتهت عند ذلك الحد، لكنها كانت في بدايتها؛ ففي أحد الأيام، وردًا على سؤال عميل حول سبب تأخر طلبية ما، كشف "ديدي" أنه كان يدخن الماريجوانا في ذلك اليوم، ولم يأتِ إلى العمل، أما في اليوم السابق، فكان مشغولًا بممارسة العادة السرية أمام صورة لـ"كيم كارداشيان".

أُصيب العميل بصدمة شديدة بسبب رد "ديدي" ونُقل إلى المستشفى إثر أزمة قلبية، وطُرد "ديدي" من عمله، وبدأ يبحث عن وظيفة جديدة، لكن صدقه كان له بالمرصاد، لم يستطع كتابة أية معلومات كاذبة في سيرته الذاتية؛ فهو لا يستطيع أن يقول أو يكتب غير الحقيقة المطلقة.

امتلأت حياته بمشكلات مختلفة كثيرة كان من المستحيل التعامل معها جميعًا؛ فحتى التفاعل مع متسول بريء قد يتحول إلى ملاسنة قبيحة، بدأ أصدقاء "ديدي" يتركونه، الواحد تلو الآخر، حتى شقيقته بدأت تتجنبه، لا تتصل به ولا ترد على التليفون عندما يكون هو المتصل.

ثم قال "ديدي" لإحدى جاراته إنها بدينة جدًّا، فبدأت معركة كبيرة في المصعد، وحاول أن يبرر كلماته قائلًا إنه قلق بشأن سلامة المصعد الذي قد لا يتحمل مثل ذلك الثقل، وكان له اشتباك آخر مع طبيبه، وقال له إن رائحته فظيعة، وينبغي عليه الاستحمام أكثر من مرة في اليوم؛ فحص الطبيب "ديدي" ولم يقل شيئًا، كان مشوشًا قليلًا من كلمات "ديدي"، وكان شديد التأدب ليرد عليه بشتيمة أو إهانة، ثم

إن "ديدي" كان يقول الحقيقة، ولكن ليس كرد فعل لإهانة أصابته، كما يفعل الناس عادة، ولكن مدفوعًا بالصراحة.

تعب "ديدي" من قول الحقيقة.. كان يرغب في أن يكون قادرًا على الكذب ليحل واحدة على الأقل من مشكلاته، لكنه لم يستطع، أي شيء لا يتعلق بالحقيقة لا يدخل رأسه.. حار الطبيب في أمر "ديدي" ونظر إليه باندهاش؛ فكلماته وقحة مبتذلة، ولكنه لا يتعمد إهانته، وعلى كلٍ، فقد جاء "ديدي" يطلب علاجًا لتلك المشكلة بالذات.. إنه لا يستطيع أن يكذب، ولا يستطيع أن يقول إلا الحقيقة.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يُخبر فيها أحد المرضى الطبيب بأن رائحته سيئة، في الواقع، كان رائحته سيئة لفترة طويلة ولم يلمح أي شخص من الأطباء أو المعارف بذلك، حتى بلطف وكياسة، ولكن الطبيب تذكر فجأة أنه في أثناء الاجتماعات الدورية كان الزملاء يسألونه عن جيل الاستحمام الذي يستخدمه وأنه بسذاجة يُحسد عليها كان يعطي لهم شروحًا مطولة.. أيقن الطبيب أنهم كانوا يسخرون منه!

سأله الطبيب:

- منذ متى تعاني من هذه المشكلة؟

وقال "ديدي":

- منذ عام تقريبًا، لقد فقدت كل شيء: عائلتي، وظيفتي، أصدقائي.. لقد فقدتهم جميعًا؛ لأنني كنت أقول لهم الحقيقة، والناس يكرهون الحقيقة.

كان الطبيب لا يزال يحدق في "ديدي" مندهشًا.

- هل تعتقد أن الناس يحبون الكذب؟

- اسمح لي أن أكون أكثر وضوحًا، أيها الطبيب.. المشكلة ليست في تأثير الكذب، بل في غياب الحقيقة؛ فالناس يميلون إلى إخفاء الحقيقة، ثمة تقاليد اجتماعية تحجب الحقيقة.. اعترف، من فضلك، أنك لم تستسغ ما قلته لك، وأنك كونت بالفعل رأيًا سلبيًا عني.

قال الطبيب إنه سمع أشياء أكثر فظاعة من مرضاه.. تنهد "ديدي" وقال:

- لا أعرف ما الأشياء الفظيعة التي سمعتها من مرضى آخرين، ولكن اندهاشك الشديد من كلامي يدل على عدم سماعك لحقيقة رائحتك حتى الآن.. إن الحقيقة أصعب شيء في الوجود، ولا يمكن ابتلاعها.. هل يمكنك مساعدتي، أيها الطبيب؟

علق الطبيب أن كل مرض ينبع من مشكلة أعمق.. كل شيء له علاقة بالوعي واللاوعي، وأنه لم يواجه حالة مثل حالته من قبل.. ساد الصمت، وقال الطبيب بنبرة واثقة:

- أنت مريض، ومرضك لا شفاء منه!

وفي ختام قصته، قال البروفسور "موشيه":

- إن الأطباء قد أثبتوا بالفعل أن الحقيقة مرض.

وفي تلك اللحظة سُمع صوت ينادي قائلًا: "الملكة "نفرتيتي" قادمة".

دخلت "نفرتيتي" القاعة بمشيتها المهيبة، تجمَّد "علي" في مكانه.. كانت "نفرتيتى" تشبه "ليز".

صاح "علي":

- "ليز!" ما الذي تفعلينه هنا؟ هل أنت زوجة "أخناتون"؟

فهتفت "ليز":

- نعم! "أخناتون" يحبني كما أنا.. عارض والداك زواجنا، فوافقت أن أكون زوجة "أخناتون".

قام "أخناتون" من على العرش وفتح جناحيه، وطار من النافذة باتجاه الشمس، وامتلأت القاعة بالخنافس الملكية، ونظرت "ليز" إلى "علي" لبضع ثوانٍ، وطارت من النافذة تلاحق "أخناتون".

استيقظ "علي" وعرق بارد يغطيه.

***

وفي الصباح طلب "علي" من شقيقته الاتصال بصديقه "باتريك" ترجوه أن يزوره.. في البداية رفضت "عائشة" مساعدته، ولكن عندما أوضح "علي" أنه يحتاج إلى اقتراض كتب منه، استأذنت "عائشة" والدتها واتصلت بـ"باتريك".

كانت الأم تُحضِّر مائدة الإفطار، وتهز رأسها وتناقش أحداث الليلة الماضية مع "عائشة":

- هل يحق لـ"علي" أن يتصرف معنا بمثل ذلك التصرف؟ نحن نحبه كثيرًا.

ثم أضافت، وهي تدرك أن كلماتها قد تثير غيرة "عائشة":

- والدك وأنا نحب جميع أطفالنا كثيرًا.. الله أمرنا بذلك.

سألت "عائشة" وهي تبحث عن الموبايل في حقيبتها:

- أمي.. هل "علي" مذنب إذا كان يحب تلك الفتاة؟ أليس هناك خيار آخر في هذه الحالة؟

- اسكتي يا "عائشة"، ماذا تقولين؟ لقد انتقلنا من سوريا إلى باريس بحثًا عن حياة آمنة، وليس لنعطي ظهرنا لله عز وجل.. أقول لك الحقيقة، كان والدك ضد هذه الخطوة، وأقنعته أنا بأنها من الأفضل لأطفالنا.. كان يقول إنه من الصعب الحفاظ على تقاليدنا في مدينة كبيرة مليئة بالإغراءات، ولكنني أقنعته بأن الله سوف يساعدنا بتخطي كل المصاعب.. والآن، وفي كل مرة تحدث فيها مشكلة، ينظر إليَّ متهمًا، طبعًا، لا يقول شيئًا، ولكن تكفي نظراته لي، إنها تقتلني.

مدت "عائشة" الموبايل إلى والدتها وقالت:

- ماما.. انظري إلى هذه الصورة التي نشرتها صديقة لي على الـ"فيسبوك".

يبدو أن "عائشة" لم تكن تستمع إلى كلام الأم.

أخذت والدتها الموبايل ونظرت إلى الصورة وقالت:

- "عائشة"، الفتاة التي يراها "علي"، هل هي هنا؟

- هل تقصدين على الـ"فيسبوك"؟ بالطبع.. إنها في قائمة أصدقاء "علي".

- أريني إيَّاها.. أريد أن أرى الفتاة التي سحرت بجمالها ابني.

بحثت "عائشة" عن بروفايل "ليز"، ثم أعطت الموبايل لوالدتها، التي بدورها أمعنت النظر في صورة "ليز" وقالت، وابتسامة لطيفة تعلو وجهها:

- إنها جميلة.

لكنها تابعت على الفور:

- ولكن "علي" أكثر وسامة.

قالت "عائشة":

- إنها ليست فتاة سيئة.

وأضافت:

- لكن ليس لديها على الأرجح أي فكرة عن المشكلات التي يواجهها "علي" مع عائلته بسببها.

قالت الأم بعد لحظة تفكير:

- "عائشة"، ماذا لو أخبرتها ذلك؟ فهي لا تعرف أن "علي" وعائلته يعانون بسببها، ربما لو شرحت لها، قد تتفهم الأمر.. ليس من العدل ألَّا تعرف، و"علي" يحميها بإبقائها جاهلة بهذا الأمر. إن الفتاة المسكينة سوف تعاني أكثر من أي شخص آخر.

- ماذا يمكنني أن أقول لها؟ مرحبًا، عائلة "علي" تكرهك! أمي، لا يمكننا أن نقول أشياء من هذا القبيل في هذا البلد.

- لا ليس هكذا.. مجرد محاولة لشرح أن "علي" نوع مختلف من الرجال وأن اتحادهما مستحيل، فقط اشرحي لها بالتفصيل.. أنت أيضًا فتاة، أخبريني، هل من العدل أن تواعدي رجلًا دون أن تعرفي كل شيء عنه؟

- حسنًا، يا أمي.. سوف أراسل "ليز" على الـ"فيسبوك".

ذهبت "عائشة" إلى غرفتها، وفتحت جهاز الكمبيوتر وتوصلت إلى بروفايل "ليز" على الـ"فيسبوك" وكتبت: "مرحبًا، ليز".

وبعد بضع دقائق، ردت "ليز": "مرحبًا! هل أعرفك؟".

"أنا شقيقة علي".

"حقًا؟ مرحبًا، "عائشة"، أنا سعيدة باتصالك.. هل تعرفين أين "علي"؟ لم أسمع منه منذ أمس!".

"علي في المنزل.. "ليز"، أعتقد أننا بحاجة إلى أن نتحدث".

"حسنًا، فلنتحدث! هل كل شيء على ما يرام؟".

"نعم، بشكل عام، كل شيء على ما يرام، لكن "علي" عاد إلى البيت في وقت متأخر أمس، وغضب والدنا قليلًا".

"أنا متفهمة.. ذهب "علي" لزيارة جدي، لو كنت أعرف أن الزيارة سوف تسبب مشكلة، لما طلبت منه ذلك، ولكن ماذا تعنين بأنه "عاد إلى البيت في وقت متأخر؟" إن "علي" رجل بالغ ولديه حياته الشخصية.. إنه ليس طفلًا صغيرًا".

"حسنًا، أردت أن أتحدث إليك بشأن هذه المسألة، لنتحدث مثل شقيقتين، حاولي أن تفهمينني".

"هل حدث شيء؟ لا أفهم".

"ليز، وُلد "علي" في عائلة مسلمة، مثلي تمامًا، وفي العائلة المسلمة، ليس من العُرف أن يتحدى الأبناء الوالدين، فيتأخرون عن الجلسات العائلية أو الصلوات، ربما يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لكِ، ولكن هذه هي ثقافتنا.. أنتِ من دين وجنسية مختلفين.. أعرف أن كلامي، خاصة أنه كلام على الـ"فيسبوك"، قد يبدو غريبًا أو غير خطير بالنسبة لكِ، ولكن صدقيني، هناك فجوة من الاختلافات الثقافية والدينية بينكِ وبين "علي" لا يمكن التغلب عليها".

"انتظري لحظة، ماذا تقولين؟ قلت إن علينا أن نتحدث مثل شقيقتين، أنا و"علي" نحب بعضنا البعض، ونفهم بعضنا البعض.. كيف تكون هناك فجوة لا يمكن التغلب عليها بين شخصين يحبان بعضهما البعض؟".

"ليز، من فضلك، استمعي إليَّ".

"هل "علي" لا يحبني؟ هل هناك فتاة أخرى في حياته؟".

"علي يحبك.. في الواقع إنه يحبك كثيرًا؛ ولأنه يحبك كثيرًا، فقد تسبب في الكثير من المشكلات في البيت".

"مشكلات في البيت؟ ما شأن البيت بنا؟".

"ليز، لقد أتى بنا والدنا من سوريا إلى باريس في محاولة لجعل حياتنا أكثر أمانًا".

"أنا لا أفهم.. هل أُشكل أنا تهديدًا لـ"علي"؟"

"دعيني أشرح، والدنا يرفض علاقتكما، وهذا ليس رأيًا وقتيًا، بل إنه تعبيرٌ عن ديننا وثقافتنا".

"ما الذي يعنيه هذا؟ نحن لسنا متزوجين بعد، لم يقترح "علي" الزواج، وحتى إذا فعل، لست متأكدة من أنني مستعدة للزواج الآن، أما بالنسبة لموقف والدك، فإنه ليس له أي تأثير في أمرنا، وكان عليه أن يختار في وقت من الأوقات ولقد اختار والدتك، في تلك الحالة فقط كان من حقه اتخاذ موقف مع الزواج أو ضده، في تلك الحالة فقط".

"ليز، لا تُدار الأمور عندنا بمثل ذلك المنطق، ولهذا قلت إن هناك اختلافًا في العقلية".

"وما الفرق؟ هل لأنكم لا تأكلون لحم الخنزير، ويأكله والديّ؟ لقد أصبحتم سجناء التقاليد".

"الفرق ليس فقط في أكل لحم الخنزير.. لا أستطيع أن أصدق أن لديك مثل هذا الفهم السطحي لديننا والشخص الذي تريدين الحياة معه يؤمن بذلك الدين".

"مرة أخرى، تفترضين أمورًا لم تحدث.. أكرر: أنا لن أتزوج في المستقبل القريب، فوفقًا لديني، الزواج مسئولية كبيرة جدًّا، ويجب ألَّا نتخذ مثل هذا القرار المهم على عجل".

"ليز، إن "علي" يحبك، وانطلاقًا من رد فعلك، أنت تحبينه أيضًا.. لماذا لا تحاولين أن تفهميني؟".

"هل تفهمين أنت كيف يبدو الأمر لي؟ لقد كتبتِ أنتِ لي: "مرحبًا، "ليز"، أنا أخت "علي".. إن عائلته ضدك".

"لستِ أنتِ المشكلة".

"حسنًا، ما المشكلة إذًا؟ ديانتي؟ والديّ؟ جنسيتي؟".

"ليز، حتى لو عارض "علي" رغبات والديه واستمر في لقائك، سوف تشعرين بالرفض، وسوف تكونين الإنسانة التي من أجلها عارض "علي" والديه ومعتقداته الدينية".

"يا إلهي.. لقد أهنتيني بكل طريقة ممكنة".

"هذه هي الحقيقة، "ليز"، وإذا استمرت علاقتكما، فإن عائلته سوف ترفضه هو أيضًا".

بعد هذه الجملة الأخيرة، لم تستجب "ليز" لمدة خمس عشرة دقيقة تقريبًا.. كانت "عائشة "على وشك إغلاق الكمبيوتر عندما جاءت رسالة طويلة من "ليز".

"عائشة"، أختي، أنا أحب "علي"، وهو رجل مرهف الأحاسيس، يراعي مشاعري، يندر وجود رجل مثله هذه الأيام.. أشعر أنني أميرة وأنا معه.. لا أريد أن أغوص في تفاصيل علاقتنا، ولكنني متأكدة من أنك تقولين الحقيقة عن موقف عائلتك مني، لقد سببت لـ"علي" مشكلات كثيرة لم يخبرني هو عنها، أنا لن أؤذي الرجل الذي أحبه.. إن وجودي في حياته يسبب له الآلام، كنت فتاة تافهة لا تفهم

حقائق الأمور، أقنعني يوم أمس أنه يريد زيارة جدي حتى نتمكن من قضاء نصف ساعة إضافية معًا، ولكن لا يهم، لا يمكننا الاستمرار.. من اليوم سوف أقطع علاقتي بـ"علي"، لن أراه، لن أتصل به ولن أتواصل معه عبر الإنترنت، غدًا، سوف أذهب إلى الجامعة وأغير المجموعة التي أدرس فيها، أعتقد أن هذا هو القرار الصحيح، لا أستطيع أن أكون السبب في معاناة حبيبي.. الوداع، يا "عائشة"، ربنا معكِ".

لم تعرف "عائشة" ماذا تقول، أغلقت الكمبيوتر وجلست تفكر.. كانت تفهم كيف تشعر "ليز"، كانت ترى دموعها بين سطور رسالتها الأخيرة؛ فالفتيات في سنها دائمًا ما يكن مهووسات بالحب وعذاباته، يتحدثن مع بعضهن البعض عن أصدقائهن، يحكين كل التفاصيل، حتى الجنسية منها، وكانت "عائشة" تكتفي بدور المستمعة، مع أن بعض القصص كانت تسبب لها حرجًا شديدًا، أمَّا هي فكانت ممنوعة من مواعدة الفتيان.. إن دينها يُحرم ذلك، ولن يسمح الوالدان بلقاء أي رجل، إلا إذا كان يرغب في أن يتزوجها.. شعرت "عائشة" بالغيرة من "ليز"؛ فهي شجاعة ومستقلة حتى في معاناتها، لها القدرة على اتخاذ قراراتها بنفسها، هي التي تقرر أن تستمر في رؤية "علي" أو أن تبتعد عنه، في حين أن "عائشة" حُرمت من حق اتخاذ القرارات بشأن مصيرها.

كانت "عائشة" تفكر عندما رن جرس الباب، خرجت من غرفتها وفتحت الباب الأمامي.. القادم كان "باتريك"، زميل "علي".

- مرحبًا "عائشة"!

قالها "باتريك" واحمر وجهه قليلًا من الخجل.

- مرحبًا "باتريك".. تعالَ، سأُخبر "علي" أنك هنا.

ونادت:

- "علي"، صديقك "باتريك" هنا".

ثم قالت لـ"باتريك":

- تفضل بالجلوس.

فجلس "باتريك" على الأريكة قائلًا:

- ميرسي، مادموازيل.

كان "باتريك" يشعر برومانسية اللحظة، ولكن "علي" فتح باب غرفة نومه وصاح:

- تعالَ إلى غرفتي.. يجب أن نتكلم.

سأله "باتريك":

- هل حدث شيء؟

- تعالَ إلى غرفتي وسأخبرك.

أغلق الولدان الباب للتحدث في موضوعاتهما الصبيانية، أمَّا "عائشة"، فبقت في غرفة المعيشة لبضع لحظات وهي تبتسم، ثم ذهبت إلى المطبخ.

وفي الوقت نفسه، كان "علي" و"باتريك" يتبادلان حديثًا جادًا.. حكى "علي" أحداث اليوم السابق وعقاب الوالد له.

قال "باتريك":

- نعم، لديك مشكلات، وأنا لا أعرف كيف أساعدك.

- أعطني موبايلك، أريد أن أشرح لـ"ليز" كل شيء.

أعطاه "باتريك" موبايله.. كان "علي" منفعلًا، يحاول السيطرة على مشاعره وهو يطلب "ليز":

- مرحبًا "ليز"، أنا لست "باتريك"، أنا "علي".. "ليز"؟ "ليز"؟

- ماذا؟ ماذا قالت؟

- قُطع الخط.

حاول "علي" مرارًا وتكرارًا الاتصال بـ"ليز"، ولكن لم يكن هناك أي رد.

قال "باتريك":

- ربما الوقت ليس مناسبًا، ربما تكون في محاضرة أو امتحان.

قال "علي" يائسًا:

- أعتقد ذلك، فهي لم تتجاهلني أبدًا.

- اسمع، هل ستدوم العقوبة طويلًا؟

- لا أعرف، والدي غاضبٌ جدًّا، لستُ متأكدًا، ولكن من المحتمل أن تستمر أسبوعًا على الأقل.

- وماذا ستفعل؟ كيف ستقضي الوقت؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة. ربما سأقرأ فقط حتى انتهاء العقوبة.

قال "باتريك" هامسًا:

- اسمع، تعرف ما أفكر فيه؟

- ماذا؟

- إذا لم تتصل بك "ليز" اليوم، ألا تستطيع أن تتسلل إلى الخارج هذه الليلة؟

- نظريًّا، نعم.. كل شيء ممكن، ولكن بعد أن تنام العائلة.. وأتسلل إلى أين؟

- إلى ملهى ليلي، سوف نجتمع هناك للاحتفال بنهاية موسم الامتحان.. تعالَ أنت أيضًا، واشرح كل شيء لحبيبتك "ليز"، وتعود إلى غرفتك قبل الصباح، ولماذا لا

تحضر "عائشة" معك؟

حاول "باتريك" أن ينطق الكلمات الأخيرة بشيء من اللامبالاة، لكنه فشل، أمَّا "علي"، فلم يرَ حتى احمرار وجه صديقه، فقد كان يحاول الاتصال بـ"ليز".

سأل "علي":

- هل الملهى بعيد؟

- في الطرف الآخر من المدينة، ولكن التاكسي يقطع المسافة في بضع دقائق.. دعني أكتب لك اسم الملهى وعنوانه.

- حسنًا، أكتب العنوان وسأحاول أن آتي، ولكن كيف سأعود؟ ربما آخذ مفاتيح "عائشة".

كتب "باتريك" شيئًا على قطعة ورق ووضعها على الطاولة.

- عندما تصل إلى الملهى، أخبر الحارس أنك تشارك في احتفالية الطلاب، وسوف أترك لك تذكرة دخول، فلو قابلتك أي صعوبة، دعهم يتصلون بي.. حسنًا، إلى اللقاء، أنا مشغول قليلًا ببعض الأمور.

ودَّع الصديقان بعضهما البعض، وخرج "باتريك" من الغرفة.

نادت والدة "علي" من المطبخ:

- إلى أين أنت ذاهب، يا "باتريك"؟ اجلس واشرب فنجانًا من القهوة.

- شكرًا يا سيدتي، ولكن مرة أخرى.

غادر "باتريك" منزل صديقه بسرعة.

(14)

رسائل الفرسان الصليبيين إلى البابا "أوربانوس الثاني"

كليرمون.. 1096 م

- ما هي الأخبار من الشرق؟

سأل البابا وهو يجلس على عرشه.

- كيف تسير أمور الحج؟

وضع "أودو" مجموعة من الأوراق على الطاولة، وبدأ يفحصها بعناية.

- سأختار أهمها الآن وأبلغك بها.

فقال "أوربانوس" بحدة:

- لا تختار، اقرأ علي كل شيء، أنا لست في عجلة من أمري.. تذكر، يا "أودو"، أنا الذي أقرر أهمية الرسائل.

قال "أودو" دون أن يهتم باستياء البابا:

- إن قراءة جميع الرسائل قد تستغرق أيامًا عديدة، وهي تحتوي في الغالب على تمنيات طيبة وطلبات للبركة البابوية، ترافقها مدح الذات، لقد اخترت الرسائل التي تعطي وصفًا تفصيليًّا للأعمال العسكرية، ويجب أن تعلم أن كل قائد يكافئ كاتب رسالته بمبلغ كبير من المال حتى يبالغ في مآثره مع تهميش أنشطة القادة الآخرين، لو صدقنا تلك الرسائل دون تحفظ، لن نعرف الحقيقة.. كل حرف من هذه الرسائل يُعطي انطباعًا بأن القائد يقوم بتنفيذ الحملة بأكملها بنفسه، وجميع القادة الآخرين هم جبناء ومتطفلون.

مد "أودو" حزمة من الأوراق إلى "أوربانوس" وواصل:

- ها هم.. فمثلًا "هيو"، الأخ الأصغر لملك فرنسا، يرسل لك تحياته، ويكرر إخلاصه، ويطلب البركات البابوية، لا ينسى أن يذكر أنه أكثر إخلاصًا للبابا من أخيه.

قال "أوربانوس":

- ربما الأمر كذلك فعلًا.

فعلق "أودو" بابتسامة:

- وربما عينه على عرش أخيه.

وقال "أوربانوس":

- هل سمعت عن القائد الجديد؟ اسمه "مارك"، ويقال إنه من ألمانيا، وهو معروف باسم "مارك الذي لا يرحم"، سمعت أنه قوي الإرادة وداهية في أمور الحرب.

- هو رجل مجهول من أصل غير معروف أصبح مشهورًا بسبب هذه الحملة، ليس لدينا معلومات محددة عن ماضيه، ومن ثم يمكننا أن نفترض أنه من عامة الناس.. يقال إنه كان سائسًا لفارس من الفرسان وبدأ سيرته العسكرية بعد وفاة سيده، وأنا لا أستطيع أن أضمن صدق هذه المعلومات- "مارك" نفسه يخفي ماضيه- لا أحد يعرف أي شيء عنه، لكنني أتفق معك أنه داهية في أمور الحرب، وخسائره قليلة في المعارك، وهو دائمًا يفوز فيها، ويقال إنه صارم جدًّا مع جنوده، وهناك الكثير من القصص عنه.. دعني أرتب الرسائل، وسوف أشير إلى مآثره لاحقًا.

- وما الذي يكتبه القادة الآخرون عنه؟

- القادة الآخرون ينتقدونه باستمرار.. إنهم يسمونه رجلًا أميًّا لا أصول له، لا يتقن فنون الدفاع عن النفس، لا يعرف شيئًا عن الاختلافات بين أنواع الأسلحة النارية، وإنه يتعين عليه دراسة كيفية قيادة المعرك، و إن معرفته المسيحية قليلة جدًّا، لا يعرف علم اللاهوت على الإطلاق، وهو وقِّح ومتعجرف مع الفرسان والقادة الآخرين.. أعتقد أننا من كل هذه الشكاوى يمكننا أن نستنتج أن "مارك" قائد عسكري كبير، تملأ نجاحاته الباهرة الآخرين بالحسد فيحاولون تشويه اسمه.

- استنتاجك مثير للاهتمام، يا "أودو".. هل تعتقد أن شكوى الآخرين تدل على أنه رجل صالح؟

- لم أقل إنه رجل صالح، أنا لا أعرف أي نوع من الرجال هو، وبصراحة هذا ليس مهمًا، لقد توصلت للتو إلى استنتاج بأنه قائد جيد.. إن القوة الدافعة التي تقود القادة الآخرين إلى الشرق هي المجد العسكري، وأنا متأكد من أنهم يخططون لتحويله إلى سلطة سياسية في المستقبل، فكلما زاد مجدهم في ساحة المعركة، زاد تأثيرهم السياسي في أوقات السلم؛ فالقادة الأكثر تمجيدًا في المعارك سوف ينالون أعظم الجوائز من أراضٍ وألقاب.

وقال "أوربانوس":

- كلامك منطقي تمامًا.

- ومن المنطقي أيضًا أن هناك الآن منافسة شرسة بين القادة.. إنهم جميعًا ينفقون مبالغ ضخمة من المال لترك أثرهم في التاريخ، وفي هذا الصدد، فإن همهم الأساسي هو كسب رضاك، ولذلك ممكن القول إنهم يقاتلون من أجلك، وهم على استعداد للحط من قدر الآخرين من أجل تضخيم مآثرهم، ومن المنطقي أن ينال القائد الأقوى أكبر قدر ممكن من التشويه، وهكذا، يمكننا الاستنتاج بأن نجاحات "مارك" في ساحة المعركة أكبر من تلك التي يحققها القادة الآخرون مجتمعين، وبالمناسبة، لقد تلقينا أقل قدر من الرسائل من "مارك".. في الواقع، لم نتلقَ أي

رسائل منه حتى وقت قريب، باستثناء تلك التي تحتوي على التمنيات الطيبة وتطلب البركات منك، لم يكتب "مارك" عن أعماله العسكرية إلا مؤخرًا.

فسأل "أوربانوس":

- وماذا يكتب؟

- لا شيء مثير للاهتمام، كان مهتمًا، كالمعتاد، بصحتك، وكتب بضع كلمات عن الوضع العسكري، وقد وصف معظم أعماله دون ذكر أخطاء وأوجه قصور الآخرين، إذا كنت مهتمًا بالوضع العسكري، من الأفضل أن أقرأ لك رسالة من "ريمون" من تولوز، حيث يتم وصف كل شيء بدقة وبشكل صحيح، بطبيعة الحال، فإن رسائل "ريمون" يجب أن نقرنها برسائل الأسقف "أدهيمار" حتى تكون لدينا صورة دقيقة حقًا لما يحدث.

- جيد جدًّا، سنعود إلى القائد "مارك" لاحقًا، أرسل له رسالة مع بركاتي، فهو يستحقها، واقرأ لي الآن رسالة "ريمون تولوز"، حتى نتمكن من فهم ما يحدث على جبهات الحرب.

فأخذ "أودو" واحدة من الرسائل وقرأ:

- إلى الكاهن الأقدس، منارة ضوء الله، "أوربانوس الثاني".. صاحب القداسة، بعد المشي لمدة أربعة أشهر، وصل الفرسان أخيرًا إلى القسطنطينية.

دعا الإمبراطور "ألكسندر" قادة الحملة الصليبية إلى قصره في اليوم نفسه، وقد أقيمت على شرفنا كل المراسم الواجبة، وفي العشاء الرسمي طالب الإمبراطور أن تكون الأراضي المحررة تحت سيطرة بيزنطة، وطالب جميع القادة المشاركين في الحملة بأن يحلفوا على الكتاب المقدس بهذا، وقال الإمبراطور أيضًا إن بعد انتهاء الحملة المقدسة سوف يعود الصليبيون إلى أوروبا، وهو الذي سيحمي كل الأراضي المحررة، ويُخضعها لسلطة البابا بقواته العسكرية، وقال إننا جميعًا نكافح من أجل الهدف نفسه، وهو تدمير الكفَّار وإعلاء السلطة البابوية.

قال البابا:

- نهج مثير للاهتمام.. من الصعب أن نفهمه، ولكنه مثير للاهتمام، أولًا، يطلب مني الإمبراطور "ألكسندر" أن أبعث له جيشًا لحمايته، ومن ثم يضع شروطًا على ذلك الجيش.

قال "أودو":

- لنزن الأمور بالمنطق، كان الإمبراطور قد طلب منك قوة صغيرة لحمايته، ولكننا بدأنا حملة واسعة النطاق، ربما كنا نسميها بالحج، ولكن جوهر الحملة لم يتغير؛ فالفرسان ليسوا مشغولين بالوعظ في الشرق، هم يحررون كل البلدان الواقعة تحت سيطرة الكفَّار، وهكذا تنشأ مشكلة إخضاع تلك المدن والقلاع.. هل لدينا ما يكفي من القوات للحفاظ على القلاع المحررة تحت سيطرتنا؟ هل سيؤسس فرساننا مساكن

دائمة في تلك المدن؟ لقد أثار "ألكسندر"، بدهائه المعتاد، أسئلة محددة، مما دعا فرساننا إلى أن يأخذوا الحذر منه.

فأمره البابا:

- حسنًا، واصل القراءة، لنرى كيف تم حل هذه المشكلة.

فاستكمل "أودو" قراءة الرسالة:

- في البداية، كنا نرى أن هذه الشروط غير مقبولة بالنسبة لنا.. كان "ألكسندر" يحاول إقناعنا بأنه سيكون من الأفضل لنا جميعًا أن نوافق على شروطه، وقد هددنا أيضًا بعدم دعم الحملة بأي شكل من الأشكال، وواقع الأمر، أنه عند وصولنا إلى "القسطنطينية"، كانت إمدادات الغذاء في الجيش قد استُنفدت تقريبًا، ودون مساعدة "ألكسندر"، لم يكن في استطاعتنا المضي قُدمًا، حتى ممثِّل البابا، الأسقف "أدهيمار"، عجز عن تقديم المشورة المفيدة لنا، وأخيرًا، وبعد التشاور مع بعضهم البعض، قَبِل القادة شروط "ألكسندر"، لقد حلفنا جميعًا اليمين للتنازل عن الأراضي المحررة إلى "بيزنطة"، لكن الأسقف "أدهيمار" اشترط على أن البابا "أوربانوس الثاني" يجب أن يوافق على القسم، وإلا فإنه سيفقد قوته.

وافق "ألكسندر" على ذلك الشرط، وفي الصباح بدأ جيشنا عبور مضيق "البوسفور"، فودعنا قارة "أوروبا" واتجهنا إلى أعماق أراضي العدو، وعلى ما يبدو، لم يرغب الإمبراطور "ألكسندر" في أن نبقى معه لفترة طويلة، وعلى هذا تم نقل جيشنا عبر مضيق البوسفور في أسرع وقت ممكن، وبعد خمسة أيام، لم يتبقَ أحد من قواتنا على الساحل الأوروبي.

قال "أوربانوس":

- كل الثناء لـ"أدهيمار"! عندما فشل القادة في اتخاذ قرار، تدخل "أدهيمار" بحل ممتاز.. برافو! إنه حل جدير بالثناء فعلًا!

- بعد أسبوع، حاصر الصليبيون مدينة "نيقية"، وقبل حصار المدينة، خاضت الحملة معركة تميزت بحادث مثير جدًا، علمنا بوجود قوة في الجيش التركي هم رماة السهام الذين يمتطون الخيول، يحيطون أعداءهم في أثناء المعركة ويطلقون عليهم السهام، وهم لا يشاركون مباشرة في المعركة، وبالتالي فمن الصعب التغلب عليهم بالسيوف، ويستحيل تقريبًا لرماتنا استهدافهم؛ لأن خيولهم تتحرك بسرعة كبيرة.

الأضرار الناجمة عن هؤلاء الرماة لا تُحصى؛ لأن سهامهم تستطيع اختراق الدروع من مسافة قصيرة، وقد قررنا أن ندخل المعركة؛ لأن الله يباركنا ويلعن الكفار.

نقلنا سلاح الفرسان إلى ساحة المعركة واتخذوا مواقعهم، وأطلق الكفار السهام وكان عددهم كبيرًا، ومع نفخ أبواق الحرب، بدأ الفرسان الصليبيون الهجوم، فجأةً خرجت خيول الصليبيين، وكانوا من الذكور حصرًا، عن السيطرة واتجهوا نحو

الرُماة الأعداء، أمَّا أحصنة الكفار فلم تمتثل لأوامر التراجع، وهكذا استطاع فرساننا الوصول إليهم وقتلهم على الفور، خرجت الخيول من الجانبين عن طاعة أسيادها ملبية لنداء الجنس، فاستغل فرساننا هذا الوضع، وسرعان ما حققوا الانتصار دون صعوبات تذكر.

ابتسم "أوربانوس" وقال:

- هكذا ينعم الله علينا ببركاته! نحن نسير على الطريق الصحيح، قضيتنا عادلة! الكفار ليس لديهم أي فرصة للانتصار، على الرغم من أن قواتهم أكثر استعدادًا من قواتنا.

فعلَّق "أودو" ساخرًا:

- لا أستطيع أن أجد كلمات تقول غير ذلك! يبدو أن تفسيرك منطقي.

واستمر في قراءة الرسالة:

- بعد انتهاء المعركة، واصلت خيول فرساننا سلوكها غير المنضبط، تطارد أحصنة الكفَّار وعم التزاوج على ساحة المعركة، وكما أشرت سابقًا، كان فرساننا يمتطون أفضل الفحول، الذين عند رؤية إناث الخيل شرعت في الجماع معها في ساحة المعركة، يبدو أن الحب بين الحيوانات فاز في معركة بدأت بين قوى غير متكافئة.. الحَبر الأعظم، إنك في خطبك وصلواتك تسلط الضوء دومًا على أهمية الحب وتجلياته في حياة المسيحيين.. الحب قوة هائلة ويمكن أن يخلق المعجزات، حتى ولو كان حبًا بين الحيوانات، لقد رأينا ذلك بأعيننا، نتوق إلى بركات قداستكم، ولا بدَّ لي من أن أضيف أن "نيقية" قد استسلمت بعد حصار دام شهرين، لكنَّ حدثًا صغيرًا وقع خلال هذا الوقت فقلل من فرح النصر.

فقال "أوربانوس":

- كل شيء في يد الرب، لا تسقط ورقة شجرة دون علمه، استمر في قراءة الرسالة يا "أودو"، أريد أن أعرف ما حدث في أثناء تحرير "نيقية".

فقال "أودو" ضاحكًا:

- أتخيل صورة الميدان بعد المعركة، مئات من الخيول منغمسة في مسرات عاطفية بجوار جثث الكفار!

فصاح البابا:

- "أودو"، استمر في القراءة!

- في غضون شهرين من حصار "نيقية"، أُصيبت القوات المحاصرة في القلعة بالذعر، ووفقًا لمعلوماتنا، استنفدت الإمدادات الغذائية وانتهى أيضًا مخزون المياه الصالحة للشرب، لم يكن للكفار، مع قواتهم الصغيرة، فرصة للدخول في معركة مفتوحة معنا، كان استسلام "نيقية" مسألة أيام، وبعد شهرين، ألقى قائد المدينة المحاصرة خطابًا أعلن فيه عزمه على تسليم المدينة، ولكن إلى الإمبراطور

البيزنطي، وليس للصليبيين، اتضح أن "ألكسندر" قد أرسل مبعوثا سريًا إلى المدينة أقنع فيه قائد القلعة بالاستسلام للإمبراطور، ووعد بحماية غير المؤمنين من انتقامنا، لم يسعد هذا التطور قادة الحملة؛ لأننا كنا قد أقسمنا أننا سوف نسلِّم المدن المحررة إلى بيزنطة ولكن مع بركات وموافقة قداستك، كانت خطوة "ألكسندر" مؤامرة ضد الصليبيين، الذين تركوا "نيقية" دون الحصول على أي شيء منها بعد حصارها لمدة شهرين، وهكذا فقد أخذ الإمبراطور "ألكسندر" المدينة عَنْوةً، أيها الحبر الأعظم، نلتمس بركاتك، التي ينقلها لنا الأسقف "أدهيمار" كل يوم؛ لترافقنا صلواتك، وتعزز من قوة إيماننا.

إن الكفار في حالة من الذعر، والحملة الصليبية سوف تصل إلى "أورشليم" في غضون أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر إذا واصلوا التقدم بهذه الهمة والعزيمة، خادمكم المتواضع، الدوق "ريمون تولوز".

أنهى "أودو" قراءة الرسالة، وألقى نظرة متسائلة على "أوربانوس".

قال البابا غاضبًا:

- لقد احتال "ألكسندر" علينا وسوف يدفع الثمن! أرسل له الآن رسالة تهنئة ذات لهجة ساخرة على ضم "نيقية"، ولتكن السخرية واضحة جلية.. أريد أن يفهم أنه قد حُرم من رحمتي.

فتساءل "أودو" مندهشًا:

- هل هذا كل شيء؟ أن نكتفي بإرسال رسالة تهنئة ساخرة؟

أجاب "أوربانوس" بعصبية:

- هذا كل شيء الآن، لن نتخذ أي إجراء آخر، فكل قواتنا تقريبًا تحارب في الشرق، والكثير يعتمد على "ألكسندر" في الوقت الحالي، وهو يعرف ذلك، ويريد أن يستفيد من الأمر بأقصى قدر ممكن.

قال "أودو" بعد تفكير:

- إنني لا أرى خطرًا داهمًا علينا في سلوك "ألكسندر".. إن نهاية الحملة لا تزال بعيدةً وقواتنا لا تزال تعتمد عليه.

- ما الذي تقصده بالقول إن النهاية لا تزال بعيدةً؟ كتب "ريمون" في رسالته أنهم سيوجدون في "أورشليم" في غضون أسبوعين.

كانت ضحكة "أودو" هادئة:

- كُتبت هذه الرسالة قبل أربعة أشهر، ووفقا لمعلوماتي، لا يزال الحجَّاج في جبال طوروس وهي صعبة الاجتياز، وسيكون من الصعب جدًّا عليهم التغلب على ذلك الجزء من الطريق، حتى دون مواجهة أي معارك، وبعد جبال طوروس، هناك العديد من المدن الكبرى في طريق الحملة، مثل الرها، وأنطاكية، ودمشق، لن نستطيع الوصول إلى "أورشليم" إلا بعد التغلب عليها جميعًا، ووفقًا لبياناتنا،

أصعب معقل في طريق الحملة هو أنطاكية، لذا يجب النظر إلى رسالة "ريمون تولوز" كطموح عسكري وليس أكثر من هذا.

- هذا ليس جيدًا، وما تحليلك للوضع؟

قال "أودو" بعد أن فكر مليًّا:

- أنا متأكد من أن الأمر سوف يستغرق أكثر من عام.

وأضاف:

- وهذا في حال عدم ظهور عقبات يصعب التغلب عليها.

"أوربانوس" لم يعجبه تحليل "أودو"، فقال بعد لحظات تفكير:

- حسنًا، سوف نتحدث عن هذا لاحقًا، ماذا كنت ستقول عن القائد "مارك"؟ كيف أصبح معروفًا؟

- لم نكن نعرف شيئًا عن القائد "مارك" حتى مجزرة اليهود في مدينة "ورمز" الألمانية.

- أتذكر تلك الأحداث، كانت عبارة عن اشتباكات قبل الحملة الفعلية، أليس كذلك؟

- نعم، كان "مارك" ومؤيدوه يعانون نقصًا في المال والأغذية قبل وقت طويل من الوصول إلى مدينة "ورمز"، ونظّم مجزرة لأغنياء اليهود لنهب أموالهم وممتلكاتهم، مبررًا ذلك بالقول إن المسيح قُتل من قبل اليهود، لذلك يجب أن يكرههم المسيحيون بقدر ما يكرهون المسلمين، ودمَّر أنصار "مارك" كل شيء في المدينة، قتلوا اليهود واستولوا على ممتلكاتهم وأموالهم، وكانت تلك المجزرة سبب حصوله على لقب "الشرس الذي لا يرحم".. إن "مارك" يسيطر تمامًا على رجاله، وجيشه مستعد لتنفيذ أكثر أوامره جنونًا، ويُقال كذلك إنه وُلد قائدًا وإن موهبته العسكرية فطرية.

في تلك اللحظة فُتح الباب قليلًا، وأطلَّ كاردينال يحمل صولجانًا برأسه من خلال فتحة الباب وقال:

- أيها الكاهن الأقدس، هل تأذن لي بالدخول؟

فصاح "أوربانوس" غاضبًا:

- بالطبع لا! ألا ترى أنني ومستشاري "أودو" نناقش القضايا المتعلقة بالحملة الصليبية؟

ارتبك الكاردينال:

- قداسة البابا، أنا آسف، لم أكن أعرف.

- وهل عرفت الآن؟ اتركني واعفني من عناء تكرار الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا، عندما أكون مع مستشاري، حاول ألا تزعجني لأي سبب من الأسباب.

انحنى الكاردينال صاغرًا للأمر البابوي وانسحب بهدوء.

وقال "أوربانوس" غاضبًا:

- لقد تعبت من تكرار الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا! أنا لا أعتقد أن الكرادلة أغبياء لهذه الدرجة، قد يكون السبب موقفك غير الودي تجاه حاشية القصر البابوي، إنهم لا يحبونك، يا "أودو"، ويتجاهلون وجودك.. أرجو أن تفكِّر في كلامي وتحاول أن تفعل شيئًا حيال هذا الوضع غير السار، حاول أن تقيم معهم علاقات جيدة، حسنًا، يا "أودو"؟

ولكن "أودو" لم يعد موجودًا في الغرفة، وكانت الرسائل الواردة من "ريمون تولوز" والقادة الآخرين لا تزال على الطاولة، لم يكن هناك أي شخص آخر في الغرفة غير الحبر الأعظم.

(15)
الصليبيون في "أنطاكية"

1098 م

كانت مدينة أنطاكية بمثابة حصن منيع، أسوارها عالية بطول عشرة رجال وسميكة بحيث يمكنك بناء البيوت داخلها.

لم يكن لـ"مارك" جيش كبير، وكان قد خسر جزءًا كبيرًا من قواته بسبب هطول أمطار غزيرة على جبل طوروس، حيث تعذّر عبور الجبل فتحوّل إلى مقبرة لكثير من الجنود، قُتل عدد آخر من الجنود في أثناء العمليات العسكرية في مدينة "الرها"، والآن، عند أسوار أنطاكية لم يكن لـ"مارك" إلا ثلث جيشه الصليبي، وكان الجنود في حالة تعب وإحباط، وقد ازدادوا يأسًا عند رؤيتهم أسوار أنطاكية العالية.

لم يتصور أيٌّ من الصليبيين، حتى أولئك الذين تمرسوا في المعارك الدموية، كيف يمكن فتح تلك القلعة المنيعة، لن ينجحوا في ذلك إلا بمعجزة من الله، وبعد أن قطعوا آلاف الأميال للوصول إلى هناك.

أحد قادة الجيش، في محاولة لإظهار تميزه عن الآخرين، اقترب من بوابة المدينة، ودعا سكان أنطاكية للاستسلام لحجاج الرب، مهددًا إيَّاهم بالقتل إذا لم يستسلموا، لكن أنطاكية لم ترد، كانت البلدة صامتة، تمامًا مثل الجدران الحجرية المحيطة بها، ولم يبقَ أمام الصليبيين إلا محاولة اقتحامها بالقوة.

بعد بضعة أشهر من الحصار، وبناءً على دعوة الأسقف "أدهيمار"، تم فصل النساء من معسكر الجيش، وقال الأسقف إن الله قد أدار ظهره إلى الصليبيين؛ لأنهم تحولوا عن غايتهم المقدسة وانغمسوا في الزنا، وغير ذلك من السلوك المبتذل، ولكن حتى إبعاد جميع النساء من معسكر الصليبيين لم يؤدِ إلى أي تقدم عسكري، ظلت القلعة كما هي، عصية على الاختراق.

وذات مساء اجتمع القادة العسكريون ومستشاروهم؛ لمناقشة المشكلات التي فشلوا في التغلب عليها بعد شهرين من محاصرة القلعة، وكان معظم القادة يواجهون مثل تلك الأسوار العالية السميكة للمرة الأولى، كانوا قادة عسكريين ذوي خبرة عسكرية كبيرة، ولكن القلاع الأوروبية التي يعرفونها جيدًا أصغر حجمًا ومشيدة من عوارض خشبية، ولم يتعرض القادة إلى حصار دام شهرًا واحدًا، إلا إذا كانت التجمعات غير النظامية تحت جدران أنطاكية يمكن اعتبارها حصارًا.

وقال الدوق "ريمون تولوز":

- إن قواتنا حاولت كل الوسائل الممكنة والمستحيلة للتغلب على الكفَّار، لقد دعوتكم، أنا، رئيس الحملة المقدسة، إلى هذا الاجتماع حتى نتمكن من مناقشة أعمالنا في

المستقبل، لم نكن نعرف أننا سوف نواجه هذه الصعوبات، بدا لنا أننا سوف ندخل أنطاكية بسرعة كبيرة، ولكن اكتشفنا أن جيشنا الصغير لن يتمكن من تطويق القلعة تمامًا وحرمان سكانها من إمداداتهم الغذائية، لن يحقق ذلك إلا جيش أكبر أربع مرات من الذي نقوده.. أرسل الإمبراطور "ألكسندر" راجمات لمهاجمة جدران القلعة، ولكن جنودنا لم يعرفوا كيفية استخدامها، وقد أرسل الإمبراطور، في وقت لاحق، بعض الخبراء لتدريب جنودنا، وتبين لنا أن تلك الراجمات لا تستطيع تدمير الجدران، وكانت الراجمات تطلق الأحجار على القلعة وأبوابها، لكن بدلًا من اختراق وتحطيم أهدافها كانت تتعطل سريعًا وتصبح عديمة الجدوى، ثم اقترح أحد القادة العسكريين، أنت، يا "هيو"، إذا لم أكن مخطئًا، أن نستخدم الراجمات لإطلاق حيوانات متعفنة داخل جدران أنطاكية في محاولة لنشر الطاعون في المدينة.. إن "هيو" هو أعلى ممثل للحكومة الفرنسية في الشرق الأوسط، ويحاول إظهار تفوقه الفكري على الآخرين.

- نعم، "ريمون"، أنت على حق، كانت تلك نصيحتي، لكننا نحتاج إلى الانتظار قليلًا حتى يتفشى الطاعون، نحتاج إلى أكثر من بضعة أيام.

تساءل "جوتفريت من "لوثارينجيا":

- وكم من الوقت علينا أن ننتظر؟ كم من الوقت علينا أن نقف هنا تحت الشمس على أمل أن الطاعون سوف يتفشى يومًا ما في أنطاكية؟

رد "هيو":

- أعترف أنني لا أعرف.. كل شيء في يد الله القدير.

قال "جودفريد":

- "كل شيء في يد الله القدير".. عادة يستخدم الناس هذا التعبير لإخفاء إخفاقاتهم ومصائبهم.. عزيزي، هذه ليست رواية رومانسية ملكية، هذه هي الحرب، كل يوم يموت الناس هنا، نصف أصدقائي رحلوا إلى العالم الآخر، نحن بحاجة إلى فهم كل شيء، ماذا لو كانت أنطاكية هي وجهتنا الأخيرة وليس لدينا فرصة للمضي قدمًا من هنا؟ علينا أن نعترف أننا قد استنفدنا قدراتنا، نحن انتصرنا في نيقية، وفي الرها، واجتزنا جبال طوروس، وقد وصلنا إلى آخر المطاف، فليحتل أنطاكية الذين سيأتون من بعدنا، نحن مهدنا لهم الطريق.

"جودفريد" كان غاضبًا، كان متعبًا من هذه الحرب غير المجدية، وكان متعبًا من هذا الشباب المتحمس، فليس لديهم فكرة عن ماهية الحرب ولا يقدرون حياة الجندي.. آه، لو كانت المعركة مفتوحة بين جيشين؛ فـ"جودفريد" كان يعشق لعبة الحياة والموت في المعارك، ولكن الانتظار تحت جدران قلعة أنطاكية لعدة أشهر لم يكن مملًا فقط، بل لا جدوى منه.. "جودفريد" لم يعد قادرًا على إقناع فرقته العسكرية بالبقاء؛ فهم مقاتلون ذو خبرة، وضحكوا كثيرًا على فكرة رمي الحيوانات النافقة، فهي فكرة ساذجة، كيف يطلقها قائد جيش مسئول عن آلاف الجنود، كان "جودفريد" يتطلع إلى التحدث عن كل هذه الأمور أمام الجميع، وكان هدف "هيو"

أن يثبت لشقيقه ملك فرنسا أنه هو أيضًا من سلالة العائلة المالكة، وهكذا كان يأتي بهذه الأفكار الغريبة التي لا علاقة لها بالشئون العسكرية، ومع ذلك، كان هناك من يؤيد "هيو".

كان "جودفريد" مندهشًا، خاصة أن تلك الأنواع من الاستراتيجيات الساذجة قد تسبب خسائر كبيرة بين قواته، والغريب أن خسائر "هيو" كانت أقل من الآخرين!

قال "هيو" بابتسامة متكلفة:

- عزيزي "جودفريد"، ماذا تقترح أنت؟ الاستسلام أم الانسحاب؟ من فضلك، اختر، لا تتردد! إن جنودك يشكلون جزءًا صغيرًا من العدد الإجمالي لقواتنا، ولا أعتقد أن قرارك سيؤثر على احتمالات الانتصار.

وقال "جودفريد":

- لا أستطيع أن أفهم لماذا تعتقد أن الذي قلته يدعو إلى الضحك، أنت يا عزيزي، لا تستطيع أن تفهم الأشياء البسيطة، أنت نبيل، وكانت حياتك بعيدة كل البعد عن ساحة المعركة، أنت هنا فقط لمعارضة أخيك، أنت لا تقدِّر حقًا حياة الجندي على الإطلاق، وتعتقد أن الفوز في هذه المعركة لا يختلف عن الفوز في لعبة أطفال، ليس لك علم بمخاطر الحرب، ولا يمكنك حتى أن تتخيلها.

فرد "هيو":

- إن قواتي قد كابدت أقل الخسائر، ستقول إن معظم جنودك لقوا مصرعهم عند سفح جبال طوروس في الأمطار الغزيرة، ولكنني لا أعتقد أن هذا هو السبب؛ فالقائد العسكري لا تكفيه القوة فقط، بل يجب أن يتمتع بذكاء فوق المتوسط ومجموعة من المهارات العسكرية.

ابتسم "جودفريد" وقال ساخرًا:

- لا يسعني إلا أن أبتسم أن طفلًا مثلك يكلمني عن الذكاء والمهارات العسكرية، لقد شاركت أنا في معارك بعدد سنين عمرك، وقد قُدت جنودًا بعدد شعر رأسك، لقد بدأت حياتي جنديًا، وليس متخصصًا في مؤامرات القصر، والآن أستمع إلى محاضرة تربوية ودروس عسكرية من رجل هدفه في الحياة أن يتحدى أخاه، ويتجول في الشرق الأوسط بحثًا عن أراضٍ يستولي عليها ويعلن مملكته.

لم يعجب "ريمون" هذا السجال الساخر بين اثنين من قادة الجيش، فتدخل وقال:

- عفوًا لو قاطعت معركتكما اللفظية، ولكن ألا تعتقدان أن الوقت غير مناسب؟ لقد اجتمعنا اليوم ليس لانتقاد بعضنا البعض أو الثناء على أنفسنا، ولكن لنجد طريقًا للخروج من هذا المأزق، وأود أن أطلب منكم أن تتكلموا فقط في هذه المسألة دون أن توجهوا حديثكم لأي شخص بعينه، ولدينا حالة تتطلب حلولًا وليس انتقادًا.. هل لدينا بيانات استخباراتية عن مدينة أنطاكية؟ وأود أن أطلب من القادة التزام الصمت وسماح الخبراء العسكريين بالتحدث.

فتقدم أحد الخبراء العسكريين وبدأ يتحدث:

- بيانات الاستخبارات هي كما يلي: أسوار المدينة بارتفاع عشرة أشخاص، عرضها خمس خطوات، وطولها خمسة وأربعون كيلو مترًا، هناك أربعمائة من أبراج الحراسة على طول الأسوار.

إن إمدادات الغذاء والماء في أنطاكية أكثر وفرة من إمداداتنا، ومن المستحيل أن ننجح في تطويق المدينة، يتطلب ذلك أربعة أضعاف ما لدينا من جنود، كما أنه من المستحيل تدمير الجدران، وحتى الراجمات التي انتظرناها لمدة أسبوعين أثبتت أنها غير مجدية، فضلًا عن أن الاقتراب من القلعة ليس سهلًا؛ فحراسهم يقظون، ورماتهم مستعدون للدفاع عن أي منطقة تتعرض للهجوم.

وقال خبير آخر، وكان يمثل الاستخبارات الخارجية:

- أود أن أضيف أن جيشًا كبيرًا من المسلمين يتجه نحو أنطاكية، لقد وحَّد الأمراء الأتراك قواتهم، وجيشهم يتحرك الآن نحونا.

تساءل "ريمون":

- وبماذا تنصح؟

بدا الخبير العسكري مرتبكًا، لقد قدَّم الأرقام والإحصائيات، لكنه لم يكن لديه أي حل عملي.

- رجاءً واصل، نحن نستمع إليك.

وقال الخبير العسكري:

- ليس لديَّ أي اقتراحات.. إنها المرة الأولى التي تواجه فيها قواتنا هذه المشكلة، لا نعرف كيف نتعامل مع قلعة بهذه الحجم والقوة.

فسأله "ريمون":

- إذًا ما العمل؟

وقال "جودفريد":

- أعتقد أننا بحاجة إلى الانسحاب، وإفساح المجال أمام الحجَّاج القادمين الذين ربما يعرفون ما يجب القيام به.

فنهره "ريمون":

- "جودفريد لوثارينجيا"، لو قاطعت الحديث مرة أخرى، سوف أطلب منك أن تغادر المكان، يجب أن نلتزم بالنظام في جميع الأوقات، ولا سيما في أثناء الحرب.

فتمتم "جودفريد" شيئًا غير مسموع.

وقال "ريمون":

- هل ترغب في إضافة أي شيء، يا "هيو"؟

- أولًا وقبل كل شيء، بصفتي أحد النبلاء، أود أن أطلب منكم أن تغفروا لي وقاحتي تجاه "جودفريد لوثارينجيا".. إن استحالة الحالة واضحة أمامنا، ولا يستطيع الخبراء العسكريون اقتراح أية حلول، لقد حاولنا كل شيء في ساحة المعركة، ولكن دون جدوى، وربما الله لا يريد منا أن نمضي قدمًا لأسباب معروفة له فقط، في كلتا الحالتين، فمن الواضح أننا يائسون، وإذا لم نجد حلًا خلال هذه المشاورات، سأوافق على اقتراح "جودفريد" بالانسحاب إلى "الرها"، وسوف أنتظر هناك لموجة جديدة من الحجاج قد يعرفون كيفية إذلال الأسوار الحجرية، وسوف أنضم إليهم، وأعود إلى "أنطاكية" بعد أن أتخذ قرارًا نهائيًّا بالهجوم عليها.

نظر "ريمون" إلى القادة العسكريين باهتمام، وكان اليأس واضحًا على وجوههم، لقد أمضوا عامين وأربعة أشهر سيرًا على الأقدام إلى الأرض المقدسة بقصد تحريرها، والآن، وهم قريبون جدًّا من هدفهم النهائي، أوقفتهم تلك القلعة الحجرية المنيعة، لم يكن الانسحاب قرارًا سهلًا؛ فللانسحاب خطورة قد تساوي خطورة الاستمرار في الحملة، فضلًا عن تعرضهم للسخرية لو عادوا دون تحقيق أي شيء، فقد خرجوا في حملة عسكرية صليبية كبيرة لتحرير الأرض المقدسة، ولكنهم غيَّروا رأيهم قبل الوصول إلى "أورشليم"، بالتأكيد لن يحترمهم أحدٌ في كل أوروبا.

تطَّلع "ريمون" نحو القائد "مارك"، الذي كان يجلس في هدوء، ولا يتدخل في مناقشات "جودفريد" و "هيو" أو في آراء الخبراء العسكريين.

- وأنت، يا "مارك"، ربما يمكنك التعبير عن رأيك حتى نتمكن من إنهاء هذه المشاورات؟ فالخبيران العسكريان والقادة متفقون على الانسحاب، وأنا أيضًا أؤيد ذلك، فلنستمع إلى رأيك.

ساد الصمت في الخيمة، كان الجميع مقتنعين بأن "مارك" سوف يوافقهم، على الأقل لتجنب البقاء وحده في أنطاكية.

تكلم "مارك":

- دعونا نتفق أولًا أن أنطاكية من حق القائد الذي سوف يتمكن جنوده من قهر القلعة الحصينة.

بدا أن كلمات "مارك" تسير في اتجاه مختلف تمامًا، وقد نظر القادة العسكريون إلى بعضهم البعض في محاولة لفهم ما يعنيه.

قال "ريمون":

- أيها القائد، يبدو أنك لم تستمع إلينا بعناية، إننا نناقش انسحاب القوات من أنطاكية، حتى إن الخبراء العسكريين لا يرون أي فرصة للفوز.

فقال "مارك" موضحًا:

- توافقون إذا على الشرط الذي قدمته.. أنطاكية تحت سيطرة الكفار، وسأرحب بأي قائد يمكنه أن يقهر أنطاكية، أنا نفسي أقسم أنني سأعتبره حاكم أنطاكية.

فقال "هيو" مبتسمًا وهو يغمز لـ"جودفريد":

- "مارك"، هذا ليس وقت للنكات.. أنطاكية منيعة وأنت تتكلم عن الذي سوف يحكمها، فهلَّا وضحت لنا كيف يمكن الاستيلاء على المدينة؟

كان القادة قد بدءوا يهمسون فيما بينهم، شخر أحدهم ضاحكًا.

وقال "مارك":

- أنا سعيد أن "جودفريد" و"هيو" توقفا عن المشاحنات وأصبحا حليفين بعد سماع اقتراحي، أقترح الآن أننا، القادة الأربعة، برئاسة "ريمون" بطبيعة الحال، نقسم بإعطاء "أنطاكية" لمن يستطيع دخولها أولًا، ويبدو أنني الوحيد هنا الذي يرفض العودة إلى أوروبا دون قهر "أنطاكية".

قال "ريمون":

- أنت الوحيد الذي يعاند بالبقاء، وأنا، كقائد جيش الصليبيين، أعتقد أن البقاء هنا لن يكون مجديًا.. أنت تصر على البقاء، ألا تعلم أن جيش الكفار سوف يجتاح قواتك خلال ساعة واحدة؟!

فابتسم "مارك":

- من قال إنني سأبقى هنا وحدي، تاركًا جيشي الصغير هدفًا سهلًا للكفار؟ هل تعتقد أنني مجنون؟ أمامنا خياران: أن نقسم جميعًا على الشرط الذي قدمته، أو ننسحب معًا.

فقال "ريمون" بعد برهة تفكير:

- ثلاثة ضد واحد، نحن، القادة الثلاثة، قد يكون بيننا العديد من الخلافات، ولكننا متفقين على المغادرة، ولذلك، أيها القائد "مارك"، يبدو أن قرار العودة إلى الديار سوف يسود، ويبدو أن الاتفاق قد تم التوصل إليه، ولكن السؤال: كيف يمكن إبلاغ جنودنا بالأمر؟ يجب أن يتم ذلك بحصافة.

قاطعه "مارك":

- انتظر، يا "ريمون"، لا تتسرع، أنا لم أنهِ حديثي بعد، فإذا كان قراركم نهائيًّا، سوف أوافقكم، ولكن عند رجوعنا سوف أعلن اقتراحي للجميع ورفضكم له.. من حقي القيام بذلك، سيكون من المستحيل إبقاء هذا النقاش سريًّا، سيعلمه الجميع، وخاصة البابا "أوربانوس الثاني"؛ فالأسقف "أدهيمار"، مبعوث البابا، هنا بيننا، وبالمناسبة، شرطي الذي قدمته عادل جدًّا، ولا أطلب حتى تسجيل حلف اليمين كتابة، هذا حكم عسكري قديم جدًّا، ولا أفهم لماذا تعارضون اقتراحي.. أليس كذلك، قداسة الأسقف؟

نظر "مارك" إلى الأسقف "أدهيمار" الذي هز رأسه موافقا..

نظر "ريمون" إلى "هيو" و"جودفريد"- كانا مرتبكين- فقد يتم وصمهما بالخيانة، فمستحيل إقناع الناس بأن سحب القوات هو الخيار الأمثل.. أدرك القادة أن قرار التراجع يجب أن يكون بالإجماع، وإلا، فـ"مارك"، عند عودته إلى فرنسا، قد يعلن أنه كان ضد الانسحاب، فيصبح البطل الوحيد، في حين أن الآخرين سوف يوصفون بالجبن، على الأقل.. مما لا شك فيه، أن لـ"مارك" خطة ما، ولكن القادة رأوا أن هدفه بعيد المنال.

قال "جودفريد" مطالبًا التوضيح:

- أعتقد أن اقتراح "مارك" مقبول إلى حد ما، ولكن، هل يمكنك أن تخبرنا، أيها القائد، كم من الوقت يمكننا أن نبقى على أبواب أنطاكية؟ سنة؟ اثنتين؟ أو ربما ثلاث؟

وأضاف "ريمون":

- لا يمكننا الانتظار طويلًا.. لقد سمعت أن الجيش التركي يتحرك نحونا، وقد وضع الأمراء الأتراك من دمشق وحلب والموصل خلافاتهم جانبًا، وهم يتجهون نحونا بقوات مشتركة، وإذا وجدونا في هذا الوضع، سيكون ذلك نهايتنا.. جيشنا صغير وضعيف.

فبدأ "مارك"، الذي كان يستمع إلى "ريمون" دون مقاطعة، في الكلام:

- ليس هناك حاجة للانتظار طويلًا.. أعطوني بضعة أيام، وسوف أقول لكم متى نحلف اليمين.. أنا لن أسلِّم أنطاكية للإمبراطور "ألكسندر"؛ فأنطاكية من حق الذي يأخذها.

قال "هيو":

- أنا موافق.

نطق "جودفريد" بصوت مسموع بالكاد:

- وأنا أيضًا.

وأعلن "ريمون" رسميًّا:

- أنا أيضًا أعرب عن موافقتي، ولتكن هذه الموافقة الجماعية بمثابة حلف اليمين.. قداسة الأسقف، هل تريد أن تقول شيئًا؟

تتحنح الأسقف "أدهيمار" حلقه وبدأ يتكلم:

- يا أولادي الأعزاء، أنتم حملان الله، ومن المهم أن نبقى على مبدأ الوحدة.. لن يرشد الله قومًا منقسمين.. إحدى قواعد الحرب هي أن المنطقة المحررة تخص المحرر.. لقد أقسمتم في القسطنطينية أنكم سوف تسلمون جميع الأراضي المحررة إلى الإمبراطورية البيزنطية، ولكن ماذا حدث بدلًا من ذلك؟ بعد حصار طويل، سلّم

مسلمو "نيقية" المدينة إلى الإمبراطور البيزنطي وليس للقوات التي طوقت المدينة لعدة أشهر، وقد أبلغ البابا "أوربانوس الثاني" عن هذا الحادث غير السار، وصدقوني، وقال إنه لا يوافق على سلوك "ألكسندر" على الإطلاق.

إن أفعال "ألكسندر" تحرركم من واجب الحفاظ على يمينكم؛ فهو أول من خرق الاتفاق، وبالتالي فإن حلف اليمين الذي تم في القسطنطينية أصبح الآن ملغى وباطلًا.. أنتم الآن أحرار في التصرف وفقًا لقواعد الحرب التي تقول إن المنطقة تخص القائد الذي يقوم جيشه بتحريرها، وإذا شاركت عدة قوات في التحرير، فإن المنطقة تكون من حق القائد الذي دخلها جيشه أولًا، ولكنني أدعوكم مرة أخرى إلى الحفاظ على مبادئ الوحدة.. قد تكون هناك خلافات بينكم، ولكن أنتم هنا من أجل الله وكلمته، فأنتم تشتركون في القضية المقدسة نفسها.. أنتم جنود الله، وأنتم إخوة في هذا العمل.. دعوا الاختلافات إلى ما بعد انتهاء الحج.. يعيش البابا "أوربانوس الثاني"! لن يهمل أي قائد منكم، وإذا كان هناك مشكلات تصعب حلها، اتركوا مناقشتها لوقت لاحق ولحكمة البابا.

تنحنح الأسقف "أدهيمار" مرة أخرى، إشارة إلى أن خطابه قد انتهى.

قفز "مارك" واقفًا:

- أقترح أن نأخذ الآن قسطًا من الراحة.. لا يزال لدينا الكثير للقيام به، وأود أن أطلب منكم أن تبقوا القوات الخاصة بكم في حالة جهوزية وانتباه! سوف نتمكن من أنطاكية إذا كان ذلك إرادة الله.. لن أذكر أي تفاصيل الآن حتى لا نعرِّض نجاحنا للخطر، وسوف أرفع ستار السرية مساء غدٍ.. أيها السادة، تصبحوا على خير!

خرج "مارك" من خيمة القادة، أما القادة المتبقون فقد نظروا إلى بعضهم البعض بتردد وحيرة، وبقوا في الخيمة لفترة قصيرة قبل أن يعودوا إلى قواتهم.

هدد "جودفريد" قبل انصرافه:

- أنا لا أثق فيه! فإذا كان "مارك" يخدعنا، سوف أفضحه أمام الكل في أوروبا.

أمَّا "هيو"، فلم يقل شيئًا على الإطلاق.. كان قلقًا، فلو نفَّذ "مارك" ما كان يفكر فيه، فإن معاناة "هيو" ستكون بلا جدوى، فقد جاء إلى هنا على أمل أخذ أنطاكية، ليعلنها مملكة به ويثبت لشقيقه الملك أنه كان أكثر استحقاقًا للعرش.. لم يحاول أخوه حتى أن يفهمه.. وكان دائمًا يقلل من شأنه مهما فعل، والآن كان على "هيو" أن يتعامل مع "مارك" الوضيع، الذي كان يعتزم الاستيلاء على أنطاكية من تحت أنوفهم باستخدام حيل لا يعرفها إلا هو، و"ريمون"، رئيس الحملة، كان يفسح المجال أمام "مارك".. عارٌ على "ريمون"!

الذي يستحق أن يتولى منصب القائد الأعلى للحملة هو "هيو"!

استلقى "مارك" في خيمته المذهبة، محاولًا النوم، لكن أفكاره الشاردة منعته من النوم، مع أنه لم يذق طعم النوم منذ أيام.. شرب كأسًا كبيرة من النبيذ، وأخذ سِنة من النوم على وسائد خيمته.

أدرك "مارك" أنه يقف على حافة العظمة، فإمَّا أن يأخذ أنطاكية ويصبح بطلًا أو يفشل ويجلب العار على نفسه في حال إن بقي حيًا، حتى أكثر الكلمات صخبًا وجمالًا يجب أن تكون مصحوبة بالأفعال، وإلا فإن "مارك" ليس إلا طائش أحمق.

كان دعم الأسقف "أدهيمار" له غير متوقع ولكنه مُرضٍ للغاية.. كان "أدهيمار" رجلًا حكيمًا وفهم أن الله الآن مع "مارك".. كانت مهمة "أدهيمار" الرئيسية هي الحفاظ على وحدة الفرسان بخلق جو من الترابط والحب المسيحي طوال الحملة، وإلا، فإن الصراع بينهم سوف يقضي عليهم منذ البداية ودون أي مساعدة من الأتراك، كما كان لوجود "أدهيمار" أهمية معنوية للجنود؛ فهم بعيدون عن بيوتهم وأهلهم، ممَّا أدى إلى تدني مستوى أخلاقهم.. كان لـ"أدهيمار" تأثير رادع عليهم، لم يسمح لهم بأن ينحرفوا عن خدمة الله.. كان يذكرهم دائمًا أن الحج لا ينبغي أن يتحوَّل إلى ذريعة للسلوك السيئ، حتى إنه خلال حصار أنطاكية ألقى خطبة اتهم فيها الحجاج بالابتعاد عن الله والانغماس في الخطايا، وقال إن سلوكهم المخزي أدى إلى فشلهم في المعركة، فبدلًا من العمل على نشر عدالة الله، انغمس الحجَّاج في الخطيئة والزنا.. بعد هذه الخطبة، تم طرد النساء من معسكر الصليبيين في محاولة لإبعاد الحجاج عن الخطيئة، لقد مضى أسبوع منذ ذلك اليوم، ولكن يبدو أن غضب الله عليهم لا يزال قائمًا، وبالإضافة إلى ذلك، فإن تناوب أشعة الشمس الحارقة والمطر الغزير كان له أثر متزايد على نفسية الجنود المتدهورة أصلًا، وقد لعب "أدهيمار"، ممثل البابا في الحملة المقدسة، دورًا مهمًا جدًّا خلال المشاورات العسكرية، ويمكن القول إن كلمات الأسقف كانت أكثر وزنًا، حتى من آراء جميع القادة مجتمعة.

- أيها القائد!

سمع "مارك" صوت مساعده يستدعيه في الحلم، ففتح عينيه وأيقن أن مساعده يقف أمامه.

همس المساعد:

- هو هنا.. هل ترغب في رؤيته؟

فأمره "مارك":

- دعه يدخل!

انحنى المساعد وخرج.. وبعد بضع دقائق، عاد مع رجل آخر.. ألقى "مارك" نظرة فاحصة على الوافد الجديد.. كان رجلًا نحيلًا يرتدي زي الجنود المسلمين، هو من معسكر العدو، ولكن لا يبدو عليه الاضطراب، بل في عينيه نظرة تهكم.

- اسمك؟

- أنا "فيروز".

مدَّ "مارك" كيس نقود له وقال:

- خذ.. خمسون قطعة من الذهب.

- أيها القائد، لم آتِ إلى هنا من أجل الذهب.. لست بحاجة إلى المال.

- "فيروز"، هل حقًا تريد مساعدتنا؟ أخبرني لماذا أنت هنا.

نظر "فيروز" إلى مساعد "مارك".. كان مترددًا في الكلام في حضور شخص ثالث.

قال "مارك":

- يمكنك التحدث بحرية.. أنت في خيمتي، لن يهددك أحد.. أجبني: لماذا تريد مساعدتنا؟

- قائد حرَّاس البرج الشرقي يرغب في زوجتي، ولا أستطيع أن أصده، فهو رفيع الرتبة.. في أجواء الحرب المضطربة، أي خطأ بسيط يُعاقب عليه بالموت.. ليس لديَّ خيار آخر.. هذا هو قراري ولا يهمني شيء سواه.

قال "مارك":

- نظام غريب ظالم.. هكذا يثير القادة عداء الجنود، لقد اتخذت القرار الصحيح.. هل تعرف من أكون؟

- الجميع يعرفك.. أنت القائد "مارك الشرس الذي لا يرحم"، أشهر قادة الفرنجة.. أنت معروف بقسوتك تجاه المسلمين.

لم يتمكن "مارك" من إخفاء ابتسامة ارتياح.. كان أتباعه يغمرونه بالثناء، ولكن أن يسمع الكلام نفسه من العدو شيء يسر القلب! كان "مارك" مقتنعًا بأن جنوده هم الوحيدون الذين يقاتلون بالفعل، أمَّا القادة الآخرون فهم إمَّا قطاع طرق مشغولون بنهب المدنيين المسالمين، أو أفاقون يكتبون رسائل كاذبة إلى البابا يصفون فيها بطولتهم العسكرية، وهم في الواقع يتكبدون الهزائم ويهربون من ساحة المعركة، تاركين الجثث والأسرى، وكان "مارك" يعاقب من يتجرأ على ثناء قائد آخر أو يلمِّح إلى نجاحات الآخرين في وجوده، حتى لو كانوا من القادة العسكريين العظام مثل "الإسكندر الأكبر".

- أيها القائد، لو كان للملك المقدوني معلم مثلك، لكان قد غزا العالم كله.

- أيها القائد.. إن "يوليوس قيصر" لكان قد خرج من هذه المعركة خاسرًا.

- أيها القائد، حتى "هانيبال" لكان قد تراجع الآن، ولكنك قاتلت حتى النهاية بعزم لا يلين.

كان "مارك" قد أحاط نفسه بموسيقيين يؤلفون أغاني التفخيم والتبجيل.. له أيضًا فصيلة كاملة من الكتَّاب الذين يتنافسون في وصف بطولاته العسكرية، ولكن تلقى الثناء من جندي عادي من جيش العدو كان شيئًا مختلفًا؛ فذروة المجد العسكري عندما تأتي الإشادة من الأعداء.

وسأل "مارك":

- على أي برج توجد أنت؟

- على البرج الرابع يمين البوابة الشرقية.

قال "مارك":

- جيد جدًّا.. أعطِ التفاصيل إلى مساعدي.. الخطة هي كما يلي: مجموعة صغيرة من أربعين جنديًا سوف يقتربون من البرج غدًا في منتصف الليل.. سوف ترمي أنت حبلًا إليهم فيتسلقون إلى داخل البرج وينتقلون من هناك إلى البوابة الشرقية ويفتحونها، فيدخل جيشنا إلى أنطاكية ويضع حدًا لمعاناتك.. هل قدمت الخطة بشكل صحيح؟

فرد "فيروز":

- نعم.. أيها القائد! سوف أنتظر جنودكم في برج الحرس غدًا في منتصف الليل.

وفي الصباح، قامت قوات القائد "مارك" بعرض عسكري.. مر الجنود من وسط وادٍ صغير، مرتدين خوذات لامعة يراقبهم "مارك" من تل عالٍ.

سارت القوات مثل مياه النهر المتدفقة.. خرج الجنود من الوادي فاتسعت خطوطهم.. كان سلاح الفرسان- ثلث قوة الجيش - في المقدمة، تليه المشاة ثم الرماة.. الانضباط العسكري كان له الأولية عند "مارك"؛ فهو شديد العقاب لأي جندي يخرق النظام، لا يهمه الظروف، فمثلًا، خلال معركة بالقرب من قلعة "نيقية"، أمر "مارك" الجنود بالتراجع على أن يتم بانتظام الصفوف، وكان الجنود يدركون جيدًا حساسية القائد عندما يتعلق الأمر باحترام القواعد العسكرية.. كان الجميع يخاف "مارك"؛ فهو لم يبلغ مبلغ مبلغه من العدل والحكمة مثل الملك والنبي "سليمان" الكيم بعد.. في حال وجود أي خلاف بين الجنود، كان يعاقب جميع الأطراف وبشدة، لا يهتم مَن المذنب ومَن البريء.

وكان لـ"مارك" خاصية أخرى؛ ففي كل صباح كان يحب أن يرى جنوده يقدمون له التحية العسكرية، فعند خروجه من خيمته للاغتسال تُنفخ الأبواق، وبمجرد أن ينتهي من التزين، يمر الجيش من أمامه، كتيبة وراء كتيبة، لتقديم تحية تعظيم وإجلال.. كان الجنود يصيحون في انسجام تام: "مرحبًا.. أيها القائد العظيم! في انتظار أوامرك!".

كان "مارك" يمتطي حصانه ويمر من بين صفوف الجنود، يمعن النظر في وجوههم لمعرفة مدى استعدادهم للقتال نفسيًّا ومعنويًّا، فهو، بالطبع، على علم كامل، بعدد الجنود والخيول والأسلحة، إنما كان للعرض العسكري هدف واحد، وهو إبراز استعداد الجيش للقائد وبل للجنود أنفسهم.. إن المسيرات العسكرية تعزز اعتقاد الجنود بأنهم جزء من جيش لا يُقهر، وهذا الاعتقاد هو مفتاح النصر في ساحة المعركة.

في منتصف الليل، وفقًا لخطة "مارك"، توجهت مجموعة من أربعين جنديًا بصمت تام وسرية نحن البوابة الشرقية لأنطاكية.. كان الحراس أعلى القلعة يتحدثون مع بعضهم البعض بصوت عالٍ جدًّا، هم يصيحون تقريبًا، بلغة لا يعرفها ولا يفهمها الجنود، ويضحكون أيضًا في صخب.. اقترب الجنود من البرج الرابع يمين البوابة الشرقية.. هنا، في هذا البرج، لم يُسمع أي صوت.. جلس الجنود على الأرض بالقرب من جدران القلعة حتى لا يراهم أحد من فوق، وانتظروا.. الصمت المشئوم يحيط بهم.. جلس الجنود دون حركة، حتى الرياح بدت وكأنها توقفت في انتظار حدث جلل، وفجأة، سُمعت صافرة خافتة من أعلى البرج، وأُلقيت العديد من الحبال من نافذة البرج.. بدأ الجنود في تسلق الحبال بصمت وحذر.. دخلوا من خلال نافذة البرج واحدًا تلو الآخر، وبعد ربع ساعة، كان الجميع في البرج.

أعطى "فيروز" توجيهاته لجنود "مارك"، وأوضح كيفية الوصول إلى بوابات المدينة، وكيفية فتحها بمجرد وصولهم، وحثهم على الانتظار لفترة أطول قليلًا حتى تنتهي المناوبة الليلية الأخيرة، فيقل عدد الحراس عند البوابات، وقال أيضًا إن أفضل وقت للهجوم هو ما قبل الفجر مباشرة، وسوف يفاجأ به العدو.

وفي الوقت المحدد نزل جنود "مارك" من البرج واتجهوا نحو البوابات، وفي الطريق كانوا يلتقون ببعض الناس الذين لم يلتفتوا إليهم، فمع أن الجنود يرتدون زيًّا غير مألوف، افترض الناس أنهم جنود أتراك يقومون بتدريب اعتيادي.. خلال الأشهر القليلة الماضية، شهد سكان "أنطاكية" الكثير من الأشياء الغريبة فأصبح كل شيء طبيعيًّا بالنسبة لهم، حتى الصليبيين الذين يركضون في شوارع المدينة.

جنود "مارك" لم تواجههم عقبات تذكر.. فقط ثلاثة جنود أتراك، الذين طُعنوا حتى الموت قبل أن يتمكنوا من فهم ما يجري، وأخيرًا، وصلت المجموعة إلى البوابة الشرقية للمدينة دون تكبد أي خسائر.. سُمع صوت المؤذن من إحدى مآذن المدينة.. فهل كان يدعو إلى صلاة الفجر أم كان يحذر من هجوم وشيك؟ فُتحت البوابات تصرصر، فتدفق الصليبيون إلى الداخل، وكشف ضوء الفجر مشهدًا رهيبًا.. تدفق الدم في شوارع المدينة.. كانت مجزرة مروعة، وقد استمرت حتى ظهر اليوم التالي، حيث واصل الصليبيون بحثهم عن المسلمين، فيسحبونهم إلى الشوارع ويقتلونهم.. انخفضت الصرخات تدريجيًّا.. في بعض أجزاء المدينة برك الدم كانت تصل حتى الركب، وفي المساء أشار القادة إلى قواتهم للتجمع في الساحة المركزية للمشاركة في مراسم الاستيلاء على أنطاكية.

بعد يوم كامل من العمليات العسكرية والقتل الجماعي، بدأت القوات المنهكة تتجمع في الساحة المركزية، حيث أضيئت آلاف المشاعل لخلق أجواء احتفالية.. وقف القادة الصليبيون والأسقف "أدهيمار" على منصة عالية، تميز من بينهم القائد "مارك" بطول قامته ونظرته الاستعلائية، وكأنه يعلن للجميع: "لقد وعدت بفتح أنطاكية وها قد وفيت بوعدي.. أنا الآن حاكم أنطاكية"، ووقف "أدهيمار" بجانب "مارك"، يبارك الجمع بعلامات الصليب، وبدأ الحشد يصرخ: "Dieu le veut!!Dieu le veut".

ارتفعت الصرخات، وأخذت تنطلق في انسجام تام.. كانت القوات سعيدة بشكل لا يصدق، فبعد أشهر عديدة، تمكنوا أخيرًا من التغلب على القلعة لا تقهر ودون أي خسائر تقريبًا، ونصرة القوى الإلهية كانت وراء هذا النجاح.

خاطب الأسقف "أدهيمار" الجنود: "أعزائي الحجاج، نحن نسير إلى الأرض المقدسة، الوجهة النهائية لحجنا، لأيام وأسابيع وشهور، نتغلب على الصعوبات المختلفة، ولا نفقد الأمل في تحرير القبر المقدس.. لقد وضع الرب الصعوبات في طريقنا يمتحننا بها.. الرب يريد اختبار إيماننا، إرادتنا، والتزامنا بالقضية الإلهية، وكلما اشتدت الصعوبات كان الجزاء أكثر حلاوة و بركة.. أنتم لستم أناسًا عاديين.. إن الله القدير يحقق إرادته من خلالكم، ويقيم عدالته، والتي تحدث البابا "أوربانوس الثاني" عنها خلال القداس في "كليرمون".. إن نور الله قد وجهنا جميعًا إلى أماكن تبعد آلاف الأميال عن ديارنا، وقد ساعدنا في هزيمة عدو كبير وقهر قلعة أنطاكية المنيعة.. كنا ضعاف الإيمان في البداية، ولذا كنا نفشل في مسعانا.. جربنا أساليب عسكرية جديدة دون أي نجاح، واستسلمت أنطاكية عندما أراد الله ذلك، وكانت صعوبة أخرى تخطيناها بفضل جهودنا المشتركة.. إن ضعف الإيمان هو خطر لا يضاهيه أي خطر آخر، وبعد هذه المعجزة العسكرية، لا أستطيع أن أتخيل أن شخصًا ما يمكنه أن يلقي ظلالًا من الشك على الطبيعة الإلهية لقضيتنا.. من المستحيل أن نُهزم، لأن قضيتنا مباركة.. النصر لنا.. الله يريد ذلك! الله يريد ذلك!

فردد الجنود: "Dieu le veut! Dieu le veut!".

اهتز الحشد بالصراخ المتعصب.. كان الجنود منتشين، مقتنعين بأنهم ينفذون إرادة الله، حيث كان احتلال أنطاكية بمثابة معجزة عسكرية؛ لأنهم لم يكونوا على علم بما دار في خيمة القائد "مارك"، فبعد شهور من التخبط والارتباك تحت أسوار القلعة، وفقدان الأمل تمامًا، تُفتح بواباتها مرحبة.. هي معجزة فعلًا.

وواصل الأسقف "أدهيمار" خطبته، بعد أن هدأ الصياح:

- كما نعلم، وحسب القواعد الحربية المعترف بها، فإن في حال مشاركة أكثر من قائد في معركة ما، تكون المدينة المحررة من حق القائد الذي دخلها جيشه أولًا، ولهذا، أنا، ممثل البابا "أوربانوس الثاني" خلال الحملة الصليبية المقدسة، أعلن القائد "مارك" حاكمًا لأنطاكية.

عند قوله هذا، أشار الأسقف "أدهيمار" إلى القائد "مارك"، الذي كان يقف بجانبه، وباركه بوضع يده اليمنى على رأسه وقال:

- فلتحكم بإرادة الرب!

أمَّا "مارك" فوقف صارمًا، وكأنه نبي من أنبياء الله.

واصل "أدهيمار" خطبته:

- إن "أنطاكية" لها أهمية روحية كبيرة لحجنا؛ فالقديس "بطرس" الرسول خدم كأسقف في هذه المدينة.. المسيحية كدين نشأت هنا.. في هذه المدينة أيضًا تأسست

الكنيسة الكاثوليكية، يمكنكم أن تجدوا فيها المعبد الذي انتشرت منه كلمة المسيح.. إن تحرير أنطاكية أمر بالغ الأهمية، إنها علامة من الرب أننا على الطريق الصحيح وأن حجنا مقبول، لقد استعدنا واحدة من أهم المعالم المسيحية من براثن الكفار، ولذلك، فكل الذين شاركوا أو الذين استشهدوا في هذه المعركة المقدسة، سوف تُرحب بهم مملكة السماء، وسوف نواصل تحقيق الهدف الذي من أجله سقط زملاؤنا شهداء لنستحق بركاتهم من السماء؛ فالشهداء انضموا إلى جيش الله في السماء، وسوف يعطوننا القوة والصبر والإرادة حتى نتمكن من الوصول إلى الأرض المقدسة وتحرير قبر الله من الكفار.

وهتف الحشد موافقًا: "Dieu le veut Dieu le veut!".. كانوا يلوحون بمشاعلهم وقد وصل تعصبهم إلى الذروة.. كانت ملابسهم وأياديهم ملطخة بالدماء، وكانوا يطلبون من الرب أن يواصلوا ما بدأوه، وكانوا مقتنعين بأن ذبح المسلمين كان مُرضيًا للرب.

قامت مجموعة من الجنود بإشعال حريق كبير في وسط الساحة كتأجيج مستمر للمشاعر.

أمَّا القادة، فقد اقتربوا من "مارك" وقدموا له التهنئة لهذا الانتصار الباهر.. لم يظهر "مارك" فرحه، فقد كان غاصًا في أفكاره.. كان يقف في عزلة تامة عندما اقترب منه أحد الحراس الشخصيين وهمس شيئًا في أذنه.. شَحب "مارك"، ثم قفز إلى الأمام وصاح في الجنود:

- أغلقوا أبواب المدينة! أغلقوها على الفور! أخمدوا الحريق! وليتخذ كل واحد منكم وضعه القتالي!

عمت الجميع حالة من الحيرة والذهول، واقترب "أدهيمار" من "مارك"، ليستفهم الأمر.

وقال "مارك":

- الجيش.. الجيش التركي، وصل إلى أنطاكية.. الجيش الموحد من حلب والموصل ودمشق وصل إلينا؛ فليساعدنا الرب، أيها الأسقف!

فرسم "أدهيمار" علامة الصليب، وهرع نازلًا من المنصة.

وكما اتضح، كان هناك سبب وجيه للذعر، فقد اقترب الجيش التركي من أنطاكية في غضون ساعات قليلة، وحاصر معظم المدينة مثل نهر كبير، كان الجيش المحاصِر كبيرًا.. كان الأتراك مثل بحر بشري تحطمت أمواجه على بوابات القلعة.. كان لديهم جميع أنواع الأسلحة، وسلاح الفرسان لم يرَ الصليبيون مثله.. كانوا يطوفون القلعة على مقربة من الأسوار شاهرين سيوفهم، ثم كان هناك رماة السهام، وبطبيعة الحال، فإن للصليبيين دروعًا أقوى، ولكن الأتراك فاقوهم عددًا، هذا فضلًا عن أنهم لا يعانون سوء التغذية التي يعاني منها الصليبيون بسبب الترحال والقتال لسنوات.

كان هذا هو أول لقاء واسع النطاق بين الجيش التركي والحجَّاج الصليبيين، في وقتٍ كانت موارد جيش الصليبيين على وشك النضوب، وكان الجيش التركي يشرع في الهجمات.

انتشرت الحيرة بين صفوف الصليبيين.. لم يكن فزعًا؛ لأنهم يعتقدون أن الله معهم، ولكن الوضع كان غامضًا؛ فالذين كانوا يحاولون الاستيلاء على أنطاكية منذ شهور، هم الآن محاصرون، وبصرف النظر عن الحيرة، فإن الوضع كان صعبًا بالفعل.. كانت الموارد شحيحة، وكان من الضروري التحقق من أن الآبار ليست مسممة، وكان الغذاء ينفد أيضًا، وأدى نقص الخبز إلى ارتفاع سعره. وكان الناس يدفعون ما يصل الى خمس قطع من الذهب لرغيف صغير من الخبز.. نفقت الحيوانات، فتعشى بها الصليبيون الأكثر ثراءً، وبسبب تحديد كميات الأكل فقد الجنود حيويتهم، وازدادت حالات الإغماء، وبالإضافة إلى ذلك، اندلع الطاعون فجأةً في المدينة.. في بداية حصارهم لأنطاكية، كان الصليبيون قد ألقوا بالحيوانات النافقة إلى داخل أسوار القلعة على أمل أن ينتشر الطاعون فيها.. وها قد نجحوا.. انتشر الوباء بشراسة، حتى الأسقف "أدهيمار" ساء حاله فلزم الفراش مع ارتفاع في درجة الحرارة.. كان بالكاد يستطيع الكلام، ولأسباب تتعلق بالسلامة، لم يُطلب منه الانضمام إلى اجتماعات القادة العسكريين.. بقى "أدهيمار" في كهف القديس "بطرس" الرسول، حيث عاش مؤسس الكنيسة الكاثوليكية قد بشر بالمسيحية قبل ألف عام.. ظل الأسقف يصلي في الكهف لعدة أيام، طالبًا الانتصار للمسيحيين.. تدهورت صحته يومًا بعد يوم بسبب نقص الرعاية الطبية المناسبة؛ فارتفاع الحمى كان يسبب له نوبات من الجنون، وعند استعادة وعيه أراد أن يحكي للجميع عن الرؤى التي راودته، وحاول القادة تجنب زيارة "أدهيمار" حتى لا يُصابون بالعدوى.

كان الجميع حذرين.. أصبحت الشوارع فارغة.. لا يمكن رؤية حركة الناس إلا في أثناء تغيير الحرس، وكان كل قائد يفضل أن يعزل نفسه عن الآخرين، يغلق نفسه في خيمته، لا يتركها إلا للضرورة القصوى، وكانت الاتصالات بين القادة تُجرى من خلال المبعوثين، وفي الوقت نفسه، واصلت القوات التركية حصارها لأنطاكية، ليزداد المحاصرون يأسًا على يأسٍ.

حتى القائد "مارك"، الذي كان معروفًا بقسوته، لم يترك خيمته لعدة أيام.. قد يخرج أحيانًا للقيام بجولة في أبراج الحراسة، وذلك فقط في المناطق التي يحميها جيشه، وينظر الجنود إلى وجه "مارك" يحاولون معرفة ما يفكر فيه.. كان للصليبيين خيار الانسحاب قبل الاستيلاء على أنطاكية، أمَّا الآن فلا.. كانوا يشعرون باقتراب الموت، إمَّا بسيف الأتراك أو من الجوع، لو لم يقتلهم وباء الطاعون قبل ذلك.

وقال قائد مائة لـ"مارك" في أثناء إحدى جولاته:

- لن تنقذنا إلا معجزة.. نحن عاجزون عن محاربة الجيش التركي.

وقال "مارك":

- نحن مباركون.. لا تنسى أننا في حماية الله، ليس هذا إلا تجربة لإيماننا.

وسار مبتعدًا.

وقد تميَّز الأسبوع الثالث من الحصار بوفاة الأسقف "أدهيمار"، وبصفته ممثلًا للبابا "أوربانوس الثاني"، ودُفن في كهف القديس "بطرس".. اجتمع قادة الحملة للمرة الأولى منذ الاستيلاء على أنطاكية خلال مراسم جنازة "أدهيمار"، وكأنهم لا يخافون الإصابة بالمرض القاتل، وعند انتهاء المراسم، طلب "مارك" من القادة الآخرين عدم المغادرة.

- يجب أن نتكلم.. أريد أن أتشاور معكم حول شيء ما.

تجمَّع قادة الحملة داخل كهف القديس "بطرس" بالقرب من قبر "أدهيمار".. كان هذا أول اجتماع لهم بعد قرار عدم الانسحاب من أنطاكية، وكان "ريمون تولوز" قد تنازل عن قيادة جيش الصليبيين لـ"مارك" ولم ينظم اجتماعًا منذ ذلك الحين، ولم يكن هناك من داعٍ له.. حزن "هيو" من فشل ما كان يصبو إليه، وكان ما يهمه الآن هو استعادة اسمه وسمعته.. "جودفريد" أيضًا كان مكتئبًا؛ فغالبية الوفيات في المعركة كانت من نصيب قواته، وأتى وباء الطاعون ليحصد المزيد.. هكذا ضربه القدر.. وبدأ الصليبيون يشيعون أن الرب قد ولى ظهره لـ"جودفريد"، وأنه فقد قدرته كقائد عسكري.

قال "مارك":

- إن الأسقف "أدهيمار" حكى لي رؤية كان قد شاهدها.

كانت رائحة البخور العطرية قد انتشرت في الكهف، وخلقت جوًا صوفيًّا في الاجتماع.. كانت المصاعب قد أضعفت إرادة القادة، فقدوا الأمل تمامًا، وأخذوا يعيدون في أذهانهم: "لن ينقذنا إلا معجزة!".

- جاء القديس "بطرس" الرسول إلى الأسقف "أدهيمار"، وأشار إلى المذبح وقال إن الحربة المقدسة، الحربة التي طُعن بها "يسوع" وهو على الصليب مدفون تحت المذبح، وقال القديس "بطرس" إن الجيش الذي يمتلك الحربة لا يمكن هزيمته.

نظر "مارك" في عيون القادة.. كان ينتظر أن يرى فيها الشكوك، ولكنه فوجئ بأنهم يستمعون إليه باهتمام واحترام، ومع ذلك، كانت نظرات القادة غريبة، وكأن اليأس قد استولى عليها، فهل خمدت شعلة الإيمان؟ كان القادة يتطلعون إلى استمرار قصته.

- قال "أدهيمار" إننا لو وجدنا الحربة المقدسة، فإن كل إخواننا الذين فقدناهم في أثناء الحملة سوف ينزلون من مملكة السماء ويقاتلون معنا ضد العدو.. أكرر: الجيش الذي يمتلك الحربة المقدسة جيش لا يقهر.. سنكون قادرين على مهاجمة قوات العدو وهزيمتهم مهما كانت ضخمة وقوية.. إن نصرنا سيكون مضمونًا، وبمجرد أن نجد الحربة المقدسة، سنخرج من القلعة ونقوم بمهاجمة وتدمير الكفار.

ساد الصمت في الكهف، ولم يكن واضحًا ما يفكر فيه القادة.. نظر "مارك" في عيونهم، يريد أن يعرف لو كانوا يتفقون معه، أو يعتبرون كلماته فارغة.. لم يعلق أحد، فاستمر "مارك" في حديثه.

- ولكنَّ هناك أمرًا آخر.. يجب أن نؤمن، نحن الأربعة معًا، بقوة الحربة المقدسة وأن نبحث عنها معًا، ومن ثم تصبح ملكًا لنا جميعًا، ومن يحاول أن يمتلك الحربة وحده، سوف تصيبه اللعنة، هو وعائلته، وستخسر الحربة قوتها.

فقال "هيو" بحماس:

- حسنًا، لماذا نضيع الوقت؟ لنعثر على الحربة!

فانضم له "جودفريد":

- نعم، لماذا نقف حائرين؟ هل ننتظر لنرى متى سنموت من الطاعون؟!

وكان "ريمون" لا يزال يفكر.

فختم القائد "مارك" كلامه:

- إذا لم نتبع وصية "أدهيمار"، سنموت.. ليس لدينا خيار، ونحن لسنا هنا للتسلية.. نحن جنود الرب ولقد اعتمدنا على الرب وسوف نستمر في ذلك، ليس هناك قوة أكثر من قوته، وإذا كان الله معنا، من الذي يستطيع أن يكون ضدنا؟ دعونا نبدأ البحث دون تأخير.. كان الرب معنا طوال فترة الحج، ولم يتركنا الآن، مع أننا ابتعدنا عنه.

أمسك القادة الأربعة المجارف وبدأوا في الحفر.. كان المشهد غريبًا؛ فهؤلاء الرجال المعروفون بشراستهم، وأفعالهم الشجاعة في ساحة المعركة، وبعضهم من أصل ملكي يميزهم عن البشر العاديين، يحفرون الأرض بالمجارف، ويقطرون عرقًا.

حتى "مارك"، الذي كان يعيش في السابق حياة عادية، كان ممسكًا بالمجراف، لكنه كان يحفر باستياء؛ فالعمل البدني يذكره بماضيه، عندما كان عليه أن يدلك ساق حصان سيده الأرستقراطي ويقوم بمهام مهينة مختلفة، ولم يكن لدى القادة الآخرين هذه المشكلة، ولذلك أخذوا الأمر على محمل الجد، بل كانوا يتمتعون بالعمل؛ لأنهم لم يفعلوا ذلك من قبل؛ فالعمل البدني غريب طريف بالنسبة لهم، يقوم به خدامهم؛ فالنشاط البدني الوحيد المناسب لأمير أو فارس نبيل كان القتال بالسيف في ساحة المعركة.. والآن، بعد أن قام تعصبهم الديني بتدمير حواسهم، كانوا يحفرون أرضية كهف القديس "بطرس" بحثًا عن الحربة المقدسة بكل طمأنينة.

وبعد خمس أو ست ساعات من الحفر، وقد بدأ اليأس يتمسكهم، صاح "جودفريد" فجأة:

- لقد وجدتها ! لقد وجدت الحربة المقدسة!

(16)

“حبيبة”.. اكتشاف “سعيد” الأول في آلموت

بلاد فارس.. 1117 م

في ليلة من الليالي دخل “سعيد” مسكنه ولاحظ كشكشة ملاءات سريره، مال عليها يوضبها، فوجد قصاصة ورق تحت وسادته.. الرسالة كانت موجهة له بالذات، بعيدة عن أعين الآخرين.. وضع الورقة في جيبه، وغادر الغرفة بدعوة الاستحمام، وفي الحمام، أخرج الورقة وقرأ ما يلي: “هل تريد رؤيتي؟ لا تشرب أي شيء، وقم بتمثيل السكر”.

لم يفهم “سعيد” معنى الرسالة، ولم يستطع أن يخمن ممن قد تكون، ولكنه كان يأمل أن للرسالة علاقة ما بـ”حبيبة”.

اغتسل “سعيد” وعاد إلى الغرفة لينام.. كانت هناك جرة ماء بجانب كل سرير من الأسرة الأربعة، يشرب منها الحشاشون خلال الليل.. كان على الحشاشين شرب نصف الجرة قبل النوم.

قرر “سعيد” عدم الالتزام بالأمر.. رفع الجرة، وضعها على شفتيه، وتظاهر بالشرب، وكان “سعيد” تعبا فنام على الفور.. صوت شخص ما أيقظه:

- هم نائمون، هيَّا، لنذهب!

وقال صوت آخر:

- لا تهزه، قد توقظه.

- اهدأ! هو في نوم عميق لن يستيقظ منه مهما كان!

رفع الرجلان “سعيد” من السرير وحملاه إلى مكان آخر، وتظاهر “سعيد” بالنوم، وأنه لا يشعر بشيء، وأخذ يشخر شخيرًا طفيفًا زيادة في المصداقية.. دروس التمثيل لم تذهب هباءً.

شعر “سعيد” أنهما يحملانه إلى الطابق الأسفل، ثم عبر ممر طويل، كان يعد عدد الخطوات ويتابع اتجاه السير حتى وهو مغلق العينين.. انعطفاً إلى الشمال، ثم صعدا درجات سلم وخرجا إلى الهواء الطلق، وبعد المشي لمدة خمس عشرة دقيقة تقريبًا، وضعاه على الأرض، فجاء شخص آخر وسألهما:

- هل “سعيد” في قائمة اليوم؟

- نعم.

- غريبة.. ليس مذكورًا في قائمتي.. على أي حال، سوف يستعيد وعيه خلال ساعتين، ويمكنكما أن تأتيا بعد عشر ساعات.

أدرك "سعيد" أن عليه التظاهر بالنوم لساعتين أخريين.

ونادى الصوت:

- يا حور العين! إنني أتحدث إليكن.. أين أنتن؟

وسُمع صوت امرأة:

- نحن هنا!

- هل أنتن جاهزات؟ سوف يستعيد وعيه قريبًا.

- حسنًا، سوف أقترب منه وأُلاطفه، ثم تقوم حورية أخرى بلعق جسده، فأضاجعه أنا في وضعية الكلب وأعطيه عصيرًا يشربه، ليفقد وعيه مجددًا، وسوف أناديك.

- حسنًا، ولكن لا تنسي في أثناء المضاجعة أن تقولي وتعيدي: "أوه، أيها الجندي الشجاع، أيها المقاتل في سبيل الله، نحن في انتظارك بفارغ الصبر!".. لا تنسي! فبدون هذه الكلمات، نكون قد انشغلنا في دعارة رخيصة.. يجب أن يشعر وكأنه في الجنة، وليس في بيت للدعارة! يجب أن نعطيه ذكريات لا تُنسى، هل تفهمين؟ لا يمكن نسيانها.

فهم "سعيد" أنهن يتحدثن عنه، وأن تلك اللحظات التي لا تُنسى كانت تنتظره هو.

قالت إحدى الحور بلهجة استهزائية:

- أنت تعيدين شيئًا نعرفه جيدًا.. هذه ليست المرة الأولى، اذهبي وأنت مطمئنة!

أعطى الرجل لهن بعض التوجيهات الأخرى وتمتم:

- لقد جمعوا كل البغايا الغبية هنا ويريدون مني أن أتعامل معهن على نحو لائق.. مستحيل! هن لا يعرفن حتى كيفية إلقاء كذبة بسيطة، فكيف سيتمكنَّ إرسال جندي إلى الموت؟

ساد الصمت لحظة، وسُمع صوت طائر الليل.. لا تزال خمس ساعات قبل شروق الشمس.. بقى "سعيد" بلا حراك لمدة ساعة، ثم فتح عينيه.. ضحكة رنانة كانت تُسمع من الجانب الآخر من الحديقة.. اقترب "سعيد" من الحورية وعانقها من الخلف.. كان الحلم يتكرر، إلا أن "حبيبة" قالت شيئًا آخر في أذن "سعيد":

- "سعيد"، لقد اشتقت لك! تمكنت من تغيير القائمة وكتبت اسمك عليها.. أردت أن أراك! "سعيد"، أنا أفكر فيك منذ أن التقينا في الصحراء.

أراد "سعيد" أن يرد، ولكن "حبيبة" غطت فمه براحة يدها الصغيرة.

- صه! لا تقل شيئًا، قد يلاحظنا أحد.. استمع إلى ما أقول.. إذا أردت الاتصال بي، اترك رسالة في سلة ورشة الحداد، وسوف تجد ردي في اليوم التالي، في المكان

نفسه.. كن حذرًا يا "سعيد" هذه ليست مزحة.. لو لم تكتب لي في الأيام الثلاثة المقبلة، سوف أفترض أنك نسيتني ولن أغضب منك.. مرة أخرى، الأمر خطير للغاية.. أنت لا تعرف حقيقة هذا المكان.

وعانقته بثدييها العاريين.. كانت تئن بين ذراعي "سعيد".. لم يسمع "سعيد" صوتًا أحلى ولا موسيقى أجمل من تلك التأوهات.. إن مشهد الحلم يتكرر.

وبعد بضع ساعات، ادَّعى "سعيد" أنه شرب العصير، وتظاهر بالنوم تحت شجرة من الأشجار.

اقتربت الحور من "سعيد" وتأكدن أنه نائم، وقبلت "حبيبة" وكأنها تتحقق من الأمر، ولكنها كانت تقول وداعًا، وقالت "حبيبة":

- إنه نائم.

وقالت حورية وهي تضحك:

- كنتِ تتأوهين بشكل طبيعي تمامًا.. كنا نسمعك من آخر الحديقة! في لحظة ما اعتقدنا أنك ربما تحبين الشاب.

وردت "حبيبة" بسرعة:

- لا تتفوهي بكلمات غبية.. الحب آخر شيء أفكر فيه.. أنا لن آتي إلى الحديقة لبضعة أيام، نحن بحاجة إلى فتاة أخرى لتحل محلي.

وقالت الحورية غاضبة:

- انتظري لحظة.. ماذا تقصدين أنك لن تأتي إلى الحديقة؟ لن تأتي فتيات جدد قبل شهر وأنا دورتي الشهرية على وشك أن تبدأ، ولن أستطيع العمل.. كنت أفضل أن تنتظري قليلًا.

قالت "حبيبة":

- حسنًا، سوف نسأل السيد، وهو يقرر ما يجب القيام به.. هيًّا! لندعو الرجال كي يحملوا "سعيد" إلى سريره.

ضحكت الحورية:

- "سعيد"؟ هذا نجاح باهر.. إنك تعرفين حتى اسمه.. يبدو أنك تحبينه حقًّا!

- هو الذي قال اسمه وأنا أداعبه، لم أكن بحاجة إلى معرفته!

وذهبت الفتيات، وبعد ساعة واحدة جاء نفس الرجال وأعادوا "سعيد" إلى مسكنه.. كان أحد الحشاشين مستيقظًا، فتساءل:

- ماذا حدث؟ لماذا هو فاقد الوعي؟

فقال أحد الرجال:

- اهدأ.. كل شيء على ما يرام، لقد مرض خلال الليل، وفقد الوعي، وكانت رغوة بيضاء تخرج من فمه.. أخذناه إلى المركز الطبي، مثل هذه الأمور تحدث أحيانًا للشخص الذي يصيبه الإرهاق.. لا تقلق، سوف يستيقظ في غضون ساعات قليلة.

وغادر الرجال المكان.

وبعد نصف ساعة ادّعى "سعيد" الاستيقاظ، فحاصره الحشاشون على الفور يستجوبونه.

- أخي، كيف تشعر؟

وكان "المعلم" أكثرهم قلقًا.

- ماذا حدث؟ كنت نائمًا ولم أدرك أنك مريض، بماذا تشعر الآن؟

وقال "سعيد" بابتسامة واسعة على وجهه:

- جيد جدًّا، أيُّها "المعلم".. أشعر بأنني في حالة رائعة.

والواقع أنه لم يكذب، هو فعلًا يشعر بأنه في حالة رائعة، فحمل كبيرٌ قد أُزيح من على صدره، وأصبحت روحه أكثر خفة.. شعر "سعيد" بالارتياح الشديد.

(17)

رأس "المعلم".. اكتشاف "سعيد" الثاني

في آلموت - فارس.. 1117 م

مر شهر منذ تلك الليلة الغريبة في الحديقة.. كان "سعيد" يكتب رسالة إلى "حبيبة"، ويتركها في السلة بالقرب من ورشة الحدَّاد.. يفعل ذلك مرتين في الأسبوع.. لم تُذكر أي أسماء في الرسائل، كما أنها لم تحتوِ على أي معلومات محددة حول أي حدث معين.. بدلًا من ذلك، كانت الرسائل مليئة بكلمات الحب الجميلة، والأمل في أن تتحقق أمنيتهما في العيش معًا إلى الأبد.. لم يكن لـ"سعيد" ولا لـ"حبيبة" فكرة واضحة عن مستقبل علاقتهما، على الرغم من أنهما ليسا في علاقة فعلية حتى الآن.. كان لديهما ثلاثة أماكن للقاء، اثنان منها كانا سريين، والثالث كان في واحة صحراوية بجوار بئر ولم تستمر لأكثر من بضع ثوانٍ.. والآن، كانت سلة المهملات مكان لقائهما السري من خلال الرسائل المتبادلة.. غُمِر "سعيد" بالحب، كان يرى "حبيبة" في أحلامه ليلًا، ويفكر فيها في كل دقيقة أثناء النهار.

في تلك الأيام، لم يكن "المعلم" موجودًا.. ذهب لتنفيذ مهمة ما.. لم يسمع "سعيد" أي أخبار عنه، ولم يكن مسموحًا في "آلموت" أن تسأل عن مكان وجود حشاش آخر، حتى لو كان صديقًا مقربًا، وكان "المعلم"، قبل يوم من اختفائه، قد قال لـ"سعيد" بصوت هادئ وتعبير غامض على وجهه، إنه ذاهب في مهمة شديدة الأهمية، وظن "سعيد" أن "المعلم" يتكلم بشيء من المبالغة، وفي وقت لاحق، حاول "سعيد" أن يخمِّن المهمة التي عُهد بها لـ"المعلم".. لم يكن له نجاح كبير في التدريبات، لم يحقق درجات عالية.. الواقع أن المدربين كانوا غير راضين عن نتائجه، بل كانوا يتغاضون عن إخفاقاته في كثير من الأحيان، وهو ما مكَّن "المعلم" من إنهاء دورة دراسية كاملة.

طال غياب "المعلم" وزاد "سعيد" قلقًا.. بدأ يتساءل إذا كان "المعلم" قد طُرد من "آلموت".. قرر أن يسأل المدربين عن صديقه الذي اختفى، وفي ذلك اليوم جاء جندي المراسم إلى مسكن الحشاشين وقال:

- عليكم الحضور إلى "قاعة الحقيقة" بعد العشاء مباشرة لسماع خطاب "شيخ الجبل"، ولا تنسوا ارتداء الزي الاحتفالي!

والزي الاحتفالي هو جلباب أبيض مذهَّب طويل ذو قناع يغطي الرأس، وقد كُتب "جندي الله" باللغة العربية على ظهر الجلباب، وتم تطريز الشعار السري للحشاشين، المثلث المنسوج، على القناع.. كان الشعار نفسه مرسومًا على الرسالة التي منحت "سعيد" حق الدخول إلى القلعة.

تمامًا في الوقت المحدد، بعد العشاء مباشرة، دخل الحشاشون "قاعة الحقيقة" واصطفوا بطول الحائط حسب رتبهم.. كانت الإضاءة خافتة والأجواء مهيبة..

القاعة كبيرة، تتوسطها طاولة مستديرة مغطاة بقماش من الحرير.

وبمجرد اصطفاف الحشاشين، دخل شيخ الجبل العظيم، "الحسن الصبَّاح"، إلى القاعة.. رحَّب بالحشاشين بحركة رأس طفيفة وبدأ يتحدث:

- جنود الله! أنا، كحلقة الوصل الوحيدة بين السماء والأرض، الوسيط الوحيد بين جنة الله والعالم المنغمس في الخطيئة، أريد أن أشكركم على تفانيكم وإيمانكم.. منكم من أكمل دراساته وإلى هؤلاء أوجه الآن كلماتي.. سوف ترون قوتكم تتضاعف كل يوم.. إن الله هو الذي يبارك فيكم ويمنحكم القوة والمقدرة، لستم من عامة الناس.. تختلف عقولكم عن عقول عامة الناس، ولقوتكم طبيعة إلهية.

سار شيخ الجبل إلى الجانب الآخر من القاعة، وأضاف:

- إنني أتوجه الآن إلى الجنود الذين يخدمون الله منذ عدة سنوات، والذين بخناجرهم قتلوا الكثير من الشياطين! قضيتكم قضية عادلة، وتأكدوا أن يوم استشهادكم قادم وسوف تُمنحون النعيم الأبدي.

خطا شيخ الجبل نحو الطاولة في وسط القاعة، وقال:

- إن أحد إخواننا عُهد بمهمة بالغة الأهمية.. قتل أحد صبية الشيطان، ولكن الأعداء قبضوا عليه وقطعوا رأسه.

ومع هذه الكلمات، سحب شيخ الجبل قماش الحرير كاشفًا عن صينية نحاسية عليها رأس دام.. توقف قلب "سعيد" عن الخفقان.. كبح رغبته في الصراخ.. كان الرأس رأس "المَعلم"! شعر "سعيد" بخليط من الأسى والعجز، ولم يستطع منع دموعه من الانهمار، وقد أخفت الإضاءة الخافتة حالته من الآخرين.

وواصل شيخ الجبل:

- كما ترون، استعاد جنودنا رأس بطلنا من العدو.. بطلنا يتمتع الآن بحضور الله، يمشي في جنات عدن، هو في النعيم الأبدي، وتلك هي الجائزة الكبرى التي تنتظركم جميعًا.

ولكن مشهد الرأس الدامي لم يكن مشجعًا للرغبة في الاستشهاد.. صاح شيخ الجبل:

- جنود الله، هل أنتم مستعدون لمواصلة ما أنجزه المعلم، كما واصل "المعلم" ما أنجزه "أبو طاهر أراني".

- نعم.

بدا شيخ الجبل غير راضٍ.. كان رد الحشاشين يخلو من الحماس، ولم يعجبه ذلك.

- أنا لا أسمع الإيمان في ردكم.. أصاب بعضكم الشك وعدم التصديق.. منكم من لا يريد أن يكون جندي الله بكل جوارحه، ربما استيقظت المخاوف في نفوسكم.. لا أعرف.

تجنب الحشاشون نظرات "الحسن الصبَّاح" الفاحصة.. هز شيخ الجبل رأسه معاتبًا ودنا من رأس "المعلم".. أخرج زجاجة مليئة بمسحوق غريب من جيبه، فتحها وأفرغها على الرأس، متمتمًا بكلمات صلاة، وصاح فجأةً:

- يا الله، نريد أن نتحدث معه.. يريد جنود الله رؤية معجزة الله.. افتح عينيك، يا جندي الله!

ففتح "المعلم" عينيه!

هزت المفاجأة الجميع، حتى الجنود الذين اشتهروا ببأسهم وانضباطهم، ولم يستطع "سعيد" أن يصدق عينيه.. "المعلم"، أو بالأحرى رأسه، كان ينظر إلى الحشاشين مستغربًا، وكأنه يحاول أن يفهم سبب تجمعهم حوله.

ووجه شيخ الجبل كلامه إلى رأس "المعلم":

- يا جندي الله، لقد طلبت من الله أن نتحدث معك.. نريد أن نتبادل بعض الكلمات ونتأكد أن كل شيء على ما يرام.. أين أنت الآن؟

نظر "المعلم" إلى شيخ الجبل وبدأ الكلام:

- يا شيخ الجبل، أنا ممتن لك لإعطائي فرصة رؤية أصدقائي من جديد، وآمل أن ألتقي بهم مرة أخرى في المستقبل القريب.. أنا الآن في جنات عدن، كما يصفها الذكر الحكيم.. لا خوف هنا، لا ألم، بل نعمة لا تنتهي.

وقال شيخ الجبل:

- أيها "المعلم"، هل ترغب في الإجابة على أسئلة أصدقائك؟ إنهم يشتاقون للانضمام إليك.. قد يكون القلق قد تملك قلوب بعضهم، فإن أرشدتهم إلى الطريق القويم سنكون من الشاكرين.

- بكل سرور، يا شيخ الجبل، فأنا أدين لك بسعادتي الحالية.. أنت الذي فتحت عيني، وبفضلك اقتربت من نور الحقيقة.. شكرًا لك، أنا الآن في جنات عدن.

تحول شيخ الجبل إلى الحشاشين:

- يمكن لأي شخص أن يسأل أخيه "المعلم".

فتشجع حشاش وسأل:

- هل تشعر بالألم؟

وأجاب رأس "المعلم":

- لقد نسيت فعلًا ما هو الألم، ولا أشعر هنا إلا بنعمة الله عليَّ.

وسأله حشاش آخر:

- ماذا تفعل هناك؟

- الحور لا تتركن لي الكثير من وقت الفراغ، ولكن الزمن في السماء يختلف عن الزمن على الأرض.. أنا لا أعرف كم من الوقت قد مضى في العالم الذي تعيشون فيه، ولكنني أشعر أنني كنت هنا دائمًا.

وسأله آخر:

- الطقس في الجنة، هل هو بارد أم حار؟

- الطقس هنا ليس باردًا أو حارًا.. الطقس هنا كما تريده أن يكون.

صاح "سعيد":

- هل تذكر أصدقاءك؟

فرد "المعلم"، موجهًا كلامه إلى "سعيد"، وقد ظهرت ابتسامة على وجهه الدامي:

- بالطبع أتذكر، وأنا أتطلع إلى رؤية أصدقائي هنا.. أنا في انتظار كل أصدقائي.

اقترب شيخ الجبل من رأس المعلم، وأغلق عينيه بيده، وقال:

- يا بني، لقد انتهت معاناتك الأرضية، فاستمتع الآن بالنعيم الذي تستحقه!

لاحظ "سعيد" شيئًا غريبًا على الجانب الأيسر من رأس "المعلم".. كانت بقعة سوداء لا يمكن أن تكون بسبب قطع الرأس.. أمعن النظر وأدرك أن البقعة السوداء ليست إلا صبغة سوداء بهدف إخفاء رقبة المعلم بحيث لا تظهر! أدرك "سعيد" كل شيء في آن واحد: الإضاءة الضعيفة، الرأس المتكلم، ابتسامة "المعلم"، والمهمة الاستثنائية التي كان قد عُهد بها.

لقد شاركوا توًا في عرض مسرحي يهدف إلى إثبات وجود حياة بعد الموت، وجنات عدن، ونعمة الآخرة، فضلًا عن إثبات ألوهية "الحسن الصبَّاح"! كان قادرًا على إحياء رجل ميت، أو بالأحرى رأسه المقطوع، على الأقل مؤقتًا! يا لها من خدعة! وكل هذه الأكاذيب قد قُدمت في "قاعة الحقيقة"! أكاذيب تثير الاشمئزاز والسخرية في آن واحد.. ابتسم "سعيد" راضيًا، إذًا "المعلم" على قيد الحياة.. الحمد لله، كان هناك شيء جيد في كل هذه الفوضى.. كان صديقه "المعلم" مختبئًا تحت الطاولة المغطاة بالحرير، ويجب أن يجده لاحقًا.

في تلك الليلة، مستلقيًا على سريره، استحضر "سعيد" مشهد الرأس المقطوع وكيف أنه خُدع - ولو للحظة - أن الرأس يتكلم! كم سبَّب له "المعلم" من ألم.. نام "سعيد" وحلم حلمًا غريبًا.. كان في "قاعة الحقيقة"، وكانت مجموعة من رءوس الحشاشين يسبحون في فضاء المكان ويبتسمون!

حثه أحد الرءوس:

- أخي "سعيد" قدِّم رأسك إلى شيخ الجبل، واحتفظ ببقية جسدك لنفسك.. إن شيخ الجبل سوف يُظهر لك باب السعادة والنعيم، هو يحبك، لا تكن ناكرًا للجميل.. إنه يريد رأسك فقط في المقابل.

وتوجَّه "سعيد" من بين الرءوس الطافية إلى وسط القاعة، حيث كان شيخ الجبل واقفًا معطيًا ظهره له، وعندما اقترب "سعيد" منه، استدار "الحسن الصبَّاح" وكانت في يده تفاحة!

- يا "سعيد"، خذ التفاحة.. فأنت تعرف كل شيء.

مد "سعيد" يده وأخذ التفاحة، التي تحولت إلى خنجر معقوف ينبعث منه ضوء ساطع ينير سواد القاعة، واستيقظ "سعيد" من الضوء، وأيقن أن الشمس قد أشرقت.

في كل فجر، يستيقظ الحشاشون، فيغتسلون ويرتدون ملابسهم، ويتدربون في فنون المبارزة بالسيوف حتى وقت الإفطار.. هم يعيدون التقنيات التي تعلموها، فيوجهون الضربات إلى الدمى التي وُضعت في وسط قاعة التدريبات، وفي بعض الأحيان يتبارزون مع بعضهم البعض، مقلدين معارك حقيقية، وعلى الرغم من أن السيوف المصممة للدورات التدريبية لم تكن حادة النِصال، فإن المتبارزين قد يصابون بإصابات خطيرة.

وكان "سعيد" قلقًا من أنه لن يستطيع أن يشارك في التدريب بفاعلية.. ربما بسبب مشهد رأس "المعلم" أو حلم الليلة السابقة.. أحيانًا يتحدث الله إلى الناس من خلال أحلامهم.. في هذه الحالة، ما مغزى التفاحة التي تحولت إلى خنجر؟ هذه الأفكار تابعته طوال اليوم وقد غلبته الحيرة.. كان يتساءل إذا كان الله يطلب منه قتل الآخرين.

قبل الإفطار، ذهب "سعيد" لزيارة الحداد.. كان الحداد يعتقد أن "سعيد" مبهور بالسيوف والخناجر الجديدة، فيقوم بشرح أهميتها، وتقنيات صنعها، وكان "سعيد" يستمع إلى الحداد في صمت، متظاهرًا بالاهتمام؛ فهو ينتظر لحظة مناسبة يبحث فيها عن رسالة "حبيبة" في السلة!

قال الحداد:

- هذا الخنجر مصنوع من خليط من أربعة معادن مختلفة، كل معدن يعطي الخنجر خاصيته، فيعطيه الصُلب المتانة والمرونة، ويعطيه الحديد الزهر الصلابة، وبفضل النحاس والزنك لا يفقد نصل الخنجر حدته.

أخذ "سعيد" الخنجر وتحسسه وسأل:

- وما سعر هذا الخنجر؟

- هذا الخنجر ليس للبيع.. إنما يفوز به الحشاش الذي يكسب ثقة شيخ الجبل، وهو الذي يسلِّمه شخصيًّا إلى الحشاش في "قاعة الحقيقة"، فإلى جانب الخنجر، يحصل مالكه الجديد على حكمة الخبراء الذين صنعوه.

وضع "سعيد" الخنجر على قاعدته المخملية، وقد تاه في أفكاره.

قال الحداد بصوت خفيض:

- يا "سعيد"، أرى أن الخنجر يعجبك، وأنت زائري الدائم.

نظر الحداد حوله للتأكد من أن أحدًا لا يراقبهما:

- خذ هذا الخنجر.. سوف أسمح لك الاحتفاظ به ليوم واحد، ولكن لا تكشف الأمر لأحد! سوف يمدك بالقوة، ولكن لا تنسى أن تعيده إليَّ غدًا.. أنا متأكد من أن "الحسن الصبَّاح" سوف يكافئك بخنجر من هذا النوع الفريد في يوم الأيام!

أخذ "سعيد" الخنجر وخبأه في ملابسه.. شكر الحداد وسرعان ما ترك ورشة العمل.. لم يلحظ الحداد أن "سعيد" قد أخذ شيئًا ما من السلة.

ركض "سعيد" إلى صالة الطعام حتى لا يتأخر عن الإفطار.. كان يخبئ شيئين في ملابسه: الخنجر والرسالة.

وكان الإفطار قد بدأ توًا، فقام حشَّاش رفيع المستوى بتوبيخه لتأخره وأمره بالبقاء بعد وجبة الإفطار لغسل الأطباق عقابًا له، ففرح "سعيد" وغسل الأطباق؛ سوف يوفِّر له هذا الأمر فرصة قراءة رسالة "حبيبة"، وفعلًا، اختبأ "سعيد" وراء هرم من الأطباق القذرة، وفتح الرسالة وقرأ: "غدًا لن أكون هنا ولن تراني مرة أخرى.. سوف أنتظرك قرب السلة في منتصف الليل.. الآن أو أبدًا! الأمر متروك لك".

صُدم "سعيد" من هذا التطور المفاجئ.. يجب أن يتخذ قراره حتى منتصف الليل.. "حبيبة" تغادر "آلموت"، ولكن لماذا؟ ربما كانت تشتبه في شيء.. ربما لم تعد صالحة للخدمة.. لا يستطيع أن يعرف.

"لا يزال هناك الكثير من الوقت حتى منتصف الليل"، هكذا قال "سعيد" لنفسه وبدأ بغسل الأطباق، وعند الانتهاء منها سمع صدح الأبواق، ما يشير إلى بدء تدريبات الرمح.. خرج من المطبخ وتوجه نحو أرض التدريب.

لكن اتجاه الحشاشين كان ساحة "آلموت" الرئيسية، فهذه المرة تعلن الأبواق عن اجتماع طارئ، لم يعرف أحد ما سبب هذه الدعوة.

دخل "سعيد" الساحة ورأى عارضتين خشبيتين تم وضعهما وسط الساحة، وكان هناك شيء معلق بينهما غطى بقطعة قماش.. وقف جنديان على جانبي العارضتين.

وصاح قارع الناقوس:

- يا جنود الله، سوف نقول وداعًا لأخينا، ونأمل أن نلتقي به قريبًا، وبإذن الله، وبأمر شيخ الجبل، سوف نسعى جاهدين لتحقيق ما تمكن أخونا من تحقيقه.

عند سماع هذا، اقترب أحد من الجنود من العارضتين وسحب الحبل المعلق من القماش، كاشفًا ما كان يخفيه، وكان ذلك رأس "المعلم" المقطوع! وفي هذه المرة، لم يكن هناك عرض مسرحي، ولا قاعة مظلمة، ولا رأس مصبوغ.. لقد تم قطع رأس "المعلم" فعلًا.

إذًا فـ"المعلم" قُطعت رأسه بعد عرض الليلة الماضية، لقد خُدع "المعلم" بخسة ومكر.. كان مقتنعًا بأنه يقوم بمهمة خاصة، ثم قُطِع رأسه كي يتمكنوا من عرضه،

لم يكن "المعلم" يعلم إلا الجزء الأول من العرض، والآن يقترب الحشاشون من رأسه الواحد تلو الآخر وينحنون أمامه.

سأله أحد الحشاشين:

- يا "سعيد" ألا تريد أن تقول وداعًا لصديقك البطل؟

"سعيد" لم يرد.

غادر "سعيد" مسكنه قبل انتصاف الليل، بعد أن تأكد أن كل الحشاشين قد ناموا ولا أحد يتبعه.. بمهارة نجح في تجنب حراس الليل، ووصل أخيرًا إلى ورشة الحداد التي كانت مغلقة في ذلك الوقت.. كان الحداد وعائلته يسكنون في الطابق العلوي من نفس المبنى.. كان المبنى كله مغلقًا بالظلام، فمن عادة الحرفيين النوم المبكر.

اختبأ "سعيد" في زاوية مظلمة من الرصيف وانتظر.. لا يعرف ما قد تحمل الأحداث من مفاجآت.. فكر طبعًا في الهروب من آلموت مع "حبيبة"، لكنه لم يكن لديه أي فكرة عن كيفية تحقيق ذلك، ولا يمكنه أن يتصور ما قد ينتظرهما إذا هربا.

فجأته الأحداث.. من كان يظن أن شيخ الجبل، معبود الحشاشين، ليس إلا شخص كذّاب وحقير؟

رأى "سعيد" شبحًا آتيًا من آخر الشارع.. لا بدَّ أنها "حبيبة".. كان الشبح مكتسيًا بملابس ما، ولكن المشية الحذرة المتهادية تشير إلى أنه امرأة.. وصلت إلى المنزل ونظرت حولها في قلق.. واقترب "سعيد" منها.

- "حبيبة"؟

كان صوت "سعيد" خفيضًا.

المرأة لم ترد.. يبدو أنها لم تسمعه.

- "حبيبة"!

رفع "سعيد" صوته.

رفعت المرأة الغطاء عن وجهها.. لم تكن "حبيبة"، هي حورية أخرى كانت مع "حبيبة" في ذلك اليوم.. اندهش "سعيد"، وبدت المرأة مضطربة فزعة.

وسُمع صوت أجش من الخلف:

- لا تتحرك! وإلا مزقناك إربًا!

استدار "سعيد" ورأى ثلاثة جنود ضخام الجثث شاهرين السيوف.

قال أحد الجنود:

- سر أمامنا!

- إلى أين؟

قال الجندي الآخر:

- ستعرف عندما نصل.

ولكم "سعيد" في معدته.. تأوَّه "سعيد" من شدة الألم.. لم تكن الضربة تهدف إلى إلحاق الأذى بـ"سعيد"، إنها تحذير له بأنهم لا يمزحون معه.. بدأ "سعيد" يمشي في صمت، وكان أحد الجنود يقوده بينما الآخران في الخلف.. ساروا لفترة من الوقت في صمت حتى وصلوا إلى منزل شيخ الجبل.. ظل اثنان من الجنود عند المدخل، ودخل الثالث المنزل مع "سعيد".

كان "الحسن الصبَّاح" جالسًا يقرأ شيئًا ما في ضوء مصباح على الطاولة.. دخل "سعيد" والجندي في صمت.. بدا "الحسن الصبَّاح" منشغلًا تمامًا بما يقرأ، حتى إنه لم يلحظهما.

لكنه رفع رأسه بعد برهة وقال بهدوء:

- إن الشِعر يساعدني على الهروب من الواقع.

"سعيد" لم يجبه.

- إنه يعلمنا أشياء جميلة، ويطهِّر الروح البشرية، حتى يجعلها أكثر جمالًا ومحبة لله.

ظل "سعيد" صامتًا.

٠ الحب الحسي لا شيء مقارنة بالحب الروحي، والرجل المقيد بحب الجسد لا يصلح لأن يخدم الله.

صاح "الحسن الصبَّاح" فجأة بغضب:

- لماذا قيدت نفسك بحب تلك الفتاة، يا "سعيد"؟

فرد "سعيد":

- أنا أحبها يا شيخ الجبل.

- اصمت! أنت تحبها، أليس كذلك؟ وهل تحب الله؟ هل تحب إخوتك الروحيين؟ هل تقدر إخلاصهم؟ أنت لا تحب سوى نفسك، وتخبئ ذلك وراء تلك الفتاة.. هل تعرف أنك حكمت عليها بالموت بأفعالك؟

وواصل "الحسن الصبَّاح" حديثه، مشيرًا إلى النافذة:

- لقد أعطيت أمرًا بإحضارها وقطع رأسها أمامك! جزاء الخائن الإعدام! ألم تعرف ذلك؟

صرخ "سعيد" مثل الوحش الجريح.. كانوا قد قطعوا رأس "المعلم"، والآن سوف يقطعون رأس "حبيبة"! شعر "سعيد" بأنه لا يستحق الحياة.. لم يكن مهتمًا بالمكافآت التي وُعد بها في الآخرة.. نظر إلى "الحسن الصبَّاح" بوجهٍ خالٍ من أي

تعبير، وكأنه ينتظر منه أن يعطيه تفاحة كما كان الحال في الحلم.. كان الحلم يبدو الآن أقرب إلى الواقع من أحداث اليوم.. تلك الرءوس المقطوعة التي رحبت به.

***

أخرج "سعيد" الخنجر المُخبَّأ في ملابسه وطعن به رقبة الحارس.. حدث ذلك بسرعة وبشكل غير متوقع.. اِنهار الجندي على الأرض، صانعًا بركة من الدماء حوله.. نظر "الحسن الصبَّاح" إلى "سعيد" مذهولًا.. لم يُسمح لأحد في "آلموت" بحمل سلاح دون إذنه، وأسرع "سعيد"، ووضع الخنجر على رقبة "الحسن الصبَّاح" وقال:

- أنت كذَّاب، وتزعم أنك نبي من الأنبياء، لقد خلقت جحيمًا على الأرض.. سوف تموت، ولكن ما قمت بخلقه سوف يظل حيًا.. إن الوحش الذي خلقته يعيش على الدم، والكثير من الدم سوف يُسفك بعدك.

ابتسم "الحسن الصبَّاح" ساخرًا:

- أنت غبي! كنت أستطيع أن أمنحك السعادة.. ما الفرق بين الحصول على السعادة هنا أو في أي مكان آخر؟ هل نسيت أنك كنت متشردًا فقيرًا؟ هل كنت سعيدًا حينذاك، وأنت جائع ومضطهد، تجول من بلدة إلى أخرى؟

- نعم، كنت سعيدًا.. تعرف لماذا؟ لأنني كنت حرًا، حتى وأنا مضطهد وجائع.. كنت سيد نفسي.

- ألم تريد أن تقتلني؟ هيَّا اقتلني!

- لا!

وابتسم "سعيد" ابتسامة شيطانية:

- لن أقتلك. سوف تساعدني في الهروب من "آلموت" مع "حبيبة"! سوف ترافقنا إلى أن نخرج من القلعة.. لن أقتلك لو حافظت على هدوء أعصابك وساعدتنا في الهروب، ولكن إذا لاحظت منك أي حركة مريبة، سوف أضرب عنقك دون تردد.. لقد حققت هدفك، يا "حسن"، ليس لدي شيء أخسره.. أنا لا أخاف الموت؛ فالحياة ليست لها قيمة بالنسبة لي.

أطاع "الحسن الصبَّاح" رغبات "سعيد"، فأمر بإحضار "حبيبة"، وخرج الثلاثة معًا باتجاه بوابات "آلموت"، وخفض "الحسن الصبَّاح" غطاء رأسه حتى لا يتعرف عليه أحد.. كان الليل على وشك أن ينجلي.. ظهرت قمم الجبال في الشرق.

سارع "الحسن الصبَّاح" من خطواته.. أراد أن يغادر "آلموت" قبل الفجر لتجنب العار.. لم يخف من الموت، ولكن الموت بيد "سعيد" مُخزٍ.. كان قد خلق لنفسه أسطورة الشخص الذي لا يُقهر، وأصله الإلهي، لكنه أصبح الآن رهينة شاب كهذا يحمل خنجرًا مسروقًا، وعلى الأرجح لم يُكلف قبلا بمهمة اغتيال، وقد يكون

الجندي الذي طعن رقبته أول وآخر ضحية له.. كانت جريمة قتل ارتكبت باسم الحب.

كان الحب شعورًا غريبًا وغير مفهوم لـ"الحسن الصبَّاح".. كان هناك نوع واحد فقط من الحب بالنسبة له: حب الله، ولكن كان لـ"سعيد" حب آخر، وهو ما أثبت فشل "الصبَّاح".. فأين كان خطؤه، وماذا كان عليه أن يفعله؟

لم يكن "سعيد" يفكر في أي شيء.. كان يمشي ميكانيكيًّا وراء "الحسن الصبَّاح" ولم يشك أحد في أن الأسير هو شيخ الجبل.

معًا، وصلوا إلى بوابات "آلموت".. هذه هي البوابات التي يغادر منها الحشاشون القتلة لارتكاب جرائمهم.

وصاح حارس:

- توقفوا! ممنوع الخروج!

قال "سعيد":

- نحن نغادر "آلموت".

أما "الحسن الصبَّاح" فوقف مغطيًا رأسه حتى لا يستطيع الحارس رؤيته.

قال الحارس:

- لقد أصدر "الحسن الصبَّاح" أمرًا بعدم السماح لأي شخص بالخروج.

ووضع يده على السيف المعلق من حزامه.

رفع "الحسن الصبَّاح" غطاء الرأس، وقال:

- افتح البوابات! هذا أنا!

فارتبك الحارس وانحنى أمام سيده.. فُتحت البوابات.. خرج "الحسن الصبَّاح"، أما "سعيد"، فقبل أن يتبعه، وجه سؤالًا إلى الحارس:

- ومتى لا تنفذ أمر "الحسن الصبَّاح"؟

فرد الحارس دون تردد:

- عندما يأمرنا "الحسن الصبَّاح" نفسه بعدم تنفيذ أوامره!

هذه الإجابة، لسبب ما، كانت مسلية لـ"سعيد".. ضحك بصوت عالٍ وغادر "آلموت"، ومضى الثلاثة يسيرون في دروب الجبال.

وبعد يومين عاد "الحسن الصبَّاح" إلى "آلموت"، وحكم حتى نهاية حياته، فحكم ابنه من بعده.

ولم يُسمع أي شيء عن «سعيد» و«حبيبة».. قيل إن «سعيد» قد أصبح تاجر أسلحة وإنه ناجح تمامًا في عمله، فبفضل الحروب الصليبية أصبحت الأسلحة أكثر السلع

رواجًا، وكانت الحياة البشرية أقل قيمة من تلك الأسلحة الحاصدة للأرواح، وقيل أيضًا إن قوافل «سعيد» المحملة بالأسلحة لم تتعرض أبدًا لهجمات حشاشي «آلموت»، استثناء لم يتمكن أحد من تفسيره!

(18)

سر البابا "أوربانوس الثاني"

كليرمون.. 1099 م

عشرون يومًا والبابا "أوربانوس الثاني" لم يغادر غرفته.. همسات كانت تتنقل فى القصر بأنه يعاني مشكلات صحية وكانت صحيحة إلى حد ما.

كان البابا تعتريه نوبة من السعال تستمر لمدة ساعة على الأقل.. كان يلهث من ضيق التنفس.. السعال يصيبه بالضعف الشديد فيحتاج إلى النوم لساعة أو ساعتين ليستريح، وهكذا، لم يستطع أن يعمل، أصبحت حياته منقسمة بين السعال والنوم.

كان البابا شديد الإيمان، ولهذا لم يكن يحب الأطباء؛ فكل شيء في يد الله، بما في ذلك الصحة.. رفض البابا الرعاية الطبية إلى أن بدأ "أودو" أيضًا يعاني من الأعراض نفسها، فاستنتج "أوربانوس" أنهما مصابان بمرض ما، وكأنهما يتبادلان أوقات السعال، وهكذا فإن أي اتصال بينهما أصبح مستحيلًا.. قلق البابا في نهاية الأمر واستدعى الطبيب "فوكه".

وفي الوقت نفسه، كان الصراع العسكري والسياسي في الشرق قد اقترب من الحل، كان الصليبيون قد وصلوا إلى "أورشليم".. كان البابا ينتظر خبر تحريرها، ومرضه الرهيب جعل الانتظار لا يُطاق.. كانت الأخبار تارة سعيدة وتارة محزنة، لم يستطع "أوربانوس" مناقشتها مع "أودو"، فتراكمت الرسائل على مكتبه وغطتها.. كانت الرسائل تُخبره أن الصليبيين حرروا أنطاكية، واستطاعوا أن يهزموا الجيش التركي بفضل الحربة المقدسة.

بعد وفاة الأسقف "أدهيمار"، ظلت وظيفة نائب البابا شاغرة.. البابا لم يعين شخصًا آخر ليكون الزعيم الروحي للحجاج وكان لهذا تأثير سيئ جدًّا على الحملة؛ فالشخص الوحيد الذي كان يكبح همجية ودموية الجيش إلى حد ما، هو الأسقف "أدهيمار"، وبعد وفاته، انحرف الجيش عن مساره الروحي.. أي خلاف صغير كان يتطور إلى شجار كبير في المعسكر، وقد ينتهي الأمر بعمليات قتل، وقد وصلت السرقة بين الجنود إلى أبعاد هائلة، وقد كثرت المومسات اللاتي يقدمن خدماتهن للقادة والجنود على حد سواء.

ودل حادث مثير للاشمئزاز في قرية "معرة" على ذروة الانحلال؛ فالصليبيون، قتلوا وأكلوا جميع سكان القرية، ووفقًا لرسالة واحدة، كان الصليبيون يقومون بشوي الشبان وغلي كبار السن.. هذه الحفلة الوحشية كانت إعلانًا لموت الأخلاق، ولكن البابا "أوربانوس الثاني" لم يعلم بها، وكان مرض "أودو" قد أرجأ القيام بأي عمل.. كان قرار استدعاء الطبيب ذا أهمية وطنية.. على مدى السنوات العشر الماضية، كان الطبيب "فوكه" يعتني بصحة البابا، يزور القصر كل يوم ثلاثاء ويُجري فحصًا طبيًا مفصلًا، وقد اعتاد رجال القصر على زياراته المنتظمة.

وكان من مسئوليات الطبيب "فوكه" الإشراف على غذاء البابا، فكان يزور المطبخ البابوي ويفتح حقيبته المليئة بالقوارير المتعددة ويأخذ عينات من الوجبات المخصصة للبابا، وكان "فوكه" يقوم بفحص وعلاج "أودو" أيضًا، وبعد مغادرة الطبيب، كان "أوربانوس" يسأل "أودو" إذا كان الطبيب قد أعطاه النصيحة نفسها التي أعطاها إيَّاه أو إذا كان "أودو" قد أخذ بها.

كان "فوكه" في ألمانيا عندما تم استدعاؤه إلى قصر البابا على وجه السرعة.. قضى الطبيب رحلته إلى فرنسا قلقًا.. كان يشعر بأن شيئًا سيئًا سوف يحدث.. وصل إلى القصر، ودخل غرفة البابا ونسي تقديم التحية له.. أخرج القوارير والأدوية ووضعها على الطاولة بترتيب معين.

قال "أوربانوس":

- أيها الطبيب، لقد دعوتك من أجل "أودو" وليس من أجلي.

قال "فوكه" دون حتى النظر إلى "أودو":

- ماذا حدث يا قداسة البابا؟ لقد فحصته قبل يومين ولم أرَ أي سبب يدعو للقلق.

قال "أوربانوس":

- لا أعرف.. لقد زاد سعاله الليلة الماضية وكاد أن يختنق.. أنا أخاف عليه، يا "فوكه".. اعتني به.. "أودو" لا يهتم بصحته على الإطلاق ويركِّز كل اهتمامه على الحج الصليبي.. لم ينم طوال الليل لأنه كان ينتظر أخبارًا قد يأتي بها رسول من الرسل، وقد وصل الصليبيون بالفعل إلى "أورشليم".. لقد دمروا العرب الكفار وينشرون الآن كلمة الله.. يجب على الكفار أن يشعروا بقوة الرب ويجب عليهم.

نوبة سعال قطعت حديثه.. واصل بعد أن هدأت:

- يا "فوكه"، يجب أن تعتني بـ"أودو" كما تعتني بي.

رد "فوكه":

- اطمئن.. إن عنايتي لكما هي هي، وعلاجي أيضًا هو هو.

أخذ "فوكه" واحدة من القوارير، وفحصها تحت الضوء، وسكب بضع قطرات منها في ملعقة طبية، وجلبها إلى "أوربانوس".

- اشرب هذا، يا قداسة البابا! إنه شرابٌ مهدئ مستخرج النعناع المفضل لك.

شرب البابا الدواء، فغلبه النعاس ونام.

انشغل "فوكه" بعمله.. كان يخلط السوائل والمساحيق المختلفة، ويكتب توجيهاته بمواعيد تناول الأدوية، بعضها على معدة خاوية وغيرها بعد وجبة الطعام، وبصرف النظر عن إعداد الأدوية، كتب "فوكه" أيضًا شيئًا ما على قصاصة من الورق، وتركها بالقرب من قارورة الدواء، وبعد ساعتين من العمل الدقيق، خرج

"فوكه" من غرفة البابا بأكبر قدر ممكن من الهدوء، وكان الكاردينال الحامل للصولجان ينتظره في الرواق، وعند رؤيته له، سأله على الفور:

- أيها الطبيب "فوكه"، كيف حال قداسة البابا؟ هل سيتعافى؟

وقال "فوكه":

- كل شيء في يد الله.

فضحك الكاردينال:

- يا "فوكه"، ألا تجد الأمر غريبًا؟

- ماذا؟

- إنك رجل علم وتواسيني بتعبيرات دينية.

وقال "فوكه":

- رأيي كطبيب أن البابا لن يعيش طويلًا.

فسأله الكاردينال مبتسمًا:

- وماذا عن "أودو"؟

فرد "فوكه" ممتعضًا:

- لا أعتقد أن الوقت مناسب للنكات.. وداعًا.

كان الكاردينال سعيدًا بالنكتة التي أطلقها، وذهب إلى غرفته يفكر في القضايا المتعلقة بميراث العرش البابوي.

كان «فوكه» على حق.. في صباح يوم ٢٩ يوليو، من عام ١٠٩٩، توفي البابا «أوربانوس الثاني».. كان «أوربانوس الثاني» هو الاسم الذي اتخذه عند ترسيمه بابا، ولكن اسمه الحقيقي كان «أودو دي شاتيون».

خاتمة

باريس.. 2015م

في الساعة العاشرة ليلًا وضع "علي" أذنه على الحائط للتأكد من أن الجميع قد ناموا، ثم ارتدى ملابسه ودخل غرفة أخيه.. توجه إلى النافذة وفتحها بهدوء وخرج منها.. تشبث "علي" بعتبة النافذة بكلتا يديه.. سمع صفارات إنذار.. سيارة شرطة كانت تمر مسرعة في الشارع.. نظر "علي" إلى النافذة.. لا، كل شيء كان على ما يرام.. كان قد أغلق النافذة بعد خروجه منها، لن يستيقظ شقيقه من الصوت.

استطاع أن ينزل على الحافة الحديدية للطابق الأرضي، ومن هناك قفز إلى الشارع.. كانت صفارات إنذار سيارة الشرطة لا تزال مسموعة، أضيفت إليها صرخات وصياح من شارع جانبي وبكاء نسوة من مبنى قريب.. مشى "علي" إلى آخر الشارع على أمل العثور على سيارة أجرة.. انتظر لمدة نصف ساعة، ولكن لسبب ما كانت جميع السيارات تمر مسرعة، وكأنها قد أصابها الجنون.

تملكه شعور غريب أن المدينة تجتاحها الاضطرابات.. كانت الشوارع تشهد حركة غير اعتيادية، وكأن الجميع مهمومون بالوصول إلى مكان ما.. يجب أن يعثر على سيارة؛ فالنادي الليلي الذي ذهبت إليه "ليز" كان في ضاحية بعيدة عن "باريس"، ولم يكن واقعيًا الوصول إليه سيرًا على الأقدام.. قرر "علي" أن يعبر الشارع ويمشي قليلًا في محاولة لتوقيف سيارة أجرة في شارع أكثر ازدحامًا.. كان بالكاد قد سار خطوات قليلة عندما توقفت سيارة الشرطة فجأة بجانبه، وخرج منها شرطيان واقتربا منه.

صاح أحدهما:

- من أنت؟

- اسمي "علي"، أنا طالب.

- وماذا تفعل في الشارع في هذا الوقت المتأخر؟

- إنها ليلة الجمعة، فقررت أن أذهب إلى نادٍ لقضاء بعض الوقت مع أصدقائي.. أليس ذلك مسموحًا؟

- لنرى بطاقة إثبات الهوية!

لحسن الحظ، كانت بطاقته معه، على افتراض أنه لن يُسمح له دخول النادي بدونها.. أخرج البطاقة من جيبه ومدها للضابط، ملاحظًا أن الضابطين يراقبان حركاته.. أحد الضابطين انتزع البطاقة من يد "علي"، قرأها في ضوء مصباحه اليدوي، ثم وجَّه الضوء إلى وجه "علي".

وقال ضابط الشرطة لزميله:

- "كريستو"، يبدو أن كل شيء على ما يرام.

ولكن الضابط الآخر كان ينظر إلى "علي" متشككًا في أمره وسأله:

- وفي أي مدينة جامعية تسكن؟

- أسكن مع والديّ.

- أين منزلك؟ في أي حي؟

- في الشارع التالي على بعد 200 - 300 متر.

فواصل الضابط:

- هل هناك العديد من العرب في منطقتكم؟

- نصف مبنانا يقطنه العرب، لكن ليس لديَّ فكرة كم عددهم في الحي.

لم يستطع "علي" أن يفهم سبب هذه الأسئلة الغريبة.. ربما كان الضابطان يشكان في تورطه في تجارة الحشيش، فبعض الشباب العرب، ومعظمهم من المغاربة، يبيعون الحشيش في ممرات بالقرب من محطات السكك الحديدية في باريس.. كانوا ينقلون الحشيش في شكل كرات سوداء تشبه الزيتون، فاشتهر المخدر باسم "الزيتون" في شوارع العاصمة باريس.. كان المشتري يقترب من أي شخص يبدو عربيًا أو له بشرة داكنة، ويسأله أين يمكن شراء "الزيتون"، وكان التاجر يبتسم ابتسامة ذات مغزى، ويعطيه "زيتونة الإدمان" في مقابل مائة يورو.

قال أحد الضابط الذي كان متشككًا في أمر "علي":

- يبدو أنك رجل ذكي، لنذهب إلى منزلك!

قال "علي":

- عفوًا، ولكن لماذا تريد مني أن أريك منزلي؟

- نود زيارته! هيًّا، نحن على عجلة من أمرنا!

- سيدي، أنا لست تاجر مخدرات، إن كنت تشك في ذلك، ودعني أعترف بالحقيقة، لقد خرجت من المنزل سرًا وإذا اكتشف والدي ذلك، سوف أكون في ورطة كبيرة.

فصاح الضابط آمرًا:

- هيًّا! لنذهب إلى منزلك! ليس لدينا وقت لسماع حجج سخيفة!

تمتم "مصطفى" متلحفًا "الروب دو شومبر"، وصاح نحو الباب:

- أنا قادم! أنا قادم! آه، لم أستطع أن آخذ قسطًا من النوم طوال الليل.

خرج "مصطفى" من غرفة النوم فرأى أن الأسرة كلها قد تجمعت في غرفة المعيشة.. كانوا ينظرون إلى الباب بعيون ناعسة نصف مغلقة، وقد استبد بهم القلق

والحيرة، فزاد "مصطفى" غضبًا.. من الذي تجرأ على إزعاج عائلته؟ ومن شدة الغضب لم يلحظ غياب ابنه الأصغر.

صاح "مصطفى" وهو يقترب من الباب:

- مَنْ الطارق؟

- الشرطة! افتح الباب!

- الشرطة؟ ماذا حصل؟

قال الضابط:

- افتح، وسوف تعرف!

قال "مصطفى":

- لا أفهم، نحن مواطنون ملتزمون بالقانون.

وفتح الباب.

كان ابنه "علي" واقفًا على العتبة، وبجانبه ضابطا شرطة، فبدأت زوجة "مصطفى" تبكي، معتقدة أن الشرطة قد اعتقلت ابنها.

سأل "مصطفى" مندهشًا:

- ماذا حدث؟ ما الذي فعله ابني؟

أوضح أحد الضابطين:

- سيدي، لم يرتكب ابنك أي جريمة.. اصطحبناه إلى منزله لسلامته الخاصة.

وقال الضابط الآخر:

- أردنا أن نتأكد من أنه يعيش فعلًا في هذا المنزل.

- نعم، يعيش في هذا المنزل.. هو ابني، وأرجو أن تشرحا لي لماذا يرجع إلى المنزل في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

لم يستطع "مصطفى" أن يكبح غضبه.

وقال الضابط الأول:

- دعنا ندخل وسنشرح كل شيء.. خاصة أن الأمر متعلق بك.

صرخ "مصطفى" شيئًا باللغة العربية لعائلته المتجمعة في غرفة المعيشة لم يستطع الضابطان فهمه.. لم يكن "مصطفى" سعيدًا لرؤية زوار الليل، وانعكس هذا على سلوكه.. لوَّح أيضًا لعائلته بالانصراف.

دخل الضابطان غرفة المعيشة وهما يلقيان حولهما نظرات فاحصة.. قال أحدهما:

- وقع في باريس قبل ساعتين فقط هجوم إرهابي لم يسبق له مثيل.. المشتبه بهم هم من الشباب العرب، والدافع المحتمل هو التعصب الديني.. أردنا أن نتأكد من أن هذا الولد هو ابنك حقًا وأنه يعيش في هذا البيت.

- ليس لدي ولا لابني أي معلومات عن أي هجوم إرهابي.. لقد أزعجتما عائلتي.. أنا الأستاذ "مصطفى"، مفتي المسلمين في هذه المنطقة، وأطالب باحترام ديني وأسرتي، وغدًا سوف أتقدم بشكوى إلى البلدية، وأطالب باتخاذ الإجراءات الملائمة تجاهكما.

قال أحد الضابطين في محاولة لتهدئة التوتر:

- سيدي، لك مطلق الحرية في تقديم شكوى، ولكن أرجو أن تسمح لنا بشرح الأمر.

كان من الواضح أن شريكه يفضِّل أن يتخذا نهجًا أكثر صرامة.

- أستاذ "مصطفى"، كما قلنا، وقع هجوم إرهابي كبير في باريس قبل بضع ساعات، وقد تجاوز عدد الضحايا المائة شخص، لقد استيقظت باريس بأكملها.. الناس غاضبون ويلقون باللوم على جميع المسلمين والعرب.. هناك هجمات على محلات يمتلكها العرب، تم تدمير بعضها، منها متجر الشيشة في "حيكم".

وقاطعه الضابط الآخر:

- سيدي، لقد اصطحبنا ابنك إلى بيته من أجل سلامته، فليس من الحكمة أن يمشي شاب عربي في شوارع باريس الآن.. الناس في غاية الغضب.. ننصحكم بعدم الخروج من المنزل لبضعة أيام حتى تهدأ الأمور.

كان "مصطفى" لا يزال غاضبًا:

- ماذا تقصد بعدم الخروج من المنزل؟ هذا انتهاك صارخ لحريتنا.

- سيدي، نصيحتنا من أجل سلامتكم.

لم يرد "مصطفى"، وأدرك ضابطا الشرطة أنهما أنهيا مهمتهما فغادرا الشقة وأغلقا الباب وراءهما بهدوء، وكانت الأسرة بأكملها لا تزال مستيقظة وتجمعوا مرة أخرى في غرفة المعيشة.. ساد الصمت، ولكنه صمت سوف يعقبه انفجار لا محالة.

قال "مصطفى" ساخرًا:

- ابني، لقد عصيت أمري.. يا له من أمر رائع!

وقف "علي" في منتصف غرفة المعيشة مُحنيًا رأسه.

- ماذا سيقول الناس عنَّا؟ ماذا سيقولون عنِّي؟

ظل "علي" صامتًا.

- تكلَّم! لقد تسببت بالإهانة لوالديك.. أنت ترفض الاعتراف بنا كعائلتك، أليس كذلك؟ هل سوف تتنكر لله أيضًا بسبب ولعك بتلك الفتاة الكافرة؟

- أبي...

قاطعه "مصطفى" بصوتٍ أعلى:

- لقد سحرتك تلك الفتاة.. لقد واجهت أنا أيضًا إغراءات مشابهة وأنا في عمرك، ولكن في اللحظة الأخيرة، وأنا قريب جدًّا من مسار الخطيئة والضلال المبين، عُدت إلى وعي، وتزوجت والدتك.. كنت أعرف كل أسلافها، حتى أولئك الذين عاشوا قبل خمسمائة عام.. إن والدتك امرأة مؤمنة وقد كرست حياتها لعائلتها.. تخيَّل ما كان سوف يحدث إن كنت قد تزوجت من امرأة كافرة مجهولة النسب.

قال "علي" بشجاعة:

- إن المرء لا يخجل من والدته.. كنت أحببت أمي بغض النظر عن أي شيء.

- "علي"، إنك على الطريق الخطأ.. نريد أن نمنعك من اتخاذ قرارات لا رجعة فيها.

انفجر "علي" فجأة، وقاطع والده لأول مرة في حياته:

- على الطريق الخطأ؟ وما الطريق الصحيح يا أبي؟ أن تحب وتتعذب؟ أن تستقر على مهنة تكرهها، منصاعًا لرغبة والديك؟ أن تتعذب وتتعذب وتتعذب وتنسب كل شيء إلى الله؟ أبي، الله هو الحب.. الله ليس العذاب.. الله يحبنا مثل أولاده، هو أب لا يمكن أن يسبب الألم والمعاناة لطفله.. من المفترض ألا نسبب الألم لبعضنا البعض، وهل نحن مختلفون عن هؤلاء الذين يرتكبون أفظع الجرائم باسم الدين؟

كان "علي" ينظر إلى التليفزيون، حيث تظهر على شاشتها صور الإرهابيين المشتبه فيهم.

تنهَّد "علي" وجرى إلى غرفة نومه، بينما ظل "مصطفى" واقفًا بلا حراك في منتصف غرفة المعيشة.. كان حائرًا منكسرًا، بدا وكأنه رجل أصابه الكِبر والعجز.

قضى "علي" الليل يحاول الاتصال بـ"ليز" عن طريق التليفون أو الإنترنت.. لكن تليفون "ليز" كان مغلقًا.. حاول الاتصال بأصدقاء آخرين، ولكن الرد تنوع بين إغلاق أو عدم استجابة.

في الصباح، دعته والدته إلى وجبة الإفطار.. هي أيضًا لم تنم.. لم تستطع أن تفهم معاناة ابنها، لكن هي نفسها تتعذب وتحاول أن تجد مخرجًا.. دخل "علي" المطبخ.. كانت والدته تسكب الشاي في الأكواب وتشاهد التليفزيون.

أعطت الأم كوبًا لـ"علي" وقالت:

- ابني، إنك لا ترحم نفسك.. أنا أفهم أن الحب يشرق بهاءً عندما تكون شابًا، ويبدو كل شيء من حولك جميلًا، وربما تعتقد أن والديك هما الوحيدان اللذان يتمنيان السوء لك، والدك لم يغلق عينيه طوال الليل.. كان قلقًا عليك.. والدك يحبك كثيرًا.

كان "علي" يستمع إلى كلمات والدته والتصقت عيناه بالتليفزيون.. كان قد قرر الصمت وعدم الرد على كلمات والدته.. فجأة شحب وجهه، وفقد القدرة على التنفس.. بدا "علي" لاهثًا، لا يستطيع استنشاق الهواء.

صرخت الأم:

- "علي"، انظر إليَّ، ماذا يحدث؟

لم يقل "علي" شيئًا.. ظل يلهث.. رفع يدًا مرتعشة وأشار إلى التليفزيون، وكان الإعلامي يتحدث سريعًا، معلنًا تفاصيل الهجوم الإرهابي الذي وقع الليلة الماضية.. كان الإعلامي واقفًا في الشارع أمام المكان الذي وقع فيه الهجوم، وأظهرت اللقطات بوضوح أن اسم المكان كان نادي "باتاكلان".. سقط الكوب من يده.

قفز "علي" يجري إلى الشارع مثل شخص أصابه الجنون فجأة..

كان الجو باردًا في الخارج، ولكن "علي" لم يشعر بشيء.. أخذ يجري إلى أن لاحظ سيارة أجرة، فأوقفها وصرخ للسائق أن ينقله إلى نادي "باتاكلان".. بدا السائق مرتابًا، تمتم شيئًا تحت أنفاسه، لكنه لم يعترض، وقبل وصولهما للنادي، واجههما ازدحام مروري، فقال السائق:

- الزحام شديد، لن أستطيع الاقتراب أكثر.

فدفع له "علي" ما يستحقه، خرج من السيارة وركض نحو الـ"باتاكلان".. كانت الشرطة قد طوقت المكان، وكان هناك حشد كبير من الناس، جاء البعض بدافع الفضول، أما الآخرون فهم من أقارب الضحايا يحاولون أن يعرفوا أي شيء عن ذويهم. وكان رجال الشرطة يحاولون إبقاء الحشد بعيدًا عن مكان الحادث.

- يُرجى الابتعاد! لا يوجد أحد هنا، تم نقل جميع الضحايا إلى المستشفى.

وسألت إحدى النساء:

- هل يمكنك أن تقول لنا أين أُخذ كل واحد منهم؟

- لا، يا سيدتي، نحن لا نملك تلك المعلومات، وسيتم الإعلان عن كل شيء على التليفزيون.

وسأل صحفي شاب:

- هل يمكن أن تخبرنا أي شيء عن عدد الضحايا؟

- لا توجد معلومات دقيقة إلى الآن.. يُرجى الابتعاد والسماح للشرطة بالعمل.

مكث "علي" في المكان لأربع أو خمس ساعات، إلى أن أدرك عبثية مسعاه، فقرر أن يذهب لرؤية جد "ليز"، قد يكون لديه بعض المعلومات.

كان باب دار المسنين مغلقًا في هذا الوقت المتأخر من الليل.. ولم يكن مسموحًا للزوار بالدخول.. رن "علي" جرس الباب طويلًا، إلى أن ظهرت ممرضة مستاءة جدًّا، ونظرت إليه مستغربة.

- ماذا حدث؟ من تريد؟ ساعات الزيارة قد انتهت.. تعال غدًا.

- سيدتي، من فضلك، اسمحي لي أن أرى "ماتيو"! هو في غرفة 216.. إنه أمر مهم جدًّا.

- غير مسموح! لقد حذرتنا الشرطة بعدم سماح أي شخص بالدخول أو الخروج بعد الأوقات المعلنة.. تعالَ غدًا.

- سيدتي، أتوسل إليكِ! يجب أن أرى "ماتيو"، إنها مسألة حياة أو موت.

نظرت الممرضة إلى "علي" مليًا، كان فعلًا مثيرًا للشفقة، فتعاطفت معه ودعته يدخل:

- كن هادئًا.. لديك بضع دقائق فقط.

- شكرًا لك، أيتها المرأة الطيبة! ليبارك الله فيك وفي عائلتك!

صعد "علي" درجات السلم مسرعًا إلى الطابق الثاني.. وجد الممر المألوف، وفتح الباب المألوف ودخل غرفة "ماتيو".. كان أحد السريرين فارغًا وكان "ماتيو" نائمًا على الآخر.. اقترب "علي" منه مترددًا.. الآداب العامة تمنعه من إيقاظه، ولكنه مضطر! اقترب من سرير "ماتيو" وهزه بلطف.

- الجد، الجد "ماتيو"، ألا تستيقظ؟

قال صوت من خلف "علي":

- الأمر غير مُجدٍ.. قام الأطباء بحقنه بجرعة كبيرة من أدوية المنومة.. سوف ينام حتى الصباح.

استدار "علي" ورأى البروفيسور "موشيه" واقفًا في مدخل الغرفة.

فسأله "علي" بقلق:

- ماذا حدث؟ لماذا قاموا بحقنه بالأدوية؟

- ألا تعرف؟ الشرطة زارته اليوم وطلبت منه التعرف على جثة.

كان صوت البروفيسور حزينًا:

- أعتقد أنك لا تعرف ما حدث.. قُتلت "ليز" في النادي، وجاءت الشرطة لإبلاغ "ماتيو".. أنا آسف جدًّا.. شد حيلك، يا بني.

سقط "علي" على الأرض وبدأ يهذي:

- إنه الشيطان، الشيطان.. أين أنتِ يا "ليز"؟

لم يكن يبكي، كان يلهث.

وفجأة قفز "علي" واقفًا، وهز نفسه وخرج بهدوء من الدار.. هواء عاصف بارد ضرب وجهه.. تجوَّل في شوارع باريس بلا هدف.. كانت الشوارع شبه خالية

باستثناء رجال الشرطة ورجال الإطفاء وأطباء الطوارئ، ومن سيارة تشق طريقها ببطء شديد، وقف شخص أفريقي يصرخ:

- هذه هي النهاية! اقترب يوم الحساب! توبوا إلى الله أيها المسيحيون الحقيقيون توبوا إلى الله!

لم يهتم به أحد.. كانت فتاة حمراء الشعر في العشرينيات من عمرها تجلس على الأرض في زاوية الشارع.. كانت تبكي وتعوي من الألم.. حاول "علي" أن يجد بعض التشابه بينها وبين "ليز".. لا، فملامح "ليز" كانت أكثر رقةً وجمالًا.

فكر "علي" في "أخناتون" وتذكر قصة أستاذه اليهودي.. إن "أخناتون" الأعمى أنشأ عبادة الشمس.. كان أول شخص على كوكب الأرض توصل إلى حقيقة أن الله واحد، وأن الله محبة، ولكن رجال الدين لم يسمحوا لهذا الحب أن يستمر طويلًا.. أخذوا الأمور بأيديهم.

واستمرت سيارات الشرطة تقطع شوارع باريس تدوي صفارات الإنذار.. بدا أن كل شيء في العالم قد فقد معناه، حتى صفارات الإنذار لا معنى لها.. كانت مجرد أصوات مصاحبة للإرهاب والقتل والعنف، وهي دائمًا ما ترافق الهجمات الإرهابية فتضاعف من مخاوف الناس وشكوكهم، والغريب أن صفارات سيارات الشرطة في "باريس" كانت مختلفة تمامًا عن صفارات سيارات الشرطة في أي مكان آخر؛ فهي تصدح بالألحان! هكذا يضيف الفرنسيون مسحة أناقة حتى وهم يسرعون إلى مكان الجريمة.. أناقة هم الذين ابتدعوها وهم الذين يفهمونها.. انظر إلى برج "إيفل"؛ فوفقًا لأعلى المعايير، ذلك البرج ليس سوى كومة من الحديد.. مثل تلك الأبراج التي تُشيد عادة بعيدًا عن مركز المدينة بحيث لا تشوِّه مشهدها المعماري، لكن الفرنسيين يرغمون الجميع على النظر إلى ذلك البرج وإقناعهم بأنه جميل.

كان عدد قليل من الأفارقة يقفون خارج المدخل يدخنون الحشيش سرًا، أو هكذا يعتقدون؛ فرائحة الحشيش امتدت حتى نهاية الشارع.. وفجأة، بدأ "علي" يجري، لا يعرف لماذا.. مر من شارعين، ثم توقف لاقطًا أنفاسه.

امرأة عجوز نظرت له بنظرة إدانة، كان "علي" يستطيع قراءة ما توقله عيناها وكأنها تقول: "هذه نتيجة الحرية التي منحناها للمسلمين.. هؤلاء الملتحون ليس مكانهم بيننا، ولكن لم يستمع إليَّ أحد.. من كان يظن أن مراهقًا عربيًا سيجرى في شوارع باريس؟ من يدري، فربما هو أيضًا إرهابي يخبئ قنبلة تحت قميصه!".

في الواقع، لم تؤمن المرأة بأي دين.. اقتربت من "علي" وسألت:

- هل كل شيء على ما يرام، يا بني؟

لم يجبها "علي" وقام يركض هاربًا.. أراد الهروب من كل شيء وكل شخص.. لم يرد أن تسأله المرأة عن دراسته الجامعية أو أهداف والديه لمستقبله.

تباطأت خطوات "علي".. كان الظلام قد حل وخلت الشوارع من المشاة، ولكن، في وقت لاحق من الليل، لاحظ "علي" أن الناس يخرجون من منازلهم متجهين إلى

مكان ما.. قرر الانضمام إلى تلك المسيرة العفوية، ومثل ورقة شجرة سقطت في الماء، استسلم لتدفق النهر.

على بعد شارعين، ظهرت كاتدرائية "نوتردام" أمام عينيه.. كان الحشد ذاهبًا إلى القداس.. شيءٌ ما سحب "علي" إلى فناء الكاتدرائية، فاستقرت عيناه على "نقطة الصفر"، حيث تبادل هو و"ليز" أول قبلة لهما.. وقف في سكونٍ تام لبضع دقائق.. مرت ذكرياته مع "ليز" أمام عينيه.. شعر بضعف في ركبتيه.. ليلتان لم يذق فيهما النوم، ولا يعرف متى أكل آخر مرة.. كان يتجول في شوارع باريس طوال اليوم.. شعر بعجز شديد حتى إنه بدأ يئن ويتنهد.

ركع "علي" على "نقطة الصفر"، وأخذ يبكي بصوتٍ عالٍ.. كان هذا الحجر هو الشيء الوحيد المتبقي من حبه الكبير المفقود.. صرخ ورفع عينيه إلى السماء طالبًا المساعدة من الله.. إذا كان قد فعل ذلك في أي يوم آخر، لكان قد جذب انتباه المارة، ولكن في ذلك اليوم، لم يكن لدى باريس وقت لمواساة شخص واحد؛ ففي ذلك اليوم، كانت باريس نفسها على ركبتيها، تنوح وتنتحب.

تجمَّع حشد كبيرٍ من المسيحيين في ساحة الفناء أمام "نوتردام"، وكان الناس يأتون إلى الكنيسة بحثًا عن إجابات على الأسئلة كانت تؤرقها لقرون طويلة.

داخل الكاتدرائية، كان الأسقف يقيم قداسًا لأرواح ضحايا الهجوم الإرهابي، كان الأسقف، في ملابسه الكنسية المذهبة، واقفًا أمام المذبح، يقول باللغة اللاتينية: "Deus lo vult!"، فيردد المؤمنون: "Deus lo vult!".. "إنها مشيئة الرب".. "إنها مشيئة الرب".

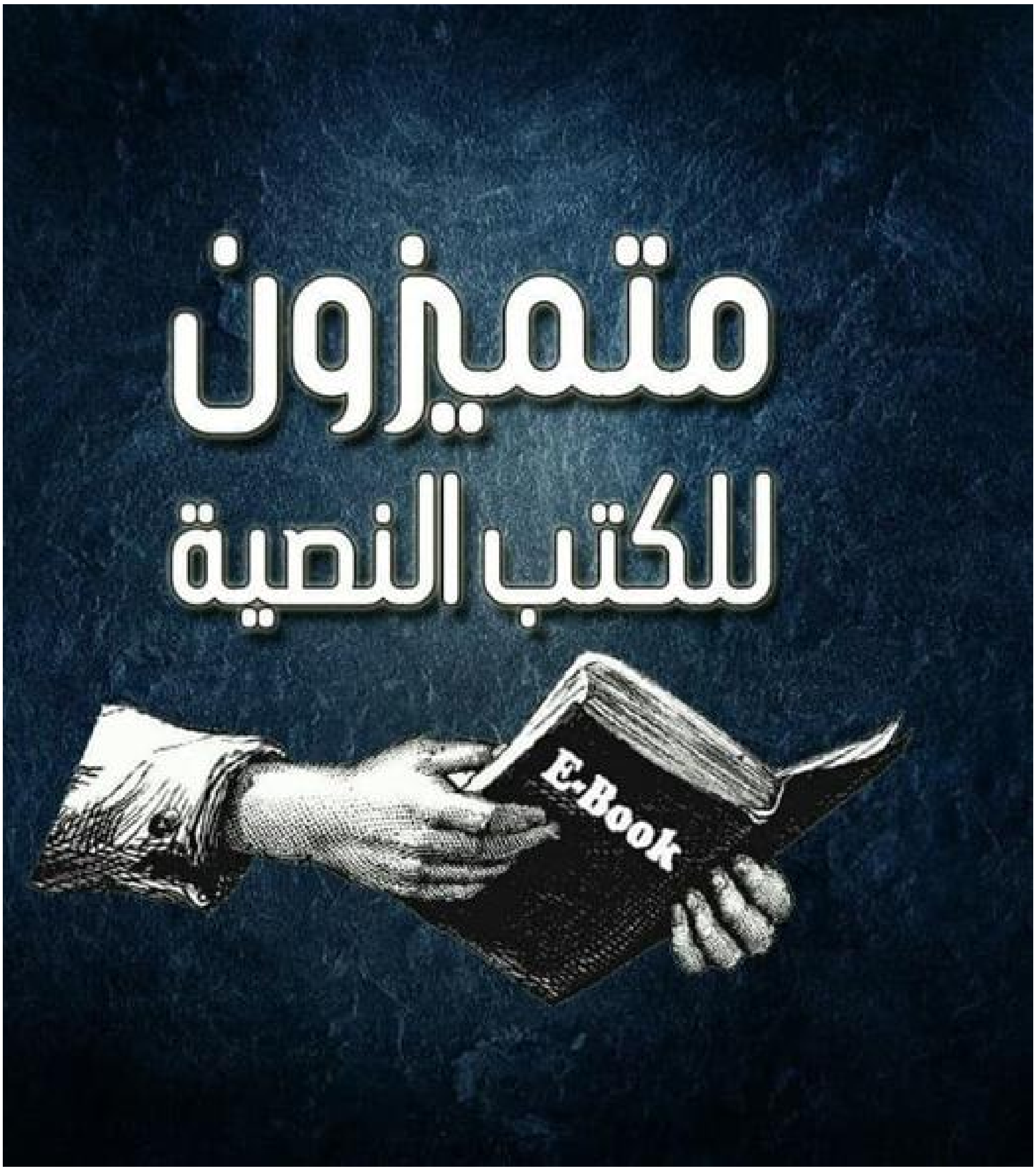
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

(1)

القداس

(2)

خطاب الإمبراطور "ألكسيوس الأول كومنينوس" لـ "أوربانوس الثاني"

(3)

خطوات "سعيد" الأولى

(4)

قصة أبو طاهر أراني

(5)

الإيمان أم الغرام؟

(6)

«علي» وجد «ليز»

(7)

البروفيسور «موشيه» يحكي قصة أخناتون

(8)

"أوربانوس الثاني" يدرس الرأي العام

(9)

حجاج "أوربانوس الثاني"

(10)

هروب "سعيد" إلى قلعة آلموت

(11)

آلموت

(12)

حديث بين الأب والابن

(13)

حلم "علي"

(14)

رسائل الفرسان الصليبيين إلى البابا "أوربانوس الثاني"

(15)

الصليبيون في "أنطاكية"

(16)

"حبيبة".. اكتشاف "سعيد" الأول في آلموت

(17)

رأس "المعلم".. اكتشاف "سعيد" الثاني

(18)

سر البابا "أوربانوس الثاني"

خاتمة

باريس.. 2015م

Notes

[←1]

(1) ()- طائفة الحشاشين هي طائفة إسماعيلية نزارية، انفصلت عن الفاطميين في أواخر القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله ومن جاء مِن نسله، واشتهرت ما بين القرن ٥ و٧ هجري الموافق ١١ و١٣ ميلادي، وكانت معاقلهم الأساسية في بلاد فارس وفي الشام بعد أن هاجر إليها بعضهم من إيران. أسّس الطائفة الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة آلموت في فارس مركزاً لنشر دعوته؛ وترسيخ أركان دولته. اتخذت دولة الحشاشين من القلاع الحصينة في قمم الجبال معقلاً لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية في إيران والشام. ممَّا أكسبها عداءً شديدًا مع الخلافة العباسية والفاطمية والدول والسلطنات الكبرى التابعة لهما كالسلاجقة والخوارزميين والزنكيين والأيوبيين بالإضافة إلى الصليبيين، إلا أن جميع تلك الدول فشلت في استئصالهم طوال عشرات السنين من الحروب. كانت الاستراتيجية العسكرية للحشاشين تعتمد على الاغتيالات التي يقوم بها «فدائيون» لا يأبهون بالموت في سبيل تحقيق هدفهم. حيث كان هؤلاء الفدائيون يُلقون الرعب في قلوب الحكّام والأمراء المعادين لهم، وتمكنوا من اغتيال العديد من الشخصيات المهمة جداً في ذلك الوقت؛ مثل الوزير السلجوقي نظام الملك والخليفة العباسي المسترشد والراشد وملك بيت المقدس كونراد.